الكنيسة القبطية

والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى

مقدمة :

لو دققنا النظر فى ثنايا القرون المتلاحقة والعصور المتوالية من التاريخ المصرى ، لوجدنا أن روح القومية لم تندرس معالمه نهائياً بين المصريين ، بل إنهم احتفظوا بذلك الروح حتى أخذ يصبو ويزهو أحياناً كما يتضح ذلك فى عصرين معيّنين وفى مشروعين قُصِدَ بهما تحقيق استقلال مصر والمصريين من النير الأجنبى : أحدهما حديث ، والآخر تقادم العهد عليه حتى كاد أن يصبح نسياً منسياً . أما الحديثِ فهو مشروع الجنرال يعقوب سنة ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ الذى يقترن بعصر الحملة الفرنسية على مصر ، وهو المشروع الذى كشف عنه ونشره الأستاذ الكبير شفيق غربال بك ؛ وأما القديم فيرجع تاريخه إلى القرنين السابقين للفتح العربى لمصر مباشرة ، وهو ما نسميه بالعصر البيزنطى القبطى .

وبقدر ما وَضُح لنا الآن مشروع الجنرال يعقوب حتى أصبح فصلا لازماً من فصول تاريخ مصر الحديث ، بقدر ما أسدل ستار النسيان على المشروع القديم .

أسباب إهمال هذه الدراسة :

وأسباب ما أحاط بهذه الدراسة من إهمال يمكن تلخيصها فى شعبتين : الأولى عامة تشمل دراسة التاريخ الوسيط فى جملته ، إذ أصابه غبن كبير من المؤرخين القدامى الذين اعتبروه عصر الظلام ، واعتبروه قنطرة توصل بين حضارة الرومان الزاهرة والمدنية الحديثة الباهرة يفصل بينهما وادى الظلمات وعالم الجهل والبربرية . والواقع أن نهضة الدراسات الوسيطة هى نهضة حديثة العهد ، وفضل العصور الوسطى والمدنية الروحية الوسيطة على تقدم الحضارة

الإنسانية إنما أصبح أمراً معترفاً به فى أخريات السنين ، والذى يهمنا معرفته هو أن الإهمال الذى حاق بدراسة التاريخ الوسيط شمل هذا العصر البيزنطى القبطى الذى نحن بصدده . وهنالك الشعبة الأخرى فى أسباب ذلك الإهمال ، ألا وهى اعتبار دراسة تاريخ هذا العصر مسألة دينية أو طائفية ، فانحصر نشاط الباحثين فيها فى دائرة ضيقة محدودة . والواقع أن تاريخ هذا العصر القبطى وتاريخ الكنيسة المصرية أصبح يعتبر — بفضل اجتهاد المجتهدين فى إخراجه — من أروع الفصول فى تاريخنا القومى العام ، بدليل الآثار الهائلة التى خلـّفها على مجريات تاريخنا المصرى الخاص من ناحية وتاريخ الحضارة العام من ناحية أخرى . فإحياء القومية المصرية فى العصر البيزنطى القبطى يرجع الفضل فيه إلى نشاط الكنيسة المصرية ، وناهيك — من ناحية أخرى — عن فضل التعاليم الرهبانية والديرية على توجيه الحضارة العامة ؛ وهذه التعاليم من أصل مصرى بحت بلغت أوجها فى قوانين باخوميوس ومقار وشنوده فى القرنين الرابع والخامس .

حدود الموضوع :

أما الحدود الزمنية لمصر البيزنطية القبطية ، كما نراها ، فهى **٣٢٣** — **٦٤٠** م . ففى **٣٢٣** اعتلى قسطنطين الكبير عرش الإمبراطورية الرومانية ، وكان لذلك ، أثران على أعظم جانب من الخطورة فى التاريخ العام والتاريخ المصرى الخاص إذ فى تلك السنة يؤسس مدينة القسطنطينية فتنشأ الإمبراطورية الشرقية أو البيزنطية ، وتنتقل إليها ملكية مصر ، أما فيما يتعلق بالنهاية فإن سنة **٦٤٠** أشهر من أن نعرّف بها ، فالفتح العربى لمصر لا يحتاج إلى تعريف .

تطور التاريخ المسيحى فى القرون الأولى الميلادية :

بعد رسم الحدود التى يدور ضمن نطاقها بحثنا ، نرى لزاماً علينا إجمال الخطوط الرئيسية والخطوات الكبرى فى تطور تاريخ المسيحية بهذه الديار ، حتى نصل عن هذا الطريق الطبيعى إلى فهم الظروف التى نشأت بها القومية المصرية فى طيات الكنيسة القبطية :

أولا : المرحلة الأولى هى مرحلة الاضطهادات الوثنية للمسيحيين وكانت تدور

أساسياً حول عبادة الأباطرة ، وأهم هذه الاضطهادات تقترن باسم نيرون سنة ٦٤ م وتراچان سنة ١٠٦ م وديسيوس سنة ٢٥٠ م ودقلديانوس سنة ٣٠٣ م وفى عهده يبدأ تاريخ الشهداء فى التقويم القبطى سنة ٢٨٤ م وهى سنة اعتلائه عرش الإمبراطورية .

ثانيا : المرحلة الثانية هى مرحلة انتشار المسيحية فى مصر بالرغم من هذه الاضطهادات حتى إن فلاسفة الإسكندرية وعلى رأسهم Pontinus ثم اكليمنضس ثم أوريجانوس يعتنقون الديانة الجديدة فى القرن الثانى ويصبغون تعاليمها بالصبغة الفلسفية ، وتصبح المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية عندما يصدر قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٢ م .

ثالثاً – يتلو ذلك عصر الردة الوثنية فى عهد يوليان الزنديق سنة ٣٦١ فيكون من آثاره بين المصريين تلك الثورة السكندرية التى انتهت بإحراق السرابيون سنة ٤١٢ ورجم هيبا شيا سنة٤١٥ ، ولهذين الحادثين مغزاهما البالغ فى مجرى إيقاظ الشعور القومى ، إذ أن الخلاص من السرابيون إلى جانب أنه كان مسألة دينية فهو أيضاً مسألة القضاء على رمز العبادات البطلمية وعلى أكبر معقل من معاقل الفكر الهللينى الدخيل ، وما يقال عن السرابيون يقال عن هيباشيا أخرى فلاسفة المدرسة اليونانية القديمة . وفشل الردة اليوليانية يدل من ناحية أخرى فى التاريخ العام على أن المسيحية قد استقر أمرها نهائياً وأن يوم الوثنية قد أدبر وولّى .

رابعاً – يوازى هذه الحركة ويتبعها حركة أخرى من أهم الحركات ليس فقط فى تاريخ مصر القومى وإنما فى تاريخ العالم المسيحى ، هذه هى حركة المجامع المسكونية وأهمها (١) مجمع نيقية سنة ٣٢٥الذى انعقد بأمر قسطنطين الكبير وحضره ثلثمائة أسقف من أقطار المسكونة برياسة الإمبراطور للحكم على البدعة الأريوسية ، وانتهت بانتصار الحزب المصرى السكندرى برياسة البطريرك ألكسندروس وفى صحبته أثناسيوس – وكان لا يزال شماساً – وتمخض المجمع عن صياغة قانون الإيمان الذى أصبح منذئذ دستور العقيدة الجديدة . (٢) مجمع أفسس سنة ٤٣١ الذى انعقد بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس للنظر فى بدعة نسطوروس بطريرك القسطنطينية من أن الجزء الإلهى من المسيح لم يولد من العذراء ، وإذن فالعذراء أم للمسيح الإنسان فقط ؛ وقد حضره الحزب المصرى برياسة البطريرك

كيرلس الكبير وانتصر المصريون فيه أيضاً ، الأمر الذى أزعج التيوقراطية البيزنطية و بطاركة القسطنطينية ، فبدأوا يقلبون لهم ظهر المجن كما يتضح من تاريخ آخر المجامع المسكونية وهو : (٣) مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ الذى انعقد بأمر الإمبراطور مرشيانوس Marcian لتعريف طبيعة المسيح ، وكان الحزب المصرى — وعلى رأسه البطريرك ديسقوروس — يقول بمبدأ الطبيعة الواحدة ، والحزبان البيزنطى والرومانى يقولان بمبدأ الطبيعتين الإلهية والإنسانية . وفى غضون النقاش الذى دار حول هذا الموضوع تتكوّن المونوفيسية المصرية وتأخذ شكلها الثابت فى أذهان المصريين ، بالرغم من اندحارهم لأول مرة فى هذا المجلس الصاخب ونفى بطريركهم ديسقوروس .

وكان مجمع خلقيدونية بمثابة نقطة التحوّل فى العلاقات الدولية بين المصريين والبيزنطيين ، كان بمثابة إعلان الحرب الأهلية بين الأقباط المغلوبين على أمرهم واليونان الحاكمين بأمرهم : البطريق الوطنى يُنْفى فى سنة ٤٥١ ويموت فى المنفى سنة ٤٥٤ ، بينما تعمل الحكومة فى نفس الوقت على تعيين أحد أعوانها وهو Proterius (٤٥٢ — ٤٥٧) خلفاً له على الكرسى السكندرى بقوة السيف ، فيردّ المصريون على هذا الإجراء بانتخاب أحد المواطنين بطريركاً معارضاً وهو تيموثاوس ، فيطارده الحاكم البيزنطى ديونيسيوس ويعزله قهراً ، وبذلك تنفجر الثورة فى صفوف المصريين فيقومون بمظاهرات تنتهى بتخريب واسع النطاق فى المدينة . ولكن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد ، بل يندفع الثوار وراء الخائن Proterius فيغتالونه ويجرون جثمانه فى شوارع الإسكندرية ثم يحرقونه ويذرون رفاته فى الهواء . وقد كان لهذا الحادث العنيف صداه فى نفوس المصريين وفى نفوس البيزنطيين ، وبه اتسعت شقة الخلف بين الطرفين المتخاصمين ، ولم تعد المسألة قاصرة على الاختلافات المذهبية بين المونوفيسية المصرية والملكانية البيزنطية ، وإنما مسألة الجهاد الوطنى ضد ثيوقراطية القسطنطينية ، بعد أن تمركز هذا الجهاد فى حجر كنيستهم القومية بزعامة بطريركهم المصرى المنتخب الذى يعارض البطريرك الملكانى المعيّن .

من العبث والإسراف أن أحاول الإلمام بتفصيلات سلسلة الحوادث الطويلة المعقدة التى نجمت عن مجمع خلقيدونية : فالجهاد الوطنى يستمر ، والقلاقل

تتفجّر فى الإسكندرية بعدحادثة پروتيريوس الملكانى وتيموثاوس المونوفيسى ، وتظل الحال على هذا المنوال قرابة قرنين من الزمان ، نكتفى منها بالإحاطة بنقط التحول الرئيسية فى هذا الصراع ، إذ أن هذه النقط تعتبر أيضاً من نقط التحول فى تاريخنا القومى أيضاً .

بيد أنه قد يتساءل متسائل — ونحن فى هذه المرحلة — عما إذا كانت تلك الحركة الاستقلالية من الحركات المفتعلة أو الحركات المحلية التى يثيرها بعض المتذمرين أو الدساسين أو الساعين وراء غايات شخصية ، يحركون من أجلها طغام المدن ، ولكنها لا تمثل الرأى العام الحق بين طبقات الشعب ، القاصى منها والدانى ..

مراكز الحركة القومية الجديدة :

والإجابة على هذا السؤال تتطلب إبراز المراكز التى ظهرت فيها الحركة القومية الجديدة والأسباب العامة التى من أجلها انفجر بركان القومية المصرية ، لنتبين ما إذا كانت هذه الحركة قاصرة على الإسكندرية ، أم هى تعدّتها حتى وصلت إلى صعيد مصر بين العام والخاص بعيداً عن عاصمة البلاد .

الواقع أن دراسة الحركات العامة فى تاريخ مصر القومى فى هذا العصر السحيق ، تدل بوضوح ليس بعده وضوح على أن إفاقة الشعور المصرى الوطنى فى القرن الخامس لم تكن قاصرة على الحدود الضيقة لمدينة الإسكندرية أو أى مدينة أخرى فى الشمال أو فى الجنوب ، ولم تكن من نوع الحركات التى يفرضها جمهور المفكرين أو بعض المحرضين أو البلغاء على عامة الشعب من الجهلاء فى منطقة من المناطق . كلا ! إن دراسة الوثائق واستعراض أحدث البحوث فى هذا الميدان يدفعاننا إلى الاعتقاد بأن إعلان الجهاد فى سبيل تحقيق الفكرة الاستقلالية بين عامة الشعب كان أمراً طبيعياً ولا بد واقعاً بحكم التطورات التى نلحظها فى شخصية الأمة وفى الظروف والأسباب المحيطة بأفرادها .

أما الأسباب التقليدية الواردة فى بطون الكتب قاطبة لتعليل هذا الانفجار — من دينية وسياسية واقتصادية وثقافية — فجميعنا نعرفها من دراساتنا وقراءاتنا السابقة ولا داعى لتكرارها هنا ، وهى كلها أسباب لها أصل من الصحة ، ولكنها فى جملتها تنبع من سبب جامع مانع أهملته الكتب ، هو

السبب النفسانى أو السيكولوجى ، أى إفاقة الوعى القومى المصرى . وذلك الوعى القومى يتبلور بشكل واضح فى مركزين رئيسيين : الأول ، الكنيسة القبطية — أى المصرية فى العاصمة على النحو الذى سردنا مقدماته وملخصه ولناعود إليه فى خاتمة الكلام . الثانى ، فى قلب الصعيد الأعلى ، حيث يتجمهر المصريون حول شخصية من أعجب شخصيات القرن الرابع والخامس فى منطقة سوهاج ؛ تلك هى شخصية الأنبا شنوده الذى وصفه أحدث المؤرخين المحدثين عن القبط — وهو الأستاذ Worrell العلامة الأمريكى — فى محاضراته بجامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢ ، بأنه أعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصور تاريخهم الطويل ، وبأنه مؤسس المسيحية القبطية .

"The most remarkable man whom the Copts ever produced — the founder of Coptic Christianity"

شنوده :

قد يكون Worrell مبالغاً فى هذا التعميم البادى فى حكمه ، ولكن ما لا شك فيه هو أن القديس شنوده كان علماً من أعلام إفاقة الوعى القومى . ولا بد لنا من استعراض حياته فى إلمامة سريعة لتقدير مركز هذا المواطن الأول فى حركة إحياء القومية المصرية .

اعتنق شنوده المبادئ الرهبانية فى رعاية عمه المدعو Pgol مؤسس الدير الأبيض سنة ٣٥٠ ، وفى سنة ٣٨٣ يخلفه فى رياسة هذا الدير ويظل فيها ٦٦ عاماً طوالا تمكّنه من تدعيم حركته على الأسس التى رسمها . ومن المؤكد أن شنوده عاش بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ فبلغ من العمر عتياً وجاوز القرن من الزمان ، وقد عاصر فى أثناء هذا القرن حوادث خطيرة فى تاريخ مصر والإنسانية : عصر الانتقال من الوثنية إلى المسيحية ، عصر المجامع المسكونية — وقد حضر بعضها ، مثل مجمع أفسس سنة ٤٣١ — دعوة يوليان الزنديق للردة الوثنية سنة ٣٦١ ، إحراق السرابيون حوالى سنة ٤١٢ ورجم هيباشيا سنة ٤١٥ فى بطركية ثاوفيلس ، الصراع بين المونوفيسية والملكانية ، نمو التعاليم الديرية إلى درجة تفوق حد الحسبان . . إلخ .

وفى وسط كل هذا نرى شخصية شنوده الجبارة تظل حركة إفاقة الوعى القومى ، التى تدل الدلائل على أنها كانت أقدم من مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١

وأبعد من الإسكندرية فى جوف الديار المصرية .

أما قوة شنوده واتساع دائرة جماعة الدير الأبيض من أتباعه ، فهى ثابتة من الحوادث التى تناقلتها الأصول التاريخية عنه . ومن ذلك القصة الواردة فى إحدى سيره القبطية من أن عشرين ألف مواطن – رجالا ونساءً وأطفالا – لجأوا إلى الدير الأبيض والمؤسسات المحيطة به فراراً من وجه القبائل الجنوبية المسماة Blemyes فآواهم شنوده أكثر من ثلاثة شهور أطعمهم فى أثنائها ٨٥ ألف أردب من القمح المخزون فى أديرته . فلنتصور إذن كيف كان هذا الإنتاج ممكناً ؟ اللهم إلا بالمساحات الواسعة الخاضعة له وتعدد جماعاته والإدارة الحكيمة الحازمة التى كان الأنبا شنوده المدبّر الأول لها .

لا أريد – فى هذا المقام – أن أسرد إصلاحات شنوده الإدارية فى الحياة الديرية خاصة وفى الحياة الاجتماعية بأرض الوطن عامة ، ولا أريد الإطالة فى أثبات ما قاله Worrell من اعتبار شنوده أصدق تعبير للعبقرية المصرية أو القبطية فى هذا العهد ، ولكننى أكتفى بأن أذكر أن غريزة الأنبا شنوده الاستقلالية كانت تدفعه دفعاً للعمل فى تحرير الفكر المسيحى المصرى من التقاليد والتعاليم الهللينية ، وتقوية المبادىء المونوفيسية المصرية ضد الطابع اليونانى الذى انطبعت به الأورثوذكسية البيزنطية .

ولكن أثر شنوده لم يقتصر على عالم الفكر فحسب ، بل إن كراهيته لكل ما هو يونانى دفعته فى نفس الوقت إلى استئصال الألفاظ الإغريقية الدخيلة فى القداس والصلوات والتراتيل القبطية ، كذلك تعمّد بطريقة منظمة تهذيب لغة القبط وتحريرها وتنظيفها بوجه عام من كل نفوذ إغريقى سواء أكان ذلك فكرياً أم لفظياً .

وكان شنوده كاتباً بارعاً مكثراً من الكتابة ، وكان خطيباً مصقعاً مكثراً من الخطابة . وكتاباته وخطاباته – بالرغم من انطباعها بطابع البساطة والبداوة – كان لها من السحر على أفهام معاصريه مالا جدال فيه . وكان شنوده يكتب ويخطب باللهجة الصعيدية ، فأصبحت هذه اللهجة بفضله لغة الأدب والكتابة ، بينما أصبحت اللهجة الأخميمية – التى كانت أكثر شيوعاً فى الصعيد – لغة الكلام الدارج ، كما بقيت اللهجة الفيومية فى الصعيد الأوسط واللهجة البحيرية فى الوجه البحرى لغة الكلام أيضاً ؛ إلى أن انتقلت البطريركية

القبطية من وادى النطرون إلى القاهرة فى القرن الحادى عشر ، فأدخلت اللهجة الأخيرة على القداس فى عهد متأخر .

لا أعلم إذا كان من المنطق لتقريب صورة شنوده إلى الأذهان أن أصفه بأن شأنه فى تاريخنا القومى فى القرن الخامس كان مثل شأن سعد زغلول ومحمد عبده مجتمعين فى تاريخنا القومى فى القرن العشرين .

الأدب القومى :

والعجب العجاب أن حركة إحياء الأدب القومى التى ندين بها إلى القديس الأنبا شنوده ، تلك الحركة التى يمكن بحق اعتبارها من دعائم الإفاقة الوطنية ودليلا من أصدق الأدلة عليها — حركة تنشيط القلم وشحذ الذهن المصرى البحت فى أسلوب مصرى خالص من شوائب الفكر واللفظ الدخيل عليه من الفكر الهلليني واللغة الإغريقية ؛ أقول إن تلك الحركة لم تكن من الحركات العارضة التى تصبو فى يومها وتخبو فى غدها ، بل إنها تعدت حدود الزمن الذى عاش فيه الأنبا شنوده ، وظلت — بحكم قوة الدفع المستمد من الوعى القومى — تسير إلى الأمام وتزدهر فى القرون السابقة للفتح العربى واللاحقة له على السواء . وبينما كانت فى عهد الأنبا شنوده ، وحتى نهاية القرن السادس على وجه التقريب ، تنطبع بطابع الأدب الدينى فحسب ، فإنها بعد الفتح العربى تنحرف فى أكثر الأحايين إلى ناحية الأدب الزمنى أو الدنيوى ، فتعبر بذلك فى صدق رائع وحماس هائل عن الشعور القومى وعن الفكرة الاستقلالية .

والأمثلة على هذه النزعة الأدبية الاستقلالية عديدة نقتبس من بينها مثلين أو ثلاثة : (١) قصة الصديقين المصريين ثيودوسيوس وديونيسيوس فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الميلادى ، باللهجة الصعيدية ، وأبطال القصة صانعان يهاجر أولهما إلى القسطنطينية ، ويصل إلى عرش الإمبراطورية ، وبعد حين يذكر زميل الصبا ديونيسيوس فيستدعيه ويقربه منه ويرقى به إلى مرتبة الرياسة من أساقفة بيزنطة . ليس فى القصة أى شىء دينى ، وإنما تتمثل فيها النزعة الوطنية التى تشيد بمجد المواطنين المصريين حتى فى القسطنطينية.
(٢) قصة قمبيز الفارسى وغزوه الديار المصرية ، والغالب أنها من تأليف أحد رهبان الدير الأبيض فى أوائل العهد العربى . وهى وإن تكن قصة تاريخية ،

إلا أن التاريخ فيها خليط من الحقيقة والخيال ، فلا يتبيّن القارئ من الاطلاع عليها ما إذا كان الكاتب مثلا يقصد قمبيز أو نبوخذ نصّر (بختنصر) ، أو هل يقصد الفرس أم الأشوريين أم البابليين . وفيها أيضاً يخلط الكاتب خلطاً غريباً بين الأفكار الوثنية والتعاليم المسيحية الجديدة . غير أن ما هو أهم من هذا وذاك كله أن الكاتب يتخذ من سرد وقائع القصة وسيلة لإذكاء الروح القومية فى ذلك الصراع الدموى الذى اصطدم فيه المواطنون مع الأعداء فى الدفاع عن بلادهم والذود عن حوضهم . وفيها يبعث الإله آبيس ، كما تبعث مدينة ممفيس فى عزّها التالد وفرعون مصر « وفرع » (Waphré = Apries 588-69 B.C.) .
والقصة - وإن تكن غير كاملة فى نصها الصعيدى المعروف بحيث لا نعلم منها ما آل إليه فيها أمر المصريين - إلا أننا نلاحظ بين سطورها الحض على جمع الصفوف ، وتركيز أدوات الحرب فى وجه العدو ، والوقوف وقفة الشرف والاستشهاد فى سبيل الوطن .

إذن فالروح الوطنية التى تولّدت فى أيام شنوده والتى لم يستطع البيزنطيون أن يخمدوا أنفاسها ، ظلت تزهو وتزكو بين المصريين حتى بعد الفتح العربى فى القرنين السابع والثامن للميلاد .

قصة ارشليتز وسنكليتيكى :

أما ونحن فى صدد الكلام عن الأدب القبطى ، فلا نستطيع التجاوز عن قصة من أروع القصص الذى أنتجه الذهن المصرى والأسلوب المصرى الذى تحرر من قيود الفكر والأسلوب الإغريقى ، ذلك بالرغم من أن طابعها العام دينى ، وهى محررة باللهجة الصعيدية الخالصة من آثار اللغة اليونانية .

هذه القصة وليدة فكر المفكرين الذى صاغوا كتاب « السنكسار » المصرى أو حياة القديسين من آباء القبط وشهدائهم . وخلاصتها أن ارشليتز بن يخنس وسنكليتيكى كان شاباً رومانياً مسيحياً غنياً مات أبوه وهو فى عنفوان الشباب ، فأرسلته أمه سنكليتيكى فى رحلة عبر البحر ليتم علومه فى أثينا وبيروت ، ولكن السفينة تغرق به ومن معه فى عاصفة هوجاء ، وتلفظه الأمواج على شاطىء جزيرة من الجزر ، ويدرك أنه الوحيد الذى نجا من الغرق ، وفيما هو يتجول على الشاطىء يفكر فى حاله إذ به يصطدم بجثة غريق ،

فيتأمل فيها طويلا ثم يتولاه القنوط من هذه الحياة الدنيا . وبذلك يقرر الرحيل عنها واعتناق المبادئ الرهبانية ، ويدخل دير الأنبا رومانوس Apa Romanus ويمعن فى النسك والتعبد حتى يبلغ درجة من القداسة تضعه فى مرتبة صانعى المعجزات . ومعجزات ارشليتز هى شفاء المرضى ، فيذيع صيته بين النّاس ، ويهرع القوم إليه من كل حدب وصوب . حتى تبلغ أخباره آذان أمه سنكليتيكى التى كانت لا تزال حزينة على فقدان ابنها ، فتوطد العزم على الرحيل إلى هذا الدير لترى وحيدها وفلذة كبدها . غير أن ابنها فى توحّده كان قد أخذ على الله عهداً أن لا يرى امرأة . وهنا تحدث المأساة ويشتد وطيسها فى النقاش الشعرى الذى يدور بين أبطال القصة . الأم تطرق باب الدير وتتوسل إلى ولدها أن يريها وجهه ويشاركها فى التوسل رئيس الدير دون جدوى . وأخيراً يصلى الابن لربه راجياً أن يأخذ روحه إليه حتى تستطيع أمه الدخول عليه لرؤياه بعد أن تفارقه الحياة ، فيجيبه الله إلى مطلبه وتراه أمه جثة هامدة ، فتنتحب هى بدورها وتطلب إلى باريها أن يأخذ روحها أيضاً حتى ترقد الرقاد الأبدى إلى جانب ولدها ، ويجيب الله مطلبها .

وفى هذه القصة تفصيلات كثيرة غاية فى الروعة ليس هذا مجال استعراضها ، وكل ما نرجوه أن يتيح الله لبعض شبابنا المثقف التوفر على دراستها ودراسة أمثالها من قطع الأدب القبطى المصرى التى جادت بها قرائح الآباء والأجداد .

فى ميدان الفن :

وإذا ما انتقلنا إلى ميدان الفن فى هذا العصر ، نرى آثار الروح القومية الجديدة واضحة فى تحرير الأساليب الفنية والمعمارية من تأثير التقاليد البيزنطية البحتة ، ولو أن هذه النزعة لم تكتمل تماماً إلا فى أوائل العصر العربى بعد الفتح .

ويظهر ذلك فى نواح مختلفة منها نظام الأيقونات القبطية للرسل ورؤساء الملائكة والقديسين فى الكنائس ، وبينها وبين الرسوم البيزنطية فروق واضحة .

كذلك تدل الرسوم التى على الأقمشة القبطية — والكثير منها فى متناولنا ويحتوى أمثلة رائعة فى جمالها من حيث التنسيق ودقة الصنع وبهجة الألوان

وانسجامها – تدل هذه أيضاً على أن فن الرسم والتطريز على القماش أخذ الطابع القومى هو أيضاً بدوره ، وقد برع فيه المصريون براعة تدعو إلى التقدير والإعجاب .

أما المعمار فنرى فيه أن الأعمدة القبطية تأخذ شكلها التقليدى المعروف فى الكنائس العتيقة بمصر القديمة ، وهذه الأعمدة ورءوسها وإنْ لم تبلغ فى جمالها وخفتها نظيراتها فى كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية ، إلا أن لها جمالا محلياً من نوع معين ، فمثلا رءوس تلك الأعمدة استوحى الفنانون الأقباط رسومها من السلال التى اعتاد الرهبان المصريون قتل الوقت فى صناعتها بالأديرة . وهنالك أيضاً الأفاريز ذات ال motif الحيوانى والنباتى ، بعضها نلحظ فيه ركض حيوانات الصيد ، وبعضها تنساب فيه فروع الكروم وأوراقها وعناقيدها المتدلية ؛ ثم المشكاة niche القبطية تظهر من أقدم العصور المسيحية وراء الهيكل فى شكل الصدفة المقببة إلى أعلى وفيها الدولفين .

ولا ننسى بأى حال من الأحوال صناعة الحفر على الخشب الذى تطور بمصر تطوراً عظيماً ، ودخل فيه التطعيم بالعاج ، كما أخذ فى مجمله اتجاه الرسوم الهندسية التى ليست من الفن البيزنطى فى شىء ، والتى أصبحت فيما بعد من أسس الفنون الإسلامية . وقد رأينا فى هذا الميدان أمثلة كثيرة فى أديرة وادى النطرون ترجع صناعتها إلى القرن الخامس ، نذكر على وجه أخص بعض الأبواب الخشبية المتحجرة لكنائس دير البراموس القديمة وعليها من نقوش القرن الخامس ما لا يستطيع الناظر تفرقته من بعض القطع الفاطمية أو الأيوبية .

خاتمة الحكم البيزنطى :

نلاحظ أن تلك المظاهر القومية فى الآداب والفنون وفى التفكير الدينى قد أخذت تتفاعل وتزداد شدة فى الوعى القومى كلما مرت السنون ، وأصبح الصراع بين المونوفيسية القبطية والأورثوذكسية البيزنطية صراعاً دموياً حول مشكلة الطبيعتين والطبيعة الواحدة التى اتخذها كل منهما ستاراً وسبباً لما يربض وراءها من المشاكل والمطامع . المصريون يعتزون بكرامتهم القومية ، والبيزنطيون ماضون فى ثيوقراطيتهم الاستبدادية . ثم زاد الطين بلّة ظهور نظرية جديدة متممة

للأفكار المونوفيسية وهى نظرية المونوليثية Monolethitism حول الإرادة أو المشيئة الواحدة للمسيح عند الجانب المصرى والإرادتين أو المشيئتين عند الجانب الغربى .

قد يبدو هذا الجدل الأريوسى فالمونوفيسى فالمونوليثى فى القرن العشرين نوعاً من الخبل والتخبط الكلامى والنقاش البيزنطى الذى لا طائل تحته ، ولكن علينا إذا أردنا أن ندرك مغزى الأحداث التاريخية أن ننظر إليها بمنظار المعاصرين لها وليس بفكر المفكرين فى القرن العشرين . أما المعاصرون فكانوا يرون فى كل ذلك مسألة المسائل ومشكلة المشاكل ، ونرى نحن اليوم كيف كانت هذه الاختلافات المذهبية البودقة التى اضطرمت بين جدرانها لهب القومية المصرية . فالأمر إذن لم يكن منحصراً فى نقاش ثيولوجى لاهوتى ، وإنما اختلط بيقظة الوعى القومى . وأصبحت المسألة الدينية هى القضية المصرية ، والتف المواطنون المصريون حول بطريركهم المونوفيسى ضد البطريرك الملكانى الذى يمثل الحكم الأجنبى البيزنطى بين ظهرانيهم ، كما أصبحت الكنيسة القبطية رمز الوطنية المصرية ، وفى حجرها ترعرعت أول حركة قومية استقلالية فى التاريخ المصرى منذ انهيار الإمبراطورية المصرية القديمة .

ومن بين المظاهر الواضحة لهذا الصراع أنه كلما اشتد الضغط الأجنبى على المصريين كلما ازداد عنادهم ، واشتد تمسكهم بأهداب كنيستهم وبطريركهم ونزعاتهم الاستقلالية . بيد أنه من العجب العجاب أن هذا الصراع الدموى لم يصرف المصريين عن نشاطهم الدينى والثقافى والاجتماعى فى اتجاهين من أروع الاتجاهات فى تاريخهم : الأول حركة التبشير بالمسيحية فيما وراء الحدود المصرية ، حيث فاز فرومنتيوس حوالى منتصف القرن الرابع وفى أثناء بطركية أثناسيوس الكبير بكسب إثيوبيا للديانة المسيحية على المذهب المصرى ، فارتبطت بذلك منذئذ هاتان الدولتان برباط العقيدة . والثانى هو قيام الرهبانية والديرية المصرية بزعامة كبار الآباء مثل أنطونيوس وباخوميوس ومقار وشنوده وغيرهم ، وهذه الحركة الديرية تعتبر من أينع ثمار الفكر المصرى ومن أبقى آثاره فى تاريخ الحضارة .

من ناحية أخرى نلاحظ أن الديار المصرية فى أخريات العصر البيزنطى كانت فى حال يرثى لها من التخبط والفوضى فى ميدان الدين والسياسة على

حد السواء . فالثيوقراطية البيزنطية بالقسطنطينية غير راغبة فى التسامح الذهنى أو فى تخفيف الضغط السياسى على المصريين ، والمصريون من جانبهم ماضون فى الدفاع عن كنيستهم وعقيدتهم ، مستمسكون بأهداب قوميتهم إلى آخر رمق فى حياتهم . وآنئذ يجىء جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) آخر بناة الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وبالرغم من أن زوجته ثيودورا كانت بلا نزاع مونوفيسية العقيدة ، فكان من الطبيعى أن تميل إلى مناصرة المصريين ما استطاعت لذلك سبيلا ، وبالرغم من أن جستنيان نفسه على ما قيل فى أواخر أيامه أعلن صدق المذهب المونوفيسى ، بالرغم من ذلك كله نجد أنه لا يألو جهداً فى قمع الحركة الاستقلالية المصرية بشتى الوسائل ، لا لسبب سوى نزعته الرومانية الاستبدادية ، وتصميمه على إعادة الوحدة الإمبراطورية العتيقة .

لتحقيق هذا الغرض ابتدع جستنيان فكرة البطريرك ذى الرياستين الدينيـــة والزمنيـــة ، وعيّن أپوليناريوس Apollinarius على هـــذا الأساس بطريركاً ملكانياً وحاكماً مدنياً على مصر حتى يتمكن من استعمال الجيش عند اللزوم فى إخضاع المنشقين . ولكن جستنيان لم يقدّر فى هذا الوضع الجديد صلابة عود المصريين ومدى عنادهم ، فجاءت طريقته الجديدة ضغثاً على إبالة ، وانتهى الأمر إلى نوع من الحكم العسكرى البحت ، وأصبح البيزنطيون فى مصر عبارة عن سلسلة من الحاميات تتوارى داخل الحصون والأبراج ، والمصريون فى البلاد واقفون لهم بالمرصاد . وهذا النوع من الحكم مهما طال به الأمد مصيره إلى الإخفاق إن عاجلا أو آجلا .

وقد بدأت الظروف فى بيزنطة ذاتها تمهد لهذه النتيجة الحتمية عندما اغتصب هرقل تاج الإمبراطورية من فوكاس (٦٠٢ — ٦١٠) ، فانحازت مصر للغاصب أملاً فى التخلص من النظام القائم ، ولكن هرقل الذى كافأ المصريين فى أول الأمر ببعض الحرية ، ما لبث أن قلب لهم ظهر المجنّ وعاد إلى سياسة أسلافه ، بينما كان الفرس يعدّون العدّة لفتح مصر الذى تم لهم سنة ٦١٩ ، فلما استردها هرقل من يدهم سنة ٦٢٩ نجد أنه لم يتعلم درساً من هذه الحوادث فى علاقاته مع المصريين ، فيبادر بالاعتداء الصارخ على حرياتهم ، ويعمل

على طمس معالم كنيستهم ، بتعيين المقوقس حاكماً عسكرياً وبطريركاً ملكانياً ، لكى يتم عليهم نقمة الاستعباد .

وفجأة — فى وسط ذاك الضجيج والصخب الذى بلغ عنان السماء — يتغير مجرى التاريخ الإنسانى ، وتنقلب فيه صفحة جديدة بظهور الإسلام وقيام الإمبراطورية العربية فى مصر وغير مصر من فلول الدولتين البيزنطية والفارسية وما وراءهما .

وهكذا يسدل الستار على فصل من فصول تاريخنا القومى — إنما التاريخ ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

عزيز سوريال عطية

دولة اليمن الزيدية

نشأتها – تطورها – علاقاتها

دولة اليمن الزيدية ، دولة عربية إسلامية شيعية زيدية ، أسسها الإمام الهادى إلى الحق « يحيى بن الحسين » ، الذى ينتسب إلى « الحسين بن على ابن أبى طالب ». أسسها فى بلاد اليمن سنة ٢٨٤ هـ – ٨٩٧ م .

قامت هذه الدولة على أساس دينى ، وهى الدولة الإسلامية العربية الوحيدة التى واصلت حكمها ، وحافظت على كيانها أكثر من ألف سنة من وقت قيامها إلى الآن ؛ ولكنها كانت فى هذه المدة تارة يمتد نفوذها حتى يشمل جميع بلاد اليمن ، وكل أجزاء القسم الجنوبى من الجزيرة العربية ، وتارة ينحصر سلطانها فى قسم من البلاد الجبلية اليمنية كمدينة « صَعْـدة » وما يحيط بها ، وكمدينة « شهَارة » أو مدينة « حَجـَّة » . وكل هذه مناطق جبلية حصينة ، تعتبر من حصون الزيدية باليمن ومعاقلها . « فصعدة » كانت مقر الدولة الزيدية وعاصمتها عندما أسسها « الهادى إلى الحق » ، و « حجة » كانت معتصم « الإمام أحمد » الحالى بعد مقتل والده المغفور له « الإمام يحيى » ، وعند قيام الثورة اليمنية الأخيرة .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نعطى صورة مختصرة لهذه الدولة التى تحكم فى اليمن منذ أكثر من ألف سنة ؛ وسنحاول أن نجعل هذه الصورة واضحة كفيلة بأن تعطى فكرة تامة عن الدولة اليمنية الزيدية فى نشأتها ، وتطورها ، وعلاقاتها .

* * *

ونحن نحب أن ننبه فى بدء الحديث إلى أن تاريخ اليمن الزيدية يكاد يعتبر من النواحى المجهولة فى التاريخ الإسلامى . فإن الباحث فى تاريخ اليمن الإسلامى إذا استقصى المراجع المعروفة عربية وأوروبية ، فسوف لا يجد فى هذه المراجع عن اليمن الزيدية ما يغنى . فإنا نجد « الطبرى » مثلا فى تاريخه المشهور لا يذكر « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة الزيدية إلا فى إشارة عابرة

تبلغ نحو الخمسة أسطر من كتابه « تاريخ الأمم والملوك » الذى يبلغ خمسة عشر جزءا فى طبعة « ليْدن » ، وحتى فى هذه الإشارة العابرة لم يذكره الطبرى بالاسم ، وإنما تحدث حديثاً عاماً عن رجل من العلويين . كذلك « أبو الفرج الأصفهانى » صاحب الموسوعة المعروفة « بكتاب الأغانى » ذلك الرجل الذى كان واسع الاطلاع والمعرفة ، نجده فى كتابه الذى ألفه خاصة عن « أبناء أبى طالب » ، والذى سماه « مقاتل الطالبيين » نجده لا يعرف شيئاً عن الطالبيين باليمن ، فهو يصرح ويقول : « على أنه يوجد فى اليمن فى ذلك الوقت ، وبنواحى طبرستان جماعة من آل أبى طالب قد ملكوها ، وتغلبوا عليها ، إلاأن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها إلينا ؛ بل لعدمهم وفقدانهم ».

و « ابن الأثير » فى كتابه « الكامل » نجده يصف لنا ضعف الخلفاء العباسيين وتدهور الأحوال فى الدولة العباسية فى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى خصوصاً فى عهد الخليفة « الراضى » ؛ ثم يعدد أصحاب الأطراف الذين استقلوا بما تحت أيديهم ، والدويلات التى انفصلت عن الدولة العباسية ، والأسر التى ظهرت لغاية سنة ٣٢٤ هـ ، ويعدها جميعها تقريباً ؛ ولكنه لا يذكر شيئاً عن الأئمة الزيديين فى اليمن ، مع أن دولتهم فى ذلك الوقت كانت قد قامت منذ أربعين سنة تقريباً .

أما « ابن خلدون » فى كتابه « العبر . . . » فقد عرف « الهادى إلى الحق » بالاسم ، وتحدث عنه فى نحو عشرة أسطر ؛ ولكنه مع الأسف حتى فى هذه الأسطر القليلة لم يورد إلا بعض المعلومات غير الصحيحة ، حيث يذكر عن « الهادى » أنه ولد فى بلاد السِّند ، وأنه قدِم إلى اليمن من هناك ، مع أنه ولد فى المدينة ، وقدم من « الرَّسِّ » بقرب المدينة إلى اليمن ، كما تذكر كل المخطوطات اليمنية ، وكما سنبين .

كذلك « أبو الحسن الأشعرى » الذى ينتسب إليه مذهب الأشاعرة المعروف فى العقائد ، نجده فى كتابه « مقالات الإسلاميين » لا يذكر شيئاً عن زيدية اليمن . وكذلك « الشهرستانى » فى كتابه « الملل والنحل » لا يذكر أيضاً عنهم شيئاً .

أما قدماء الجغرافيين الإسلاميين أمثال « شمس الدين المقدسى » (محمد أبى عبد الله) فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » و « أبى القاسم بن

حوقل » فى كتابه « المسالك والممالك » « وابن رسته » (أحمد بن على) فى كتاب « الأعلاق النفيسة » « وأبى اسحق الكرخى » (ابرهيم بن محمد الفارسى) فى كتاب « المسالك والممالك » كل هؤلاء الأعلام لم يذكروا لنا فى تآليفهم شيئاً عن اليمن الزيدية يعتد به ؛ بل هم لم يذكروها الا بإشارات عابرة .

هذا هو شأن المراجع العربية ، أما المراجع الأوربية الحديثة التى كتبت عن اليمن مثل « أئمة صنعاء » (The Imams of San'a') للأستاذ تريتون (Tritton) ، وكتاب « اليمن فى القرن الحادى عشر » الهجرى (السابع عشر الميلادى) للأستاذ فيستن فيلد (Wüstenfeld) ، فهذه الكتب وأمثالها لم تعالج الدولة الزيدية باليمن ، وانما أرخت للحكم التركى هناك . وأما ما كتبه الدكتور « أنصالدى » (Ansaldi) الطبيب الإيطالى الذى عاش باليمن وكتب عنه فى عهد موسولينى فى كتابه « اليمن» (Il Yemen) فإنه لم يخرج عن ملاحظات عامة عن الشعب اليمنى ، وعن جغرافية اليمن فى العصر الحاضر.

ونحب أن نشير أخيراً الى بعض الكتب العربية التى ظهرت حديثاً عن اليمن ، ولخصت لنا بعض المعلومات المختصرة عن اليمن الزيدية من المخطوطات اليمنية الزيدية مثل كتاب « تاريخ اليمن »للشيخ عبد الواسع الواسعى اليمنى ،وكتاب « المقتطف من تاريخ اليمن » للقاضى عبد الله الجرافى مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر . وهى كتب ولا شك مفيدة قيمة . كذلك كتاب « ظهور الإمامة الزيدية باليمن» (De Opkomst von het Zaidietische Imamaat in Yemen) الذى ألفه « فان آرندونك » (Van Arendonk) بالهولاندية فى سنة ١٩١٩ م عن « الهادى الى الحق » مؤسس الدولة الزيدية باليمن ، واعتمد فيه على كتاب « سيرة الهادى » المخطوط « لعلى بن محمد بن عبيد الله العباسى العلوى » وعلى بعض المخطوطات الأخرى ، كذلك هذا الكتاب يعتبر من الكتب القيمة فى الموضوع ؛ ولكن هذه الكتب لا تغنى الباحث فى تاريخ اليمن الزيدية عن الاطلاع على المخطوطات الكثيرة التى كتبها أصحابها اليمنيون الزيديون عن تاريخ اليمن الزيدية مثل كتاب « الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة » للإمام الناطق بالحق « أبى طالب يحيى بن الحسين » الهارونى الحسنى المتوفى سنة ٤٢٤ هـ ، وكتاب « تتمة الإفادة » لعماد الدين يحيى بن على القاسمى »

المتوفى بعد سنة ١٠٨٨ هـ ، وكتاب « أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » « ليحيى ابن الحسين بن المؤيد بالله » اليمنى المتوفى سنة ١١١٠ هـ . وهذا الكتاب الأخير له ميزة الإفاضة فى ذكر تاريخ الأئمة الزيدية والتعرض لعلاقات الدولة الزيدية بدولة الخلافة ، أو بغيرها من دول اليمن المختلفة التى عاصرت الزيديين وجاورتهم . والمؤلف فوق هذا ثقة يعتمد عليه .

وهذه المخطوطات الزيدية يوجد بعضها بمكتبات أوروبا مثل مكتبة « ليدن » بهولندا ، ومكتبة « برلين » بألمانيا ، والمتحف البريطانى بعاصمة إنكلترا ؛ ولكن أكثرها لا يزال للأسف مطموراً مجهولا بمكتبة الإمام بصنعاء ، أو بالمكتبات الشخصية عند بعض الأفراد اليمنيين . وحبذا لو ساعدت الظروف على البحث عن هذه المخطوطات الهامة فى اليمن ، وعلى العمل على خراج بعضها ؛ فإن المؤرخ الإسلامى فى حاجة شديدة لمثل هذا العمل النافع .

* * *

وإنه لجدير بنا بعد ذلك أن نتساءل : ما هى الأسباب التى جعلت أحوال اليمن ، وخاصة اليمن الزيدية ، مجهولة لدى المؤرخين إلى هذا الحد الذى بيناه ؟ خصوصاً وقد كانت اليمن فى العصور الأولى موطن الحضارة العربية القديمة ، ومقراً لملوك الدول الحميرية ؛ فقد كان اليمنيون القدامى أصحاب حضارة وفن كما تدل على ذلك الآثار القديمة والحفائر فى بعض البلاد اليمنية مثل « غيمان » و « صرواح » و « مأرب » و « معين » و « ظفار » و « ذمار » وغيرها من بلاد اليمن . هذه الآثار التى تشهد بما وصل إليه اليمنيون القدامى من فن المعمار ، وإقامة التماثيل ، وبناء السدود ، وهندسة الرى والزراعة . كذلك كان اليمنيون مهرة فى صناعات كثيرة مثل صناعة النسيج ، والدباغة ، وصنع السلاح وغير ذلك ؛ كما كانت اليمن فى تلك العصور هى الواسطة فى التجارة بين الشرق والغرب ، تنقل التجارة عن طريق البر على ظهور الإبل قبل نقلها على السفن الشراعية عن طريق البحر . وفوق هذه الصلات التجارية كانت لليمن القديمة صلات سياسية وثقافية مع الدول الأخرى فى ذلك الوقت خصوصاً مع الحبشة والفرس والروم . كل هذا وغيره معروف عن أحوال اليمن فى العصور القديمة . فما هو السبب إذاً فى أن أصبحت اليمن الإسلامية ، وخصوصاً اليمن الزيدية ، مجهولة إلى هذا الحد ؟

أظن أن الجواب على هذا سوف لا يكون عسيراً إذا علمنا أنه بعد أن أهملت الشئون الإصلاحية العامة فى أخريات أيام اليمن المستقلة صاحبة الحضارة المزدهرة ، أيام حكم ملوك الحميريين ، وبعد تصدع سدود المياه مثل « سد مأرب » الذى تسبب عن تصدعه ضياع المياه المخزونة اللازمة للرى والزراعة ، وإذا علمنا أنه بعد هذا رأت القبائل اليمنية الكثيرة نفسها مضطرة إلى الهجرة والتفرق ، فغادرت اليمن للبحث عن الرزق لأنفسها وعن المرعى لدوابها ، وهاجرت إلى « عُمان » وإلى جبال « السَّرَاة » فى « عسير » وإلى الحجاز والعراق والشام ؛ فانحطت بعد ذلك الحضارة والتجارة فى البلاد اليمنية ، خصوصاً بعد أن فقدت اليمن استقلالها على يد الأحباش أولا ، ثم على يد الفرس أخيراً ؛ وأصبحت اليمن غير ذات أهمية خاصة ، وانقطعت أخبارها إلا النزر اليسير منها ؛ وعاش اليمنيون الذين لم يغادروا البلاد بعد ذلك فى شبه قطيعة وعزلة ؛ وساعد على هذا وعورة المسالك فى الجبال اليمنية ، وعدم وجود الطرق المعبدة بهذه البلاد .

فلما ظهر الإسلام كانت قد تكونت للعرب فى شمال الجزيرة فكرة واضحة عن بُعد بلاد اليمن وانقطاعها ، حتى إنهم أصبحوا يضربون المثل فى بعد المنال « بصنعاء » عاصمة اليمن فقالوا : لا بد من صنعا وإن طال السفر ! ، وأصبح ذلك مثلا يُضرب عندما يريد الإنسان أن يقول : سوف لا تحول العقبات بينى وبين ما أبتغيه ، وسوف لا يمنعنى بعد الشقة من الوصول إلى الهدف ، وإن بعد ما بينى وبينه بُعد صنعاء عاصمة اليمن . وبقى هذا المعنى فى العصر الأول للإسلام ، فإنا نجد مثلا « سعد بن معاذ » الصحابى الأنصارى المشهور يظهر للرسول عليه السلام خضوعه له ، واتباعه لأوامره مهما كلفه ذلك من مشقة فيقول له : « سوف لا نقول لك كما قال قوم موسى له (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وإنما نقول لك : سوف نتبعك ولو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد » وبرك الغماد هذا موضع ببلاد اليمن .

كذلك فى أيام الدولة العباسية نجد هذا المعنى باقياً أيضاً . ففى أيام الخليفة المقتدر نجد أن الوزير أبا الحسن عليا بن الفرات حينما يبحث عن المنفى البعيد ليرسل إليه سلفه الذى أصبح مغضوباً عليه — الوزير علياً بن عيسى — لا يجد أبعد من « صنعاء » عاصمة اليمن ليرسل به إليها ، فنفاه إليها فى سنة

٣١١ هـ ، ولم يرجع الوزير المنفى من منفاه إلا بعد خلع ابن الفرات فى السنة التالية سنة ٣١٢ هـ حيث أذن له أن يغادر المنفى إلى مكة .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب جهل الأحوال باليمن ، وعدم ذكر مشاهير المؤرخين والجغرافيين الإسلاميين إلا النزر اليسير الذى لا يغنى عن اليمن ، وخصوصاً عن اليمن الزيدية ، يمكننا أن نضيف سبباً آخر ، ذلك أن هؤلاء المؤرخين الذين عاش أغلبهم فى عصور الدولة العباسية ، ومن أتى بعدهم كانوا يعتبرون أصحاب الدولة الزيدية اليمنية من الذين خرجوا على دولة الخلافة ، فهم حتى وإن علموا شيئاً عن أحوال الدولة الزيدية — وهو أمر غير واضح — لا يعطونها الأهمية التى تستحقها ، ولا يعنون بالتأريخ لها لهذا السبب .

* * *

والدولة اليمنية الزيدية تنتسب إلى الإمام « زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب » ، لأن مؤسسها « الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين » كان يعتنق المذهب الزيدى المنسوب إلى الإمام زيد . وجدير بنا قبل أن نتحدث عن نشأة هذه الدولة أن نبين فى اختصار من هو الإمام زيد ، وما هو المذهب الزيدى الذى قامت الدولة الزيدية باليمن على أساس منه .

فالإمام « زيد بن على » كان من أعلام أهل البيت عالماً مجتهداً ذا رأى ومكانة ، طلق اللسان ، حلو الحديث ، قوى الحجة . تحدث عنه مرة ابن أخيه الإمام « جعفر الصادق » فقال : « كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله ، وأوصلنا للرحم . والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله » . وقال الإمام « أبو حنيفة النعمان بن ثابت » صاحب المذهب الفقهى المعروف : « شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه ولا أعلم منه ولا أسرع جواباً ، ولا أبين قولا . لقد كان منقطع القرين » .

وكان الإمام زيد يتطلع للخلافة ، ويرى نفسه أحق بها ، ولا يتورع من ذكر ذلك فى مجالسه . ولما بلغ الخليفة الأموى « هشام بن عبد الملك » ذلك عنه حقد عليه ، وانتهز مرة دخوله عليه فحقره ، وقال له : « لقد بلغنى يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك ؛ وأنت ابن أمة» ، (وقد كانت أم زيد جارية سندية) فرد عليه زيد وقال له : « يا أمير المؤمنين ؛ لقد كان

إسحق ابن حرة و إسماعيل ابن أمة ، فاختص الله ولد إسماعيل، فجعل منهم العرب ، وجعل من العرب رسول الله » .

خرج زيد بعد هذا ، وقد اعتزم الخروج على هشام ؛ وبعد أن اتهمه هشام فى وديعة عنده « لخالد بن عبد الله القسرى » بعد القبض على خالد مقدارها ستمائة ألف درهم ، أرسل به إلى « يوسف بن عمر الثقفى » والى العراق الجديد فحقق معه يوسف وثبتت براءته لديه ؛ ثم أمره يوسف بالرحيل عن العراق . ولما تأهب زيد للرحيل تبعه أهل الكوفة ، وبايعوه ، وحرضوه على الخروج وتواعدوا معه ، وحددوا يوماً خاصاً لإعلان الخروج . وعندما علم بذلك خاصة زيد وقرابته نصحه الكثيرون منهم بالعدول ، وبينوا له غدر الكوفيين ، وعدم وفائهم . وكان من الناصحين له « داود بن على » ، و« سلمة ابن كهيل » ولكن زيداً لم ينتصح ، وخرج فى صفر سنة ١٢٢ هـ — يناير سنة ٧٤٠ م فتفرق عنه أصحابه ولم يثبت معه فى قتال جيوش يوسف الثقفى إلا القليلون منهم . وفى نفس اليوم الذى أعلن فيه زيد الثورة أصيب بسهم فى جبينه وقتل ، فاحتزت رأسه ، وبعث بها إلى هشام ، وصلب جثمانه « بكناسة الكوفة » ولم يزل كذلك حتى أمر « الوليد بن يزيد بن عبد الملك » بإنزاله وحرقه فى أواخر سنة ١٢٥ هـ عند ما ثار « يحيى بن زيد » بخراسان ، وقتل كما قتل والده زيد من قبله . وبهذا سلك زيد طريق جده الحسين ، ونال مثل خاتمته .

وقد كان زيد صاحب علم واجتهاد — كما قلنا — وكان تلميذاً « لواصل ابن عطاء » رئيس المعتزلة ، على الرغم مما كان يراه واصل من جواز أن يكون علىّ على خطأ فى حروبه مع معاوية ، وفى واقعة الجمل ، الأمر الذى جعل محمداً الباقر ينتقد على زيد أخيه ، ويلومه فى تتلمذه على واصل بن عطاء .

فمذهب زيد فى الأصول يشبه مذهب المعتزلة ، وله فى الفروع مذهب خاص قريب الشبه بمذهب « أبى حنيفة » خصوصاً فى المعاملات . فأبو حنيفة كان يتصل بالإمام زيد، وينتصر له . وقد روى « أبو الفرج الأصفهانى» فى « مقاتل الطالبيين » أن أبا حنيفة كان ينصر زيداً ويميل إليه ، وأنه بعث إليه بمال ليستعين به فى جهاد عدوه ، فقبله زيد منه . فليس من الغريب بعد هذا أن يتأثر أبو حنيفة فى فقهه بهذه الصلة .

وأما فيما يتعلق بالإمامة ، وولاية الحكم فى الأمة الإسلامية ، هذه المسألة

التى تعتبر مدار الخلاف بين السنيين والشيعيين ، فإن المذهب الزيدى فيها يعتبر أعدل المذاهب الشيعية ، وأقربها إلى مذهب جماعة المسلمين من السنيين . وأهم ما يمتاز به عن بقية مذاهب الشيعة أنه لا يبالغ فى تقديس علىّ ، وجعله فى مصاف الآلهة ، كما هو مذهب الغلاة من الشيعة .

ثم على الرغم من اتفاق الزيديين مع جمهرة الشيعة فى أحقية علىّ وأبنائه من فاطمة بالإمامة فإنهم يقولون بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ؛ ولهذا فزيد وأتباعه لا يتبرأون من أبى بكر وعمر ، ولا يلعنونهما — كما يفعل غيرهم من الشيعة — ويقولون بصحة إمامتهما . ولقد قرر الإمام زيد أن مصلحة المسلمين وجمع كلمتهم كانت تقتضى إسناد الخلافة عقب وفاة الرسول عليه السلام إلى أبى بكر ، وعدم إسنادها إلى علىّ ، وإن كان علىّ هو الأحق بها وصاحبها ، وهو الذى توفرت فيه شروطها . وكان رأيه هذا سبباً فى خروج شيعة الكوفة عليه ورفضهم له ، فسموا بذلك « الرافضة » .

ومما يمتاز به الزيديون أيضاً عن بقية الشيعة فى مذهبهم ، ومما يقربهم من السنيين أنهم لا يقولون بالتَّقيَّة — وهى أن يحافظ المرء على نفسه أو عرضه أو ماله مخافة عدوه ، فيظهر غير ما يبطن ؛ فهى مداراة وكتمان ، وتظاهر بما ليس هو الحقيقة — وأنهم لا يقولون بأن الأئمة معصومون كالأنبياء لا يرتكبون صغيرة ولا كبيرة ، ولا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ؛ كما لا يقولون باختفاء الأئمة بمثل ما يقول به بقية الشيعة . كذلك لا يقولون بالرجعة ، كما يعتقد الكثيرون من الشيعة الإمامية الذين يقولون برجعة الرسول عليه السلام ، وبرجعة علىّ وباقى الأئمة ، ورجعة خصومهم كأبى بكر ، وعثمان ، ومعاوية ، ويزيد ؛ يرجعون جميعاً — فى رأيهم — بعد ظهور المهدى ليعذب من اعتدى منهم على الأئمة واغتصبهم حقهم ، ثم يموتون جميعاً ، ويحيون يوم القيامة .

والزيديون يشترطون فى الإمام أن يكون عالماً مجتهداً ، ولهذا كانت أكثرية الأئمة الزيديين علماء أصحاب رأى واجتهاد . ومما يؤثر عن المغفور له الإمام يحيى فى هذا الباب أنه كان يقول : « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو أعلم منه » .

ومن الأمور الهامة فى المذهب الزيدى التى كان لها أثر كبير فى تاريخ الأئمة الزيدية ، وفى تعدد الأئمة منهم فى وقت واحد ، أن زيداً

كان يرى الخروج على الظالم المتغلب ، ويجعل الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً ، حتى أن أخاه محمداً الباقر اعترض عليه فى هذا الرأى وقال له : « على قضية مذهبك والدك ليس بإمام (يعنى عليا زين العابدين) لأنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج » .

ولقد اعتنق المذهب الزيدى الكثيرون من آل البيت ومن غيرهم ، وتعددت الفرق الزيدية بعد مقتل زيد ، وانتشر مذهبه فى بلاد كثيرة ، فى إيران التى كانت معروفة ببلاد العجم ، وفى الكوفة ببلاد العراق ، وفى الحجاز ، وفى اليمن . وكان الإمام « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة الزيدية باليمن ممن اعتنقوا المذهب الزيدى ؛ تلقاه بواسطة أبيه الحسين ، وعميه الحسن ومحمد ، عن جده الذى كان من كبار الأئمة الزيدية « القاسم بن إبرهيم بن إسماعيل بن إبرهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » . فرأس الدولة الزيدية باليمن حسنى نسباً ينتسب إلى الحسن بن على ، حسينى مذهباً ، باعتبار أن زيداً صاحب المذهب من أبناء الحسين .

قامت الدولة الزيدية باليمن فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، فى الوقت الذى كانت فيه أحوال الخلافة العباسية قد اضطربت ، والسلطة المركزية فى بغداد قد ضعفت . هذا الوقت الذى كانت قد قامت فيه كثير من الدويلات الإسلامية التى استقل بها بعض الولاة الطامعين فى السلطان والحكم ، والذى ظهر فيه الكثير من الأسر الحاكمة . فى هذا الوقت لم تكن بلاد اليمن بأحسن حالا من بقية بلاد الدولة العباسية الأخرى ، بل كانت أحوال اليمن أكثر اضطراباً لبعدها عن مركز الخلافة ، وانقطاعها عن مقر الحكم ، ولكثرة المتطلعين فيها إلى الحكم والسلطان ، والمتنافسين على النفوذ أمثال « بنى زياد» بزبيد و« آل أبى يعفُر الحِوالى » فى « صنعاء ، وشِبام ، وكوكبان » ، و« آل المناضى » فى « مذيخرة ، وبلاد الجند » ، و« آل الضحاك » فى « بلاد حاشد » ، وغيرهم فى نواحى اليمن الأخرى .

ولقد كانت منطقة « صعدة » فى جهات اليمن الجبلية الشمالية حيث تسكن قبيلة خولان شديدة الاضطراب والفوضى ، ومنقطعة الصلة تقريباً بدولة الخلافة العباسية وعمالها فى اليمن ؛ كما أن سكانها من « خولان » ومن يتصل بهم لم يتفقوا فيما بينهم على اختيار زعيم منهم ليحكم فيهم ، كما فعل غيرهم فى المناطق

الأخرى. لهذا ، ولأنهم كانوا على صلة بآل البيت فى الحجاز ، ومن المتشيعين لهم ، فقد وقع اختيارهم على الهادى إلى الحق « يحيى بن الحسين » أحد أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب — كما قلنا — وقد كان يسكن جبل « الرّس » بالقرب من مدينة الرسول عليه السلام فى الحجاز ، وعلى بعد ستة أميال فى الجهة الشمالية الشرقية منها .

اختار هؤلاء اليمنيون « الهادى إلى الحق » للقيام بهذه المهمة الشاقة لتشيعهم كما ذكرنا ، ولما كانوا يعرفون عنه من الكفاءة والعلم ، والبصر بالأمور؛ فذهب إليه وفدهم من رؤساء « خولان » يدعونه ليكون إمامهم وحاكمهم . ولبى الهادى الدعوة فسار إلى اليمن فى سنة ٢٨٠ هـ — سنة ٨٩٣ م . ذهب إلى اليمن وهو عازم على إقامة حكم شيعى مستقل بهذه البلاد ، وهو ينوى العمل على إصلاح الأحوال فيها ، وإقامة العدل بين الناس على أساس من مبادئ الدين الإسلامى ؛ كما كان ينوى القضاء على الفوضى ، وتعويد الرعية الطاعة والخضوع للنظام . ولكنه بعد أن وصل إلى هناك ، وأخذ يمارس مهمته كحاكم إسلامى محافظ على تعاليم الدين منفذ للأحكام مقيم للحدود ، صدمته الحقيقة القاسية المرة ، حيث رأى أن الشعب اليمنى كان قد تحلل من كل قيد ، وأن الزعماء كانوا أكثر الرعية تحللا ، وأنه يقف بجانب هذه الفوضى عاجزاً لا يستطيع التنفيذ ، وليس لديه من وسائل القوة ما يمكنه من الحكم حتى أنه — كما روى كتاب « الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة » — لم يستطع إقامة حد الشرب على أحد الأمراء اليمنيين الذى ثبت عليه أنه شرب الخمر ، فصمم «الهادى إلى الحق » بعد ذلك على أن يعود إلى الحجاز ، وعلى ألا يبقى بين هؤلاء الناس الذين دعوه للحكم فيهم ثم لم يمكنوه من أداء مهمته ؛ وعاد إلى الحجاز فعلا بعد وصوله إلى اليمن بزمن يسير .

وبعد مغادرته لليمن كثرت الفتن والخلافات هناك ، واشتد القحط ، وعمت المجاعة . فرأى زعماء « خولان » أنهم أخطأوا فى عدم تمكينهم « للهادى» فى الحكم حين كان بينهم ، وأنه لا يمكن أن يصلح حالتهم المتناهية فى السوء إلا رجل مثل « الهادى إلى الحق » يعود إليهم ، وهو مزود بكل ما يلزمه من المعونة ووسائل التنفيذ حتى يستطيع إنقاذهم مما وقعوا فيه . استقر هذا المعنى فى نفوسهم ، وآمنوا بهذه الفكرة فأخذوا يراسلون « الهادى » من جديد ،

ويرجونه فى العودة إليهم ؛ وهو من جانبه لا يرغب فى هذه العودة بعد ما وقع له من التجارب ؛ ولكنهم ألحوا عليه فى الرجاء وتوسلوا إليه بوالده وأعمامه ، حيث ذهب إليهم فى المدينة جماعة من رؤساء « خولان » راجين منهم المعاونة فى إقناع « الهادى » بالعودة إلى اليمن ؛ فقبل « الهادى » ذلك بعد أن تعهد له هؤلاء الرؤساء بالطاعة ، وبوضع كل وسائل القوة تحت يده حتى تتوفر له وسائل الحكم فيهم ، والعمل على إصلاح أحوالهم .

عاد « الهادى » إلى اليمن فى شهر صفر سنة ٢٨٤ هـ — مارس سنة ٨٩٧م ووصل إلى جهات « صعدة » حيث تسكن قبيلة « خولان » التى تعهد له رؤساؤها بالطاعة والخضوع ، فأسس الدولة الزيدية باليمن التى لا تزال قائمة إلى اليوم ، وجعل من مدينة « صعدة » عاصمة لمملكته الناشئة . وكان قد انتفع بتجاريبه السابقة ووقف بنفسه على ما سيلاقيه من صعوبات ، فأخذ من اللحظة التى وصل فيها يعد لكل أمر عدته . وكان قد أحضر معه فى هذه المرة الكثيرين من أهله وقرابته من آل البيت ليستعين بهم فى إدارة شئون دولته .

وفى الوقت الذى حكم فيه « الهادى إلى الحق » من يوم أن أسس دولته فى سنة ٢٨٤ هـ إلى أن توفى فى سنة ٢٩٨ هـ تولى الخلافة العباسية ثلاثة من الخلفاء : الخليفة « المعتضد بالله » الذى كان خليفة بالفعل فى سنة ٢٨٤ هـ حيث حكم من سنة ٢٧٩ إلى سنة ٢٨٩ هـ ، والخليفة « المكتفى بالله » من سنة ٢٨٩ إلى سنة ٢٩٥ هـ ، ثم الخليفة « المقتدر بالله » الذى ولى الخلافة من سنة ٢٩٥ ، ثم استمر حكمه إلى ما بعد وفاة « الهادى » ، إلى سنة ٣٢٠ هـ . ولقد تحددت العلاقة بين دولة اليمن الزيدية ، وبين دولة الخلافة العباسية من يوم أن تأسست الأولى ، حيث أسسها « الهادى » من المبدأ دولة مستقلة على أساس دينى شيعى زيدى مخالف لمذهب الخلافة العباسية السُّنى ، فاقتطع « الهادى » بذلك جزءاً كبيراً من رقعة الدولة العباسية الهزيلة فى ذلك الوقت ، واستقل ببلاد الجبال الشمالية فى اليمن ، ذلك القطر الذى كان يتبع الخلافة ولو اسمياً ؛ ثم أخذ بعد ذلك يعمل للقضاء على ما بقى للخلافة العباسية فى اليمن من نفوذ ضعيف ، كما سنبين ذلك .

كان على « الهادى » عقب وصوله إلى اليمن فى المرة الثانية أن يعنى

أولا وبالذات بالقضاء على الفتن ، وبتهدئة الأحوال ، وتيسير الأرزاق ، وتأمين الناس على حياتهم وممتلكاتهم فى منطقة « صعدة » مقر الدولة الجديدة . فعمد أولا إلى الإصلاح بين الزعماء ورؤساء القبائل ، وحَسْم مادة الفتنة فيما بين أهل خولان صعدة ؛ ثم جمع زكاة الأموال والأطعمة من أغنيائهم ووزعها على الفقراء والأيتام . وبعد أن رأى أن النفوس قد اطمأنت ، وأن الأمور قد استتبت خرج بعد أيام من « صعدة » ، وأخذ يطوف فى أنحاء منطقتها متفقداً لأحوال الرعية ، ومحرضاً الناس على الجهاد فى سبيل الله ، وعلى الاستعداد والتأهب للحروب المقبلة . فهو يرى أنه صاحب رسالة إصلاحية إسلامية ، وأن عليه أن ينشرها بين اليمنيين فى كل الجهات التى يمكن فتحها والتغلب عليها ، وهو صاحب دولة إسلامية علوية جديدة ؛ والعلويون يرون جميعاً ديانةً وسياسة أنهم أصحاب الحق فى الخلافة ، وإن اختلفوا فى التفصيلات.

وكان على « الهادى » بعد أن رست قواعد الدولة بجهة « صعدة » ، وبعد أن استقرت الأمور واستتب النظام بتلك النواحى أن يعمل على ضم الجهات الشمالية كلها إلى دولته ، حتى يحمى ظهره ، وحتى يستطيع بعد ذلك أن يتجه — وهو مطمئن — إلى جنوب اليمن ، حيث يحكم بعض أمراء اليمن مثل « آل طريف » و « آل أبى يعفر الحوالى الحميريين » باسم دولة الخلافة العباسية ، ثم لحساب أنفسهم مستقلين عن الخلافة تماماً من سنة ٢٩٠ هـ . وكان أهم الجهات الشمالية هذه جهتين ، جهة « نجران » ، وجهة « بَرَط » .

وبلاد « نجران » تقع فى حدود اليمن الشمالية ، بين اليمن وبين نجد والحجاز ؛ وهى بلاد لها شهرتها فى الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، حيث كان يعتنق أهلها النصرانية ، ومنها أصحاب الأخدود الذين تمسكوا بعقيدتهم أشد التمسك ، وحُرِّقوا فى سبيل التمسك بالعقيدة على يد « يوسف ذى نواس » أحد ملوك اليمن الذى كان قد اعتنق اليهودية ، وكان يريد أن يحمل أهل « نجران » على اتباعه فى عقيدته ؛ وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم . ثم هى شهيرة فى مبدأ الإسلام ، حيث وفدت وفودها على الرسول عليه السلام وهو بالمدينة فى السنة العاشرة من الهجرة ، وحيث أجلى عمر بن الخطاب النصارى منهم أثناء خلافته إلى الشام وإلى العراق ، ثم هى شهيرة حتى فى التاريخ المعاصر ، حيث كانت هذه البلاد موضع خلاف بين جلالة المغفور له « الإمام يحيى » ،

وجلالة « الملك عبد العزيز آل سعود » حتى سنة ١٩٣٤ م .

وكان أهل « نجران » فى عهد « الهادى » ينقسمون إلى فريقين مختلفين متنازعين ؛ الفريق الأول يتكون من سكان جهة « وادعة » على حدود منطقة « صعدة » الشمالية مباشرة ، ومن قبيلة « شاكر » وقبيلة « يام » الهَمْدانيتين ؛ والفريق الثانى يتكون من « بنى الحارث » الذين ينتسبون إلى « أزد عُمان » ، وكان الفريق الأول يستبشر بقدوم « الهادى » خيراً ، وينتظر حل الخلاف الذى بينهم وبين خصومهم على يديه ، فهو إما أن يعينهم وينصرهم على خصومهم ، أو يعقد بينهم وبين هؤلاء صلحاً يضع حداً لما بين الفريقين من شقاق . فلما جمع الهادى جموعه من « خولان » وغيرهم من القبائل الموالية له ، واتجه بهذه الجموع إلى « نجران » فى جمادى الآخرة — أى بعد وصوله إلى « صعدة » بنحو ثلاثة أشهر — لقيه الفريق الأول مستبشرين بقدومه ، وبايعوه فوراً ، وانضموا إليه ، فسارت جموعهم مع جموع « الهادى » التى قدم إليهم بها ، واتجه الجميع إلى مواطن الفريق الثانى من النجرانيين « بنى الحارث » الأزديين . ولم يسع هؤلاء إلا الخضوع « للهادى » والتسليم له ، لما رأوه من قوته ، خصوصاً بعد أن انضم خصومهم إليه ؛ وبذلك أصبحت جميع بلاد « نجران » والمناطق التى تصلها بجهات « صعدة » تابعة « للهادى » .

غير أن « الهادى » لم يرد أن يكتفى بهذا التسليم والخضوع من الفريقين ، وإنما أراد أن يزيل ما بينهما من شقاق ، وأن يقضى على ما فى نفوسهم من حزازات نتيجة للخلافات الطويلة السابقة ، فعقد الصلح بين الفريقين ، وأخذ عليهم المواثيق الأكيدة بالاتفاق ، وترك الشقاق ، وبايعه الجميع على ذلك . ولم يشأ الهادى أن يغادر « نجران » إلا بعد أن مكث مدة فى قرية « هَجَر » النجرانية يرقب الأحوال ، حتى اطمأن إلى استقرار الحال بهذه البلاد وهدوئها وإلى سكون الفتنة بين أهلها ، وتقرر قواعد الصلح . وبعد ذلك عاد إلى « صعدة » عاصمة دولته ومركز سلطانه ؛ ثم وضع عهداً لأهل الذمة من النصارى الذين كانوا يسكنون جهات « صعدة » « ونجران » ، واتفق معهم على أن يأخذ منهم تُسع غلة الأراضى التى اشتروها من المسلمين ، وأن يُعفيهم فلا يأخذ منهم شيئاً من غلة الأراضى التى كانت لهم من زمن الجاهلية ؛ ثم قرر عليهم الجزية .

وبعد مضى سنة من تأسيس « الهادى » لدولته ، أى فى صفر سنة ٢٨٥ ﻫ رأى أن يتم الاستيلاء على الجهات اليمنية الشمالية ، فسار إلى جبل « بـَرَط » وهو من المناطق اليمنية المعروفة بخصوبة تربتها ، وجودة هوائها ، ويمتاز بسعة قمته ، ووعورة مسالكه ، وبحصونه المنيعة ، كما يمتاز سكانه بكثير من الصفات المحمودة ؛ ويعده « الهَمْدانى » فى كتابه « صفة جزيرة العرب » من عجائب اليمن الشهيرة . ولم يشأ سكان جبل « بـَرَط » أن يسلموا « للهادى » بسهولة ، فسدوا فى طريقه المسالك حتى لا يصل إليهم ، وحالوا بينه وبين الماء ؛ ولم يشأ الهادى أن يبدأهم بالقتال ، وإنما أخذ يعظهم ويدعوهم إلى اتباعه ؛ ولكنهم لم يستجيبوا له بل بدأوه بالعدوان ، ورموه بالنبال حتى أصيب « الهادى » نفسه بسهم ؛ فحمل عليهم أصحابه وانتصروا عليهم بعد أن قتلوا منهم جماعة وأسروا آخرين ، وأخذوا منهم الأسلاب الكثيرة ؛ ومع هذا فقد أراد « الهادى » أن يعاملهم بالحسنى تأليفاً لقلوبهم ، فحال بين أصحابه وبين قتل الأسرى ، وقد أرادوا قتلهم ؛ كما حال بينهم وبين تتبع الفارين . ولما رأى هؤلاء السكان تلك المعاملة الحسنة من « الهادى » ، ورأوا أنهم لا قبل لهم به طلبوا منه الأمان ، فأمنهم وبايعوه هم بعد ذلك ؛ ورأى الهادى من ناحيته أن يزيد فى الإحسان إليهم ، فأطلق سراح أسراهم ، ورد إليهم أسلابهم ، وكان ذلك كفيلا بأن يجعلهم يُسْلمون إليه القياد ، ويُلْقون إليه الزمام بإخلاص ؛ فاطمأن « الهادى » إلى هذه النتيجة ، ولم يمكث بينهم بعد ذلك إلا ثلاثة أيام عاد بعدها إلى « صعدة » بعد أن نصَّب عليهم « عبد العزيز بن مروان البحراوى » واليامن قبله ليدير شئونهم ، ويقبض زكاة العُشر منهم ، كما كان يفعل فى كل الجهات التى تدخل فى حوزته .

وبعد أن استولى « الهادى » على كل جهات اليمن الشمالية ، واطمأن إلى ذلك اتجه إلى الجنوب ، وأراد أولا أن يضم الجهات القريبة من « صعدة » فى جهة الجنوب منها حتى يؤمّن عاصمته من الجهات الجنوبية بعد أن أمّنها من جهة الشمال ، فسار إلى بلاد « خَيْوان » و « الحَضَن » و « أثافث » إلى هذه المنطقة التى تسكنها قبائل « هَمْدان » حيث تمتد مساكنهم فيما بين « صعدة » وصنعاء . وتلقاه كل أهل هذه الجهات بالترحاب ، وقدموا إليه الطاعة إلا

رجلا من زعمائهم هو « الدّعام بن إبرهيم الأرحبى » رئيس قبيلة « بَكيل » من هَمْدان ، فقد طلب إلى «الهادى» أن يجعله واليا على المنطقة التى هو فيها ، فلم يقبل « الهادى » ، ووقعت بينهما حروب انتصر فيها « الهادى » على « الدّعام » وعقد معه صلحاً ، ثم أصبح هذا هو وأبناؤه من رجال « الهادى» فيما بعد .

وبذلك تمت المرحلة الأولى فى تاريخ تأسيس الهادى للدولة الزيدية اليمنية، حيث وطد دعائمها فى « صعدة » وما يحيط بها شمالا وجنوباً فى ظرف سنتين من أوائل سنة ٢٨٤ إلى نهاية سنة ٢٨٥ هـ . ولقد أصبحت هذه المنطقة منذ ذلك الحين إلى اليوم حصن الزيدية الحصين باليمن .

ثم أخذت الفرص بعد ذلك تتهيأ « للهادى » ليمد نفوذه إلى الجهات الجبلية نحو «صنعاء »،و«شبام»، و« كوكبان » ، و « ذِمار» وغيرها . فقد كتب إليه فى المحرم من سنة ٢٨٦ هـ صاحب « صنعاء » الأمير « أبو العتاهية عبد الله بن بشر بن طريف » بالولاء والطاعة ؛ ولكنه اشترط شروطاً طلب فيها أن يوليه « الهادى » على « صنعاء »، فلم يشأ « الهادى » أن يتسرع فى إجابته إلى مطلبه حتى يتأكد من صدقه فى ولائه ومن سلامة قصده ، وهو ما أثبتته الأيام والحوادث بأقوى الأدلة . ولقد تنازل « أبو العتاهية » عن شروطه بعد أن رأى استبداد الأعاجم من أتباع « على بن خُفْتُم » والى الخلافة العباسية الموفد من بغداد بسكان البلاد التى تحت أيديهم فى جوار «صنعاء»، وبعد أن أيقن أنه لا مخلص لهم مما هم فيه من سوء الحال إلا أن يقدم «الهادى» الذى اشتهر بعدله فيحكمهم ليضبط الأمور ، ويعدل فى الرعية .

وفى أوائل سنة ٢٨٨ هـ جمع « الهادى » جموعه واتجه إلى « صنعاء » فلما قرب منها أعمل « أبو العتاهية » الحيلة ليسهل دخول الإمام إلى «صنعاء»، حيث كان يخشى معارضة الأمراء اليمنيين من « آل يعفر » وقرابته « آل طريف» ومعارضة غيرهم من رجال «على بن خُفْتُم» . ونجحت حيلة « أبى العتاهية»، ودخل « الهادى » إلى « صنعاء » فى ٢٣ من المحرم سنة ٢٨٨ هـ فضبط الأمور ، ووزع ولاته فى منطقة « صنعاء » ، ثم استولى على المخاليف المجاورة ، ودخل « شِبام » و « ذِمار » وأقام عليها حكاماً من قبله ؛ ولكن « الهادى » لم يتح له الهدوء والاستقرار فى « صعناء » والجهات المجاورة لها ، لأن حزب المعارضة القوى الذى كان يجمع الأمراء

اليمنيين من « آل يعفر الحوالى » ، و « آل طريف » مع « خُفتُم » والى الخلافة ورجاله انتهز فرصة توزيع « الهادى » لرجاله فى البلاد التى استولى عليها ، وخروجه لبعض النواحى لتفقد الأحوال ، فهاجم « صنعاء » ، ودارت بين الفريقين حروب طاحنة انتهت بطرد عامل « الهادى » من « صنعاء » ، وبإعادة الخطبة للخليفة العباسى من جديد .

غير أن « الهادى » لم يشأ إلا أن يبذل كل ما يستطيع ليدخل « صنعاء » من جديد ، فهى قلب اليمن ، وعاصمته الكبرى ، ودخلها فعلا بعد حروب وتضحيات كبيرة فى ٢٧ من رجب من نفس السنة سنة ٢٨٨ ﻫ ، وبقيت الأحوال مضطربة فى « صنعاء » ، وبقى المعارضون فى حروب معه ضحى « الهادى » فيها بالكثيرين من رجاله الأقوياء المخلصين أمثال الأمير « أبى العتاهية » الذى خرصريعاً فى ميدان القتال فى ٧ شوال سنة ٢٨٨ ﻫ وهو يحارب فى صفوف « الهادى » أمام أسوار « صنعاء » ضد « آل يعفر » وضد قرابته من « آل طريف » . وأخيراً كانت الموقعة الكبرى بين « الهادى » وبينهم فى صفر سنة ٢٨٩ ﻫ وهى موقعة « ظَبْوَة » التى تقع فى الجنوب الشرقى من « صنعاء » . ففى هذه الموقعة تحدد موقف الفريقين ، وفقد الهادى أكثر رجاله ، وفيهم بعض قرابته ، وفرقته الخاصة من الطبريين المخلصين الشجعان من أهل « طبرستان » الذين فنوا عن آخرهم وهم يدافعون عن « الهادى » بعد أن جرح فى المعركة وغشى عليه ، وبعد أن حاول خصومه الإجهاز عليه .

وعاد « الهادى » بعد المعركة مثخناً بجراحه إلى « صنعاء » ، وبقى مدة بها جريحاً مريضاً تحت العلاج حتى من الله عليه بالشفاء ؛ فرأى أنه لا يستطيع البقاء فيها ، خصوصاً وقد حاصره الأعداء ومنعوا عنه الأقوات ، فعاد هو ومن بقى من رجاله إلى « صعدة » فوصلها فى جمادى الآخرة سنة ٢٨٩ ﻫ .

وبذلك رأى الهادى أنه سوف لا يستطيع فى مثل هذه الظروف الاستيلاء على « صنعاء » وأنه من الحكمة أن يقنع بالبلاد التى والاه أهلها ، واطمأنوا إلى حكمه وإصلاحه فى « صعدة » وما يحيط بها ، والجهات الشمالية من اليمن ؛ ولم يحاول « الهادى » من ناحيته دخول « صنعاء » مرة أخرى إلا بعد أن استدعاه خصومه السابقون إلى ذلك فى سنة ٢٩٤ ﻫ الذين استنجدوا به عقب أن غلبهم على أمرهم ، وطردهم من عاصمتهم « على بن الفضل القرمطى

الإسماعيلى » الذى كان من دعاة العبيديين ، والذى جاوز الحدود فى الظلم والتقتيل ، وفى الإباحية التى كان يعيش فيها ، فاستجاب « الهادى » لرجاء الخصوم السابقين فى محنتهم ، وسار إلى « صنعاء » ودخلها فعلا ، ولكنه اضطر إلى الخروج منها ثانية ، وإلى العودة إلى « صعدة » والاستقرار بها حتى وافته منيته فى يوم الأحد ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢٩٨ هـ — ١٩ أغسطس سنة ٩١١ م فدفن بها ، ولا يزال قبره معروفاً هناك إلى اليوم .

* * *

مات « الهادى إلى الحق » بعد أن نشر المذهب الزيدى فى جبال اليمن على طريقته الخاصة التى تعرف « بالمذهب الزيدى الهادوى » . والزيديون الهادويون أكثر فرق الزيدية محافظة على أصول « زيد بن على » المعتدلة ، وأقربهم إليه فى بعدهم عن التطرف ، وقربهم من مذهب السنيين . ولقد عرف « الهادى » رحمه الله بالشجاعة والورع والفقه ، ولا يزال فقهاء الزيدية باليمن يعتمدون على مؤلفاته المخطوطة إلى اليوم .

مات بعد أن نجح فى تأسيس الدولة الزيدية اليمنية ، وبعد أن أرسى قواعدها ، ووطد دعائمها ؛ ويرجع نجاح « الهادى » فى ذلك إلى عدة عوامل منها : —

أولا : إخلاص رجال قبيلة « خولان » الشجعان بجهات « صعدة » ، ومعونتهم الدائمة « للهادى » التى منحوها له عن رغبة وصدق ، بعد أن دعوه لبلادهم ليحكم فيهم ، وبعد أن رأوا أن الله قد منحهم الاطمئنان والاستقرار على يديه .

ثانياً : ما اتصف به « الهادى » من العدالة وحسن السيرة ، والحكمة فى سياسته ، وفى تصريف أمور الرعية ، فقد رأيناه أولا شديد الحرص على أن يُعوِّد الرعية على الطاعة والنظام من اللحظة الأولى التى وضع قدمه فيها ببلاد اليمن . رأيناه كيف غادر بلاد اليمن بعد أن حضر إليها فى المرة الأولى سنة ٢٨٠ هـ وعاد إلى الحجاز بعد أن رأى من بعض زعماء البلاد ورؤوسهم عدم الخضوع لأوامره ، وعدم تمكينه من إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام ؛ ولم يعد إلى اليمن فى المرة الثانية إلا بعد أن استوثق لنفسه من ذلك ، وبعد أن أعطاه رؤساء « خولان » العهد بالطاعة ، والخضوع للنظام ، وبمعاونته فى هذا السبيل .

ثم هو كان عطوفاً رحيما فى مواطن العطف والرحمة ، شديداً ذا بأس فى مواطن الشدة ؛ فنراه مثلا فى حربه لأهل جبل « بَرَط » الذين سبق الحديث عنهم ، يطلق سراح أسراهم ويرد إليهم أسلابهم بعد النصر عليهم ، وبذلك نجح فى تأليف قلوبهم ؛ كما كان كثيراً ما يوزع زكاة الأموال التى يجمعها من قرية من القرى على فقرائها دفعاً لما يراهم فيه من حاجة وبؤس ؛ كذلك كنا نراه يخفف الضرائب عن دافعيها فى البلاد التى يفتحها ويثبت لديه فداحة الضرائب المفروضة على أهلها ، كما فعل مع أهل « رَيْدَة » الواقعة شمال « صنعاء » مثلا ، وكثيراً ما كان يرد المظالم لأهلها فى البلاد التى يفتحها .

ومن ناحية أخرى فقد كان الهادى يأخذ المخالفين بما يناسبهم من الشدة والعنف ، كما فعل مع صاحب قرية « شَوْكان » الذى خرج على « الهادى » وأراد قطع الطريق ، فقد أمر الهادى بقطع نخل هذه القرية وعنبها عقوبة لصاحبها ، وكما فعل مع جماعة ثاروا عليه بالقرب من « صعدة » ، ثم فروا أمامه وتحصنوا بمنازلهم فى الجبال ، حيث أمر بهدم منازلهم ، وقطع أعنابهم إلا المستضعفين منهم ؛ وأحياناً كان يأخذ الرهائن من القبائل التى تنتقض عليه ولا يأمن لغدرها ، فيقبض على بعض رؤسائها ضماناً ضد ثورتهم ، كما فعل مع « وائلة » من قبائل « همدان » التى كانت تسكن شرق « صعدة » وقد كان المغفور له « الإمام يحيى » يتبع هذه الطريقة .

كذلك كان « الهادى » يعنى عناية خاصة بمحاربة الرذيلة فى شعبه ، وبالعمل على تحلى أفراد الرعية بأخلاق الإسلام الفاضلة ، وتركهم لبعض العوائد التى ورثوها عن الجاهلية الأولى . ومما يلفت النظر فى هذا الباب ما رواه صاحب كتاب « أنباء الزمن فى أخبار اليمن » عن أهل « العُصَيْمات » وهو مكان فى جنوب « صنعاء » . فقد روى « أن أهل العُصَيْمات هؤلاء كان من عوائدهم أنه إذا نزل ضيف على أحدهم أكرمه بما يمكنه من القرى ، ثم يأتيه ببعض محارمه — وقد تزينت بأنواع الزينة — فتقعد عند الضيف يومه ، فيتمتع بالنظر إليها ومحادثتها ومداعبتها ، ويعدون ذلك من كمال الضيافة » فحين سمع «الهادى» ذلك عنهم قال : « إن جهاد هؤلاء أهم من جهاد غيرهم » ، ثم بادر بطلبهم ، فوصل إليه جماعة من مشايخهم ، فأنكر عليهم ما سمعه عنهم ، فاعتذروا وتعهدوا له بالإقلاع عن هذه العادات ، وبالتوبة ، وبايعوه على ذلك .

* * *

وبعد موت « الهادى » ورثه السادة الزيديون فى حكم اليمن الزيدية ، فقام بالحكم من بعده ابنه « أبو القاسم محمد المرتضى » ثم ابنه الثانى « الإمام أحمد الناصر لدين الله » الذى يتسمى باسمه إمام اليمن الحالى ؛ وبعد الناصر قام أبناؤه من بعده ، ثم غيرهم من السادة الحسنيين الذين ينتسبون إلى « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة ، أو إلى غيره من أبناء « الحسن بن على بن أبى طالب » « كالإمام المنصور بالله القاسم بن على العيانى » الذى ينتسب إلى محمد عم « الهادى » ، والذى حكم « صعدة » من سنة ٣٨٩ ﻫ إلى سنة ٣٩٣ ﻫ . وأحياناً كان الإمام لليمن الزيدية حسينياً ينتسب إلى الحسين بن على بن أبى طالب مثل « الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة » الذى حكم اليمن الزيدية من سنة ٧٣٠ إلى سنة ٧٤٧ ﻫ فى بعض الروايات ، وقد كان من كبار العلماء الذين ألفوا الكتب القيمة فى الفقه ، وفى الأصول ، وفى علوم البلاغة والأدب ؛ ومن كتبه المعروفة المطبوعة فى مصر كتاب « الطراز فى علوم البلاغة والإعجاز » ؛ ولكن أكثر الأئمة اليمنيين كانوا من الحسنيين ومن نسل « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة ، وجلالة الإمام الحالى وآباؤه حسنيون أيضاً ، وينتسبون إلى « الإمام الهادى » .

وفى هذه الفترة الطويلة — من وفاة « الهادى » إلى الآن — تبدلت حالة اليمن الزيدية من قوة إلى ضعف ومن ضعف إلى قوة إلى أن تولى المغفور له الإمام المتوكل على الله « يحيى بن محمد حميد الدين » فى سنة ١٣٢٢ ﻫ — سنة ١٩٠٤ م .

وفى هذه الأثناء أيضاً عاصر الدولة الزيدية باليمن كثير من الدول التى قامت باليمن ، وعاشت مدة ثم أصبحت فى ذمة التاريخ ، وكان لكل منها علاقات بدولة السادة الزيديين ، كما كان للكثير منها حروب معها . وهذه الدول هى : دولة « بنى زياد » فى « زبيد » التى وصل « الهادى » إلى اليمن وهى قائمة ثم انتهى عهدها فى سنة ٣٩١ ﻫ ؛ ودولة « بنى نجاح » التى قامت على أثر دولة « بنى زياد » فى « زبيد » وانتهت سنة ٥٥٥ ﻫ ؛ ودولة « بنى يعفر الحوالى الحميرى » فى « شبام » التى انتهت سنة ٣٩٣ ﻫ ، وهؤلاء كانت لهم حروب مع « الهادى » فى « صنعاء » كما قدمنا ؛ ودولة « على بن

محمد الصُّلَيْحى الهَمْدانى » وأبنائه ، التى قامت « بصنعاء » من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٢ هـ ، وكانت تدعو للعبيديين ؛ ودولة « بنى زُرَيْع » الهمدانيين أيضاً التى قامت « بعدن » من سنة ٤٦٧ إلى سنة ٥٦٩ هـ ؛ « والدولة الأيوبية» باليمن من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٦٢٦ هـ ، وكانت عاصمتها مدينة « زبيد » ؛ ودولة « بنى الرسول الغسانيين » « بِتَعِز » من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨هـ ؛ ودولة « بنى طاهر القرشيين » فى « عدن » و« صنعاء » من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٣٣ هـ ؛ ثم امتد نفوذ « دولة المماليك » بمصر إلى اليمن ، وأعقب ذلك نفوذ « الأتراك العثمانيين » حتى قضى عليه نهائياً فى سنة ١٣٣٧ هـ — سنة ١٩١٨ م بعد الحرب الكبرى الأولى فى عهد الإمام « يحيى بن محمد حميد الدين » .

وطبيعى أن المقام يحتم علينا أن نكتفى بهذه الإشارة العابرة لتلك الفترة الطويلة المليئة بالأحداث ، والتى تمتد من وفاة الهادى فى سنة ٢٩٨ هـ — سنة ٩١١ م إلى قيام « الإمام يحيى » سنة ١٣٢٢ هـ — سنة ١٩٠٤ م . وهو ما يزيد على الألف سنة بالحساب الهجرى .

أما اليمن الزيدية فى عهد المغفور له « الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين » سمىّ جده « الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين » مؤسس الدولة ، فإنها قد ابتدأت مرحلة جديدة هامة من تاريخها تبدأ بمبايعة « الإمام يحيى » بالإمامة عقب وفاة والده « الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين » فى ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ — يونيه سنة ١٩٠٤ م وتنتهى باغتياله رحمه الله فى ربيع الثانى سنة ١٣٦٧ هـ — فبراير سنة ١٩٤٨ م .

والحديث عن دولة « الإمام يحيى » يشمل ناحيتين :

ا — ناحية وضع الدولة السياسى .

ب — ناحية إصلاح حالة الشعب اليمنى من النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

أما فى الناحية الأولى ، فقد جاهد الإمام فى سبيل الحصول على استقلال اليمن ، وحارب دولة الخلافة العثمانية صاحبة النفوذ فى « صنعاء » و «تهامة» من بلاد اليمن فى ذلك الوقت ، حاربها من أول يوم تولى فيه الحكم ، واستطاع أن يحصل لليمن على استقلالها عقب الحرب الكبرى الأولى فى سنة

١٣٣٧ هـ — سنة ١٩١٨ م ، وتأكد هذا الاستقلال وصودق عليه واعترف به دوليا فى سنة ١٣٤١ هـ — سنة ١٩٢٣ م فى الدورة الثانية لمؤتمر الصلح الذى عقد « بلوزان » لتسوية المسائل التى كانت لم تسوَّ بعد بين الترك والحلفاء .

ولقد حافظ « الإمام يحيي » على هذا الاستقلال طول حياته ، وكانت له علاقات دولية ، واتصالات سياسية ؛ كما ساهم فى حركة الوحدة العربية الأخيرة .

وأما فى الناحية الثانية فإن اليمن لا يزال بحاجة مجلة إلى الكثير من أعمال الإصلاح ، وهو ما نرجو أن يحققه الله على يد جلالة الإمام الحالى « الإمام أحمد الناصر لدين الله » وأن يهيئ له من الأسباب ما يصل به إلى الهدف الذى ينشده كل محب لليمن .

وأخيراً فإننا لا نريد أن نتحدث الآن بأكثر من هذه الإشارة عن عهد « الإمام يحيي بن محمد حميد الدين » ، فالحديث عنه يطول ، ويحتاج إلى مقال آخر ، نرجو أن تهيئ لنا الظروف فى المستقبل فرصة لإعداده .

محمد عبد الله ماضى

السيد القمبيطور
وعلاقاته بالمسلمين

مما يؤثر عن عبد الرحمن الناصر أنه : « وُجد بخطه تاريخ قال فيه : أيام السرور التى صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعُدَّت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوماً » .(1) وهذه الملاحظة تصلح أن تكون رمزاً على تاريخ الأندلس الإسلامى كله : فقد دخل الإسلام شبه الجزيرة الإيبيرية على أوائل القرن الثامن الميلادى (أواخر الأول الهجرى) ، ولم يَزُل أمره منها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) ، فإذا أردنا حصر فترات الهدوء والاستقرار والسلام الشامل والرخاء الصحيح ، لم تبلغ فى مجموعها مائة عام متفرقة بين عهود عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وعبد الرحمن الأوسط والناصر والحكم المستنصر وهشام المؤيد . ولم يستطع أولئك الأمراء والخلفاء ورجالهم إقرار الأمور خلال تلك الفترات القصيرة إلا بجهد شديد وكفايات نادرة ، لأن إسبانيا بلد وعر عسير الحكم ، وأهله ذوو جلد وعناد وميل متصل إلى الفردية والاستقلال بعضهم عن بعض . وقد ركب العرب مركباً صعباً بدخولهم إسبانيا ، وتكلفوا فى إقامة أمرهم ونشر دينهم ولغتهم فيها جهوداً تبلغ أضعاف ما بذلوه فى إخضاع أى قطر آخر مما فتحوه ، عدا المغرب : كان لا بد لهم من جيش قوى قائم على الأهبة للقضاء على كل نزعة ثورية أو انفصالية ، ولم تكن لهم مندوحة عن موالاة الغزوات على الممالك والإمارات النصرانية فى الشمال ، فإذا غفلت أعينهم بعض الشىء أو تراخت يدهم بضع سنوات انتقضت النواحى وتواثب الثوار فى المعاقل والحصون وأفلت الزمام من أيديهم . وزاد فى عسر هذه المهمة أن الشعب الذى كان على أولئك الأمراء والخلفاء حكمه كان شعباً متمرداً بطبعه ، عسير الانقياد

---

(1) ابن عذارى : « البيان المغرب » (طبعة دوزى) ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

بمزاجه المركب من عناصر ثلاثة كلها عنيد عسير : أولها الإيبيريون الرومان بما جبلت عليه نفوسهم من الصبر والشدة ، وثانيها البربر بما فى طباعهم من العناد والشجاعة والاستهانة بالدماء[١] ، وثالثها العرب بما جبلوا عليه من الأنفة والتهور وكراهة السيادة والنظام وما عرف فيهم من الفردية الشديدة . ولو أننا تتبعنا الجهود المضنية التى بذلها أمراء كعبد الرحمن الداخل والحكم الربضى وعبد الله ابن محمد لإخضاع العصاة والثائرين ، لتبينا أن أمراء البيت الأموى وخلفاءه كانوا فى الواقع كالقابض على الجمر ، ولتبينا كذلك أن الاستقرار الذى ساد عصورهم كان حالة غير طبيعية فى إسبانيا ، أما الحالة الطبيعية للتاريخ الإسبانى عامة — فى عهود المسلمين وغير المسلمين — فهى التفرق واستبداد كل واحد بناحيته ، كما حدث فى عهد الطوائف . وهذا العصر الأخير — على ما ساده من فوضى وتفرق — هو الحالة الطبيعية المميزة للتاريخ الإسبانى عن غيره من تواريخ الشعوب .

واعتمد أمراء الأندلس أول الأمر على أجناد العرب والبربر ، ثم فرضوا على النواحى البعوث[٢] ، واستخدموا الصقالبة ، ثم قلب المنصور نظام الجيش كله واستقدم جماعات ضخمة من بربر إفريقية ، فنفر منهم الأندلسيون نفوراً شـــديداً [٣] ، فلم تكد حياته تنتهى حتى بدأ الضرام يتبدى من خُلل الرماد ، وما هى إلا سنوات حتى وقعت الفتنة الكبرى وانقسم جيش البلاد ثلاث طوائف هى العرب والبربر والصقالبة[٤] ، واستقل كل وال بناحيته وانحازت إليه من الجيش قطعة من بنى جنسه : استقل بنو عباد بناحية إشبيلية ، وجماعات البربر بنواحى الجنوب فى كور إلبيرة (غرناطة) ورُندة

---

(١) انظر عن ذلك كتاب : ORTEGA Y GASSET, *La Espana invertebrada*, Madrid.

(٢) ابن عذارى : « البيان » ج ٢ ، ص ١١١ — ١١٢ .
ابن القوطية : « افتتاح » ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون : « العبر » ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ و ج ٣ ، ص ٢٣٧ .
ابن عذارى : « البيان » ، ج ١ ، ص ٢٥٠ و ج ٢ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ و ٢٩٨ — ٢٩٩
النويرى : « نهاية الأرب » (طبعة جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٧) ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, II, pp. 230-231.

وتاكُرُنا والجزيرة الخضراء ، ولجأ الصقالبة العامريون إلى شرق الأندلس واعتصموا فى إقليمى مرسية، وبلنسية ومنها امتدوا فيما بعد إلى الجزائر الشرقية (البليار) ، أما ناحية طليطلة وبطليوس فقد انفرد بالأمر فيهما أسرتان من قدماء بربر الأندلس الذين أخذوا طابعاً أندلسياً بطول المقام وهما أسرتا بنى ذى النون وبنى الأفطس ، واستقل بيت بنى هود بإقليم الثغر الأعلى وهو سرقسطة وما حولها . وابتدر الفرصة نفر من صغار القواد اعتصموا فى نواح صغيرة متفرقة هنا وهناك ، أهمهم معن بن صمادح الذى انفرد بالمرية[١] .

زوال خلافة قرطبة وآثاره :

وهكذا تفرقت وحدة الأندلس الإسلامى فى سنوات قليلة ، وفشلت كل المحاولات التى بذلت لإعادة الوحدة وإقامة صرح الخلافة الأموية من جديد . وقد شهدت قرطبة خلال السنوات التى أعقبت وقوع الفتنة خلفاء صغاراً اعتمد بعضهم على البربر وبعضهم على الأندلسيين ، وحاول كل منهم إقرار الأمر لنفسه دون جدوى ، وانتهى الأمر بأن أعلن أبو الحزم بن جهور فى نوفمبر سنة ١٠٣٠ نهاية الخلافة فى قرطبة ، وخرج هشام المعتد آخر خلفاء ذلك البيت الأموى المجيد ناجياً بنفسه إلى لاردة ، حيث أقام خاملا فى ظل سليمان بن هود صاحب سرقسطة[٢] .

وقد وقعت هذه المأساة والأندلس الإسلامى فى أوج تطوره الاجتماعى والثقافى ، فقد كانت جهود البيت المروانى فى توحيد عناصر السكان قد بدأت تؤتى ثمرها من منتصف حكم الناصر ، أى من بداية الثلث الثانى من القرن الرابع الهجرى (التاسع الميلادى) ، فظهر الشعب الأندلسى الفريد بصفاته الخاصة المميزة ، وكان مزاجاً من العرب والبربر والإيبيريين الرومان

---

(١) عبد الواحد المراكشى : « المغرب » ، (القاهرة ، ١٩١٤) ، ص ٤٠ وما يليها .
ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، (طبعة بروفنسال ، رباط ، ١٩٣٤) ص ١٦٧ وما يليها .
دق ما كتب حديثاً عن هذه الفترة :
ANTONIO PRIETO Y VIVES, *Los Reyes de Taifas*, Madrid, 1926.

(٢) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .
وانظر أيضاً : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ج ٢ ، ص ١١٤ — ١١٦ .

والقوط ، يتكلم لغة هى خليط من العربية والبربرية والرومانية[١] ويعتز بنفسه وبأندلسيته على من عداه من الشعوب ، ويأنف من هذه السيادة الفكرية التى كان المشرق يحاول بسطها عليه[٢]، ويأخذ فى الشعر والنثر اتجاهات جديدة لم يعرفها المشرق ، من صنع الموشحات والأزجال[٣] وذلك النثر المرسل الفياض بالصدق والجمال الذى نقرؤه عند عبد الملك بن شهيد وأبى محمد على بن حزم وحيان بن خلف بن حيان ، واختلط فى مدائن الأندلس وأريافه المسلمون والنصارى واليهود على قدم واحدة ، وتداخلت العلاقات بينهم ، وامتزج الشرق والغرب فى هذه البيئة الأوربية . وخفت حدة الخلاف بين إسبانيا النصرانية فى الشمال وإسبانيا النصرانية فى الوسط والجنوب والشرق ، ووقف الأندلس كله على أبواب عصر نستطيع أن نشبهه بعصر الاستنارة (Die Aufklárung) الذى لم تعرفه أوربا إلا بعد ذلك بقرون، ثم جاءت هذه الفتنة فأوقفت ذلك كله دفعة واحدة وقضت على الآمال التى علقت عليه ، ووقف أهل إسبانيا جميعاً مسلمين ونصارى ينتظرون أن تنجلى الفتنة الطويلة التى أخذت عليهم كل طريق ، وتنكر أمراء الطوائف لكل المثل العليا التى قضى أمراء المروانيين قروناً فى تكوينها ، فعملوا على هدم الوحدة والخلافة وفرطوا فى هذه العصبية الأندلسية التى كادت أن تكون قومية صريحة فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ومدوا أيديهم يطلبون العون من الشرق والغرب ، وفقدوا هذه العزة القومية ، وأضاعوا على إسبانيا فرصة سبق العالم كله إلى النهضة الكبرى .

وكان زوال الخلافة الأموية وتفرق أمر الأندلس الإسلامى داعيين لسلسلة من التطورات فى إسبانيا النصرانية لا تقل مدى عن تلك التى شهدناها فى الأندلس الإسلامى . ذلك أن تفرق أمور المسلمين ووقوع الفتن بينهم بعث النشاط والآمال فى نفوس ملوك قشتالة وليون وأرجون وأكناد برشلونة ،

---

(١) JULIAN RIBERA, *Disértaciones y opusculos,* (Madrid 1928) 1,pp. 127-128.

(٢) H. MONÉS, *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue* (Le Caire, 1948) pp. 108 sqq.

(٣) A. GONZALEZ PALENCIA, Historia de la literatura arabigo - espanola (2. ed. Madrid, 1945) pp. 113 sqq.

وانفتحت أمام كل منهم السبل لتوسيع سلطانه على حساب الخصم المتهدم ، وكان على عرش قشتالة وليون وجليقية وأشتوريس ملك قوى محارب من ذلك الطراز الصلب الطموح الذى عرفته إسبانيا فى ذلك العصر وعصر الملوك الكاثوليكيين الذى تلاه ، وهو فرناندو الأول ، فبادر ينتهز الفرصة ، واندفع نحو الجنوب الغربى والجنوب الشرق واستولى على سَمّوره Zamora وبازو Viseu وقُلَمَّرية Coimbra . وهدد بقواته إمارات الأندلس الأربع الكبرى التى كانت أشبه بالدرع تحمى ما يليها من الجنوب ، وهى : سرقسطة وطليطلة وبطليوس وإشبيلية ، وما زال ينوش بلادها حتى اضطر طليطلة وبطليوس إلى شراء سلامتهما بجزية سنوية تؤديانها إليه[١] .

ثم مات فرناندو فقسمت المملكة بين أبنائه ، ودارت الحرب بينهم على العادة حتى استطاع واحد منهم ، وهو سانشو الملقب بالكبير (١٠٠٠ — ١٠٣٥ Sancho el Mayor) ، أن يستولى على ما بيد إخوته ويعيد وحدة الدولة ، وأصبح ملك قشتالة وليون وجليقية بعد حروب طويلة ، ثم تجرد لحرب المسلمين والفوز بقطع من أراضيهم التى لم تكن لتجد من يدافع عنها[٢] .

وفى أثناء هذه الحروب الطويلة التى دارت بين ملوك إسبانيا النصرانية بعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين تربت فى صفوف جيوشهم طائفة من الفرسان ذوى قدرة حربية وصبر وشجاعة وطموح ، وأتيحت لهم الفرصة للتجربة والمران والضراوة ، وستحمل هذه الطائفة عبء الكفاح مع المسلمين إلى جانب ملوكها. والسيد الكنبيطور — مدار حديثنا فى هذا البحث — واحد من ذلك الجيل العفىّ المقاتل من فرسان إسبانيا النصرانية الذى ملأ أرض الجزيرة خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى بأعمال الشجاعة والكفاح والتخريب والدمار[٣] .

---

(١) ANTONIO BALLESTEROS Y BERETTA, *Historia de Espana* (Barcelona, 1920) II. pp. 220 sqq.

(٢) R. MENENDEZ PIDAL, La Espana del Cid (1. ed. Madrid 1929) pp. 117-121.

(٣) لم تعرف إسبانيا النصرانية نظام الفرسان إلا فى زمن متأخر عن زمن قيامه بغيرها من بلاد غرب أوربا ، وقد درج ملوكها على اختيار فرسانهم من بين أولاد المزارعين وصغار =

رودريجو دياذ د بيبار :

والاسم الحقيقى للسيد هو Rodrigo Diaz de Vivar لأنه ولد فى قرية Vivar على تسعة كيلو مترات شمالى برغش ، والمراجع العربية تسميه « لذريق » « ورذريق » أو « الطاغية رذريق » . وكان أبوه Diego Lainez أو Diaz من أصل عريق ، وكان من رجال فرناندو الأول وكان يملك إقطاعيات على نهر دويرُه . ويُظن أن لذريق ولد فى سنة ١٠٤٥ ، أى بعد زوال الخلافة القرطبية بخمس عشرة سنة(١) .

ولما كان دييجو لاينيذ من أفصال الملك فرناندو فقد دخل ابنه رذريق فى خدمة البيت المالك على عادة أبناء الأفصال فى نظم الأقطاع ، وضمه الأمير سانشو بن فرناندو إليه ورسمه فارساً فى سنة ١٠٦٣ ، وأشركه معه فى الحروب التى قامت بين قشتالة وجيرانها فى ذلك الحين . وكان ألد أعدائها راميرو — أو رُذْمير — ملك أرغون ، وكان قد جعل دأبه مهاجمة إمارة

= الناس ، لا من بين أبناء النبلاء كما كان الحال فى غالة مثلا . غير أنه تكونت مع الزمن طبقة فرسان مرتبطة بحواشى الملوك كان أفرادها يتربون على قواعد الفروسية المعروفة ، ومع ذلك فقد ظل الملوك يدخلون بين فرسانهم النجباء من أولاد الأصاغر ، وكان الفرسان النبلاء يحتقرونهم ويعادونهم . وكان السيد من أبناء الأصاغر ، فلم يكن أبوه دييجو لاينيذ نبيلا ، ولهذا عاداه الفرسان النبلاء وتحزبوا عليه ، وكان لهذا أثر بعيد فى تاريخه كما سنرى . وكان لكل فارس ردفة من أتباعه تسمى la mesnada يدخل فيها الشبان ، الذين سيرسمون يوماً ما فرساناً ، والخدم criados

Cf. SANCHEZ Albornoz, *Estampas de la vida diaria en Léon hace mil anos.*

وعند ما قرب الملك سانشو لذريق وأعلى شأنه أنكر الفرسان النبلاء ذلك وانضموا إلى أخيه ألفونس الذى سيخلفه على العرش باسم ألفونس السادس ، فجعلهم بطانته ، وأوغروا قلبه على لذريق فكانت العداوة التى سنتكلم عنها بين الاثنين .

ومن أكبر أولئك الفرسان النبلاء الذين سيعادون لذريق وسيكون لهم أثر فى تاريخه — وفى تاريخ الحرب بين المسلمين والنصارى فى ذلك العصر كله — « بنو غومس » ، وهم أسرة قشتالية قديمة كانت تملك بلاد كاريون Carrion وصلدانية Saldana وليبانه Liébana وسموره Zamora وكانت قد استعربت أيام المسلمين ودخلت فى ولاء بنى أمية ، ومن هنا كان اسمها بنى غومس ، واحتفظت باسمها بعد أن انضمت إلى ملوك قشتالة بعد سقوط الخلافة ، فصارت تسمى فى النصوص الإسبانية Los Beni Gomez أو Vanigomez ، وأكبر رجالها فى عهد السيد Gonzalo Ansurez

انظر : R. MENENDEZ PIDAL, *op. cit.* I, pp. 189-190.

(١) MENENDEZ PIDAL, *op. cit.* pp. 127-129.

سرقسطة ، وكانت من أحلاف ملوك قشتالة وليون ، وكانت من قبل تدفع الجزية لأرغون ثم تحولت إلى حلف قشتالة ، فظل رذمير الأرغونى يتحين الفرص لمهاجمة بلادها الشمالية — لاردة ، ووشقة ، وتطيلة — فلما كانت سنة ١٠٦٣ سار فرناندو نحو إشبيلية ، فنهز رذمير الفرصة وهاجم سرقسطة ، فعجل فرناندو بإرسال ابنه سانشو لغوثها ، فسار ومعه رذريق . وعند بلدة Graus — أو Grodos دارت رحى معركة حامية بين قوات المقتدر أحمد بن هود والقشتاليين — وفيهم السيد — من ناحية وبين راميرو صاحب أرغون من ناحية أخرى ، وانتصر القشتاليون انتصاراً كاملا حتى ليقال إن راميرو قتل فى المعركة . وهكذا نرى أن رذريق حارب إلى جانب المسلمين فى أول معركة يذكرها له التاريخ(١) .

وبعد ذلك بعامين (١٠٦٥) توفى فرناندو الأول ملك قشتالة وليون بعد أن قسم أملاكه بين أبنائه الثلاثة : سانشو وهو صاحب السيد الذى ذكرناه وقد أعطاه مملكة قشتالة ، وألفونسو سادس ملوك ليون المسمين بهذا الاسم ، وغرسية وقد أعطاه جليقية ، أما بنتاه Urraca وإلبيرة Elivra فقد أعطاهما إقطاعيات(٢) .

ظهور أمر رذريق :

وبدأت الحرب بين الإخوة بعد موت أبيهم مباشرة ، واستطاع سانشو أن يهزم أخويه غرسية وألفونسو ويجردهما من أملاكهما . وكانت الحرب بين سانشو وألفونسو عنيفة حامية انتهت بهزيمة الأخير ووقوعه أسيراً بيد أخيه عند Golpejera فى سنة ١٠٧١ . وكان لرذريق فى هذه المعركة دور عظيم ، بل كان هو صاحب الفضل فى النصر ، فكان هـــذا أول الخصومة الطويلة بينه وبين ألفونسو(٣) ، وهى خصومة ستدور حولها حوادث السنوات التالية كلها . وقد قبل سانشو أن يطلق سراح أخيه ألفونسو على

---

(١) R. M. PIDAL : Op. cit. pp. 143-146.

(٢) ,, ,, ,, : Op. cit. pp. 154-155.

(٣) راجع عن دور السيد فى هذه المعركة :
DOZY, *Recherches*, II, p. 105-106.

شريطة أن يخرج من بلاده ، فاختار أن يقيم عند المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واستقبله هذا الأخير استقبالا حسناً ، وعاش عنده مكرماً حتى سنة ١٠٧٢ . وخلال هاتين السنتين اللتين قضاهما ألفونس فى هذا البلد الإسلامى ، ألم بكل أحوال البلد وعرف ما كان ينتابه من عوامل الضعف ، وسينتفع بهذه المعلومات عندما يصير إليه عرش قشتالة وليون كما سنرى ، إذ سيجعل دأبه الاستيلاء على طليطلة مكافأة لأهلها على ما آووه(١) .

وعلا نجم رذريق فى بلاط قشتالة ، وأقامه سانشو « فارس » الجيش El Alférez (٢) ، أى القائد العام(٣) ، وظهرت فروسيته فى مبارزة عنيفة مع فارس نَبَرِّىّ ، وقد قيل إن انتصاره فى هذه المبارزة كان السبب فى تلقيبه بالـ campeador الذى عربه المسلمين إلى الكنبيطور أو القمبيطور ، وحاول دوزى أن يفسر لفظ « كمبيادور » بأنه البطل Champion ، ولكننا وجدنا فى الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى التفسير الصحيح للفظ ، إذ قال : « القنبيطور ومعناه صاحب الفحص واسمه لذريق » ، فعرفنا أن Campeador من campus وهو الفحص ، ومقابل اللفظ فى اللاتينية campidoctus ومعناه قائد الغارات فى بلاد الأعداء(٤) .

العداء بين رذريق وألفونسو السادس (ابن رُدْمير) :

وفى سنة ١٠٧٢ قُتل سانشو الثانى عند أسوار سموره Zamora ، ولم يجد رجال قشتالة وليون بدا من أن يستدعوا أخاه ألفونس من منفاه ويولوه

---

(١) LÉVI - PROVENÇAL, *Alphonse VI et la prise de Tolède*. pp. 117-118

(٢) Alférez لفظ إسبانى من أصل عربى هو « الفارس » وكان يطلق على حامل لواء الملك وقائد قواته ، ويسمى فى اللاتينية armiger . وكانت العادة أن يكون للمملكة فارس واحد ، أى أن سانشو جعل رذريق فوق فرسان قشتالة وليون جميعاً ، وكان ذلك أيضاً من أسباب كراهة فرسان قشتالة لرذريق .

(٣) LÉVI - PROVENÇAL, *Le Cid de l'histoire*.

(٤) راجع مناقشة دوزى لأصل هذا اللفظ فى :

DOZY, *Recherches*, II. pp. 56 sqq.

وقد كان ماسديو قد ذهب إلى أن لفظ كمبيادور فى إسبانية القرن الثانى عشر كان يحمل معنىً محطا ، فأثبت له دوزى (ص٥٧) خطأ رأيه ، وأورد له أبياتاً من شعر Gonzalo de Berceo =

على العرش . وكان رذريق كبيرَ رجال الدولة ، ولم يكن له بد من استدعاء خصمه ألفونس والدخول فى خدمته ، وقد فعل ذلك راغماً ، لأن القانون كان يقضى به . وقد أراد رذريق أن يشعر ألفونس بسلطانه قبل أن يلى العرش ، فاشترط أن يحلف يميناً ببراءته من الاشتراك فى تدبير مقتل أخيه[١] ، فأقسم ألفونس بين يديه فى جمع حافل من رجال مملكة ليون وقشتالة ، مما زاده نفوراً من رذريق . ولهذا فإنه لم يكد يستقر على عرش قشتالة وليون فى سنة ١٠٧٢ حتى عزل رذريق من قيادة الجيش وولى مكانه Garcia Ordonez الذى تسميه المراجع العربية « غرسية ذا الفم المنبوز » ،

= فى قصيدته المسماة : Vita de Santo Domingo de Silos التى ألفت فى سنة ١٢٢٠ يفهم منها أن لفظ كبيادور كان معناه الفارس النبيل ، وهذه الأبيات هى :

El Rey Don Garcia de Nagera Sennor,
Fijo del Rey Don Sancho, él que dicen Mayor,
Un firone caballero, noble campeador,
Mas para sant Millan podrie ser meior.

ثم مضى بعد ذلك يستقصى أصل اللفظ فى اللغات الجرمانية ، وربطه بالأصل التيوتونى camph وأوغل فى ذلك إيغالا غريباً ، وربطه بلفظ champion الفرنسى و champion البروفنسى و champione الإيطالى (ص٥٨ – ٥٩) . أما منندذ بيدال ، فقد ذهب – على عادته فى تفخيم السيد – يلتمس أصل اللفظ فى اللغة اللاتينية ، واستند إلى أبيات وردت فى أنشودة لاتينية وضعت فى مدح السيد تقول :

"Hoc fuit primum singulare bellum
Cum adolescens devicit Navarrum
hinc *campi-doctor* dictus est majorum ore virorum".

(راجع ص ١٧٥) من كتابه المشار إليه .

وقد حل نص ابن عذارى الذى ذكرناه (انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ٣ ، طبعة ليڤى پروڤنسال ، باريس ١٩٣٠ ، ص ٣٠٥) هذا الإشكال . ولكن منندذ بيدال رفض الأخذ به على وضوحه ، وظل يتمسك إلى الآن بالأصل اللاتينى للقب السيد .

ويذهب التاريخ اللاتينى للسيد المسمى Historia Roderici إلى أن الفارس الذى غلبه السيد واستحق بغلبه إياه لقب القمبيطور كان فارساً مسلماً من أهل « مدينة سالم » يسمى الحارث Hariz من رجال المقتدر بن هود .

Cf. : Menéndez Pidal, op. cit. pp. 175-176.

(١) أقسم ألفونسو اليمين على براءته من تدبير قتل أخيه فى كنيسة سانتا جاديا Santa Gadea على مقربة من برغش فى نوفبر أو ديسمبر ١٠٧٢ ، ويحيط القصص الشعبى =

وقد أحفظ ذلك رذريق وبدأت بينه وبين غرسية عداوة ستدوم حتى موت غرسية هذا .

الخلاف بين القشتاليين والليونيين :

وكان اتحاد ليون وقشتالة تحت تاج واحد أمراً جديداً على الإسبان إذ ذاك ، وكانت عرى ذلك الاتحاد واهية لا يحول بينه وبين الانتثار إلا شخص الملك الجالس على العرش . وكانت المملكة أول الأمر فى ليون ، وكان أصحابها أكبر ملوك إسبانيا النصرانية ، ولم تكن قشتالة إلا كونتية صغيرة إلى جوارها ، فلما قسم فرناندو الأول أملاكه بين أبنائه أعطى كونتية قشتالة لسانشو ، فضم إليه فرسانها — وفيهم رذريق (وهو قشتالى من ڤيڤار كما قلنا) — فلما صار إلى العرش أصبح فرسانه القشتاليون أعلى من فرسان ليون ونبلائها مرتبة ، فنفر من ذلك أولئك الأخيرون ، وأخذوا يناوئون سانشو ، وتولى زعامتهم ألفونس أخو سانشو ، وما زال العداء بين الجانبين حتى وقعت الحرب وانتصر القشتاليون على الليونيين فى معركة « جولپيخار » التى ذكرناها ، ونفى ألفونس إلى طليطلة ، فتم بذلك انتصار القشتاليين إلى حين .

وكانت لسانشو وألفونس أختان ورثت كل منهما عن أبيها كونتية ، وأهم الأختين هنا « أورّاكة Urraca » وكان أبوها أعطاها سمورة ، وكانت شديدة الميل إلى أخيها ألفونس ، فآزرته على أخيه سانشو وآوته عندها بعد انهزامه ، ثم شفعت له عند أخيه حتى أخرجه من السجن وسمح له بالمسير إلى طليطلة منفياً . وتزعمت أوراكة بعد ذلك حزب الليونيين الكاره لأخيها الملك سانشو زعيم القشتاليين (وفيهم رذريق) ، وما زال الأمر يسوء بينهما حتى قرر سانشو الاستيلاء على سمورة من أخته ، فسار إليها وحاصرها ، فإذا هو على الحصار إذ أصابه سهم أصماه فى السابع من أكتوبر ١٠٧٢ م . ولا شك أن لأوراكة يداً فى قتله . وكانت نتيجة ذلك أن عاد ألفونس إلى

= الإسبانى هذا الحادث بحشد من الأساطير ، ومن ذلك أن السيد قال لألفونسو : « وإذا كنت كاذباً فى يمينك فسيميتك الله صريعاً على يد واحد من أتباعك يخونك كما خان ڤيليدو أدولفو أخاك الملك سانشو وقتله ! » فقال ألفونسو وفرسانه الاثنا عشر : « آمين ! »

Cf. : Prim. Cron. Gen. p. 519a.

ليون وتوج ملكاً على قشتالة وليون كما رأينا ، فانتصر حزب الليونيين من جديد ، وكان على رذريق بعد ذلك أن يقود جماعة القشتاليين الغاضبين على ألفونسو(١) .

ومن الظريف أن بعض مؤرخى إسبانيا النصرانية كانوا يدهشون من هذا الميل المفرط الذى كانت أوراكة تبديه نحو أخيها ألفونسو ، حتى عثر ليڤى پروڤنسال أخيراً على نص عربى يؤكد وجود علاقة مريبة بين الاثنين(٢) ، فانكشفت بذلك ناحية غامضة من نواحى تاريخ إسبانيا النصرانية ، وتبين أن ما كان المؤرخون يزعمونه من أن نصارى الإسبان كانوا يمتازون على مسلميهم من أهل ممالك الطوائف بسلامة الخلق لا يقوم على أساس ، إذا أن ملوك الطوائف أسرفوا على أنفسهم بالفعل فى كل ميدان ، ولكن إسرافهم لم يبلغ مبلغ ألفونسو وأخته .

ولم ينصرف رذريق من بلاط ألفونسو بل ظل فى خدمته ، ويبدو أن الملك كان راضياً عنه ، لأنه زوجه فى يوليو ١٠٧٤ من إحدى بنات خالاته وهى Jimena ابنة Diego Rodriguez كُنْد أبيطْ Oviedo .

وبولاية ألفونسو السادس عرش قشتالة وليون يبدأ تحول جديد حاسم فى تاريخ إسبانيا النصرانية ، فقد كانت تعيش إلى الآن منفصلة تماماً عن كنيسة روما من الناحية السياسية ، وكانت العبادة فى كنائسها تجرى على

---

(١) Prim. Cron. Gen. pp. 503a, sqq.
Dozy, Recherches, II. p. 106
R. Menéndez Pidal, op. cit. pp. 195 sqq.

والمراجع المعطاة فى هذا المرجع الأخير .

(٢) هذا النص لابن الصيرفى الغرناطى المتوفى فى أوريوله سنة ١١٦١ م . وكان كاتباً للأمير أبى محمد بن تاشفين ، وهو : ويذكر أن أذفونش بن فرذلند – لعنه الله ! – زنى بأخته أراكة ، فجمع بين النصرانية والمجوسية ، ثم طلب إلى أحبار دينه المغفرة ما وافق ، فحملوه على قصد الكنائس الفاضلة والتعبد ، أخزاهم الله ولعنهم ! » . هذا وقد كان الراهب خوان خيل السموري Juan Jil de Zamora قد ذكر فى كتابه De praeconüs civitatis Numantinae (= مدائح بلدة سمورة) قصة ألفونسو السادس وأخته أراكه وذكر أنه تزوجها بالفعل بشهادة نفر من نبلاء مملكته !

Cf. : Lévi-Provençal y R. Menéndez Pidal, *Alfonso VI y su hermana Urraca.* Al-Andalus XIII (1948) fasc. 1. pp. 157-167.

طقوس محلية إسبانية عرفت بالقوطية أو المستعربية أو الطليطلية ، فلما جاء ألفونسو — وكان متزوجاً من أميرة فرنسية هى Constance ابنة Robert de Bourgogne — انفتح باب الصلات مع غرب أوربا والبابوية وبدأت المراسلات بين ألفونسو والبابا جريجورى السابع ، وانتهت بقبول ألفونسو السادس استبدال الطقوس المستعربية بالطقوس الرومانية ، وفتح باب إسبانيا أمام رهبان دير كلونى ، فوفدت جماعات منهم إلى قشتالة وليون ، وبدأ هذا التيار الفرنسى الرومانى الذى سيكون بعيد الأثر فى عودة إسبانيا النصرانية إلى محيط الحضارة الغربية بعد طول انفصال . وقد ذهب مؤرخ رذريق الأستاذ مننديث بيدال إلى أن رذريق كان من المعارضين فى هذه السياسة ، لأنها تنتقص من سيادة إسبانيا وتدخلها فى تبعية الكنيسة الرومانية(١) .

* * *

رذريق فى خدمة بنى عباد :

وكانت الإمارات الإسلامية المصاقبة لقشتالة وليون — وهى طليطلة وبطليوس وإشبيلية — تؤدى لها جزية سنوية ، وكانت العادة أن يندب الملك أحد كبار رجاله لقبضها ، فندب ألفونس رذريق للقيام بهذه المهمة فى أواخر سنة ١٠٧٩ ، فوفد إلى إشبيلية فى لمة من الفرسان على بلاط المعتمد ابن عباد .

وكانت الخصومة على أشدها فى ذلك الحين بين المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وممثل الطائفة العربية فى ذلك العصر الملىء بالفتن ، وبين عبد الله بن زيرى حفيد باديس بن حبوس آخر أمراء غرناطة من بيت بنى زيرى البرابر الصنهاجيين . وكان عبد الله — على ضعفه — يتزعم حزب البربر ويستعين فى حرب بنى عباد بجنود من النصارى يرسلهم إليه ملك ليون مقابل مال يؤديه إليه ، وقد عرفنا ذلك من كتاب فريد فى بابه اسمه « التبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة » عثر عليه الأستاذ ليڤى پروڤنسال وتبين أنه مذكرات هذا الأمير عبد الله ، دونها بيده بعد خلعه ونفيه إلى أغمات فى المغرب ، وقص فيه تاريخ

---

(١) P.M. Pidal, op. cit. pp. 255 sqq.

غرناطة فى ذلك العصر المضطرب ، وحكى قصة ذلك البيت المغربى ، ودافع عن نفسه وأهله بعد ضياع ملكه فى صراحة وصدق يجعلان من مذكراته تلك قطعة فريدة من الأدب ووثيقة طريفة من وثائق التاريخ[1]. وقد ذكر عبد الله فى سياقها كيف أن خوفه من جاره ابن عباد هو الذى دفعه إلى الاستعانة بألفونسو وطلب المدد الحربى منه ، فأرسل إليه جماعة من الفرسان على رأسهم قائد جيوشه غرسية أوردونييذ Garcia Ordonez خصم رذريق اللدود .

وتشاء المصادفات أن تقع بين المعتمد وعبدالله فى ذلك الحين مناوشات تكون نتيجتها خروج غرسية أوردونييذ على رأس قوة بربرية لمغاورة إشبيلية ، فعجل المعتمد بإرسال قوة على رأسها رذريق نفسه ، والتقى الفارسان القشتاليان الخصمان عند « قبره » يحارب كل منهما لحساب أمير مسلم . ودارت بينهما معركة حامية انهزم غرسية فيها انهزاماً قبيحاً ، ووقع فى أسر خصمه ، وظل فى قبضته ثلاثة أيام ، ثم أطلق سراحه فعاد مهيناً محنقاً إلى برغش ليشكو إلى ملكه ألفونسو ما فعله به رذريق ، واجتهد فى إيغار نفسه عليه ، مما أحنق ألفونسو على تابعه . أما رذريق فقد عاد مظفراً إلى إشبيلية وقضى فيها ردحاً من الوقت ثم عاد إلى برغش سنة ١٠٨٠ ، فجعل الملك يحاسبه على تلك الأخطاء التى ارتكبها : فقد حارب من غير إذنه ، واعتدى على بلاد فى حماية متبوعة ، وأهان إخوانه وقتل منهم ، وقبض من ابن عباد لنفسه مالا ، وكلها مخالفات شديدة لتقاليد الأفصال مع متبوعيهم . وبعد ذلك بقليل ارتكب رذريق مخالفة أخرى : فخرج دون إذن سيده وحارب جماعة من جند

---

(١) كان يقيم فى بلاط الأمير عبد الله بن زيرى فى ذلك الحين عدد من أكابر فرسان مملكة قشتالة وليون ، مثل غرسية أوردونييذ هذا وكان صاحب نخرة وفرتون سانشذFortun Sanchez زوج إحدى أميرات نبره Navarra ولپ سانشذ Lope Sanchez أخى فرتون المذكور ودييجو پيريذ Diego Pérez ، وكلهم من رؤساء الحزب الليونى فى بلاط ليون وقشتالة . ولا ندرى السبب فى اجتماعهم كلهم عند الأمير الصنهاجى فى ذلك الحين ، ويعلل مننذ پيدال ذلك بأن ألفونسو السادس بثهم هناك ليرقبوا أعمال المعتمد صاحب إشبيلية بسبب اتساع رقعة دولته بعد استيلائه على قرطبة ومرسية وانتصاره على رامن كند برشلونة الملقب برأس الأسطب Ramon Capeza de Estopa ، وذلك تعليل غير مقنع .

Cf. : R.M. Pidal, op. cit. 1, p. 2 87.

طليطلة المسلمين عند غرماج Gormaz على نهر دُوَيْرُه ، فكانت نتيجة ذلك أن غضب ألفونسو عليه وقرر نفيه من بلاده ، وكان ذلك عقوبة قاسية ، إذ كان يتعين على الفَصَل المنفى ترك أملاكه وبلاده والخروج مع أتباعه ومحاولة كسب عيشه بالخدمة عند أى سيد آخر .

رذريق فى خدمة بنى هود :

وهكذا خرج رذريق فى سنة ١٠٨١ منفياً من بلاده ليبحث له عن سيد جديد ، وكانت معه قطعة من أتباعه من الفرسان تبلغ نحو ٣٠٠ فارس . وعرض خدماته على كوند بَرَنْجَلُونه Ramon Berenguer فرفض ، فيمم شطر سرقسطة وعرض نفسه على أميرها يوسف بن هود الملقب بالمؤتمن فقبله ، وبهذا يبدأ فصل جديد من حياة ذلك المغامر القشتالى ، فترة طويلة مليئة بالحوادث والمغامرات لحساب بنى هود تارة وحساب نفسه تارة أخرى ، وهذه الفترة هى التى جعلت منه فيما بعد بطل أساطير وملاحم .

وكانت أمور ممالك الطوائف تسير خلال هذه السنوات سيراً سيئاً ، فقد كانت الحروب على أشدها بين إشبيلية وغرناطة ، وكان المعتمد قد تمكن من الاستيلاء على مرسية فاتسعت رقعة بلاده اتساعاً أضعفها وقرب أيامها ، لأن هذا الذراع الذى امتد لها حتى وصل شرق الأندلس عند مرسية فرض عليها تبعات كثيرة فى الدفاع والحماية لم تكن تستطيع النهوض بها ، ثم إنه أوقعها فى منازعات مع جيران مرسية مثل أبى مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية وجاره أبى مروان بن رزين صاحب « السَّهْلَة » ، وزادت مخاوف أصحاب غرناطة من البربر ، فازداد تهالك عبد الله بن زيرى على ألفونسو السادس ، وتخوف هذا الأخير من إشبيلية وأميرها ، واستقر عزمه على مهاجمتها والفراغ من أمرها جملة .

ولم تكن أحوال دولة بنى ذى النون أصحاب طليطلة بأحسن من ذلك : كان على رأسها يحيى بن إسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون ، وكان مزاجاً غريباً من الفضيلة والرذيلة ، يتردد بين النشاط الواسع والخمول الغريب من حين إلى حين ، وكان شديد الانصراف إلى لذاذاته حتى أسرف فى ذلك إسرافاً

أصبح مضرب المثل وحتى أفنى أموالا جليلة فى مجالس أنسه وأعراسه ومبانيه(١) ، غير أنه كان إلى جانب ذلك سياسياً قادراً استطاع السيطرة على كبار رجال أهل مملكته ، وخاصة بنى الحديدى ، وكانوا أسرة قوية تتولى الوزارة والحجابة فى دولة طليطلة . وكان المأمون يتودد إلى ألفونسو السادس ويداريه ، وكان هذا يبره ويذكر له يده عليه ، إذ آواه عندما كان منفياً . وقد استنفد المأمون قواه فى حرب جاره سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، ولا زال كل منهما يغزو أرض الآخر ويعيث فيها ويستعين عليه بالنصارى حتى أشرفت الدولتان على الانهيار فيما بين ٤٣٥ و ٤٣٨ هـ / ١٠٤٣ — ١٠٤٦ .

وقد توفى المأمون بن ذى النون فى ذى القعدة ٤٥٧ / ١٠٦٤ وخلفه حفيد له يسمى يحيى أيضاً وتلقب بالقادر ، وكان آية فى الضعف وسوء الرأى وخطل السياسة : اختلف مع بنى الحديدى وساء مركزه فى طليطلة لأشهرٍ من ولايته ، وتطلع ألفونسو للاستيلاء على هذا البلد العظيم وما حوله ، ونصب نفسه قيما على القادر ، وفرض عليه جزية ثقيلة اضطر فى جمعها إلى اعتصار أهل طليطلة ، فكرهوه واشتد سخطهم عليه ، وبدا بوضوح أن طليطلة صائرة إلى يد ألفونسو . وهكذا كان النصارى يزحفون إلى هذا المعقل الحصين وأمراء الطوائف لاهون عن الأمر ، منصرفون إلى ما شغلهم من المنافسات فيما بينهم ، وما استنفد قواهم من النهم إلى لذاذات العيش والتهالك على المتاع(٢).

وقد أدى رذريق خلال السنوات الخمس الأولى من خدمته لبنى هود خدمات كبيرة لهم ، وحارب لحسابهم أرغون وبرجلونة ، وأفاد هو من ذلك فوائد عظيمة . فقد تحرر من قيود التبعية وأصبح فارساً حراً يعمل لحساب نفسه ، وأطلق لنفسه العنان فى شرق الأندلس كله ، فاتسعت ثروته وكثر

---

(١) انظر عن ذلك كله : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ، ج ١ ، ٢ .
ابن عذارى : « المغرب » ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ وما يليها .
ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ١٩٧ وما يليها .

(٢) انظر عن ذلك كله : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ، ج ١ ، ٢ .
ابن عذارى : « البيان المغرب » ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ وما يليها
ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ١٩٧ وما يليها .

أتباعه بمن انجفل إليه من المغامرين والفرسان والزعار ما بين مسلمين ونصارى ، وأصبح أشبه ما يكون « بالكوندوتييرى » الإيطاليين الذين كان الواحد منهم يرأس جماعة من الجند ويبيع خدماته لمن يدفع الثمن ، ويقضى حياته فى الحرب والنهب والتخريب[1] .

رذريق يتطلع إلى بلنسية :

وكانت بلنسية فى ذلك الحين على حال من الضعف والعجز عن حماية نفسها أطمعت جيرانها فيها : كان قد انتزى بها رجل من أحفاد ابن أبى عامر يسمى عبد العزيز ، دخل فى طاعة المأمون بن ذى النون ليحمىْ نفسه ، وخلفه ابنه أبو بكر مروان بن عبد العزيز ، فظل على طاعة طليطلة ، وزاد حال البلد سوءاً ، وطمع فيه بنو هود أصحاب سرقسطة ، وكان السيد أكبر قوادهم ، فتنبه لهذه الناحية وطمع فى بلنسية[2] .

وعندما توفى المأمون بن ذى النون فى ١١ ذى القعدة ٤٦٧ هـ . / ١٠٧٤م خلفه على طليطلة حفيده يحيى الملقب بالقادر ، وكان غاية فى الضعف وقلة

---

(١) قال ابن بسام : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة بعساكر أمير المسلمين تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أكلب الجلالقة يسمى برزريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا وداء عضالا ، له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكروه اطلاعات ومطالع . وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه من الخمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل وسعيهم المذموم المخذول ، وسلطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها وأدانيها شره » .

انظر ص ٩ من نص ابن بسام الذى نشره دوزى فى نهاية الجزء الثانى من أبحاثه .

Dozy : Recherches, II. p. 115

(٢) وقد أثنى ابن الخطيب على ابن عبد العزيز بقوله : « أحد رجال الكمال بالأندلس ، وعين بلنسية التى بها تبصر ، ولسانها الذى تسهب به وتختصر . وكان طاغية الروم (يريد رذريق القمبيطور) الممارس لرؤساء أهل الأندلس بكثرة مداخلتهم إياه فى أمر بلادهم يقول إذا جرى ذكره : رجال الأندلس ثلاثة ، فيعد منهم ابن عبد العزيز . . . وكانت آثار عبد العزيز على الجملة جميلة ، وكان ثانياً لأبى الحزم بن جهور وشبيهاً له فى الجهة الشرقية ، حمل جهدته على سداد ، وقام بها بحال من الاستبداد . . . وكانت وفاته ببلنسية فى العشر الأواخر من جمادى الأخيرة سنة ٤٥٦/١٠٦٤ » . ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢٣٣ .

الحيلة وسوء التدبير كما قلنا ، يذهب ابن الخطيب إلى أنه « كان يصاحبه مرض درن قلما ينعش منه »[١]. ووقعت النفرة بينه وبين كبار أهل طليطلة فلم يجد ما يؤيد به نفسه إلا الانضواء الكامل فى طاعة ألفونسو السادس، وكان هذا يعرف طليطلة حق المعرفة من أيام لجوئه إليها على ما قلنا ، فلما رأى هذا « القادر » العاجز بين يديه اجتهد فى الاستيلاء على البلد .

سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس :

وساءت حال القادر فى طليطلة ، وأحس أن كبار أهلها لا يرضون عنه ، فاستعان بنفر من الأشرار عليهم ، ودبر مصرع كبيرهم أبى بكر بن الحديدى، وظن أن الأمر خلا له بذلك ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن أمره ازداد سوءاً ، فعجل بالهرب من البلد إلى حصن قَوْنَقَه Cuenca تاركاً إياه ينعى من بناه . « وأقام أهل طليطلة بعده أياماً كالسائمة المهملة ليس عليهم أمير ، ولا فيهم بالصواب مشير » ، كما يقول ابن الخطيب ، واستقر بهم الرأى على استقدام المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، فأقبل إلى البلد وأقام فيه أشهراً ريثما جمع ما عثر عليه من ذخائر بنى ذى النون ، ثم ترك طليطلة وعاد إلى بطليوس محملا بالأسلاب ! وأتيحت للقادر الفرصة من جديد ، فعاد إلى طليطلة بمعاونة ألفونسو السادس وسام أهلها سوء العذاب ، « واستقر بها شر استقرار ، واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد ، وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرمم[٢]».

وهكذا تمهد طريق طليطلة أمام ألفونسو السادس ، وكان يرقبها عن كثب وهو لا يشك فى أنها صائرة إليه . فلما وجد هذا « القادر » أعجز من أن يستقر فى البلد ، وأحس أن أحداً لن يمنعها منه إذا طلبها ، تقدم فطلب من القادر أن ينزل له عن طليطلة فى مقابل تأييده إياه فى الاستقرار على بلنسية ، وكانت داخلة — من الوجهة النظرية — فى زمام طليطلة . وتم هذا الاتفاق المنكود بين الرجلين ، واستولى ألفونسو على قلب معاقل الأندلس

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢٠٩ .

الإسلامى وأهم دويلاتها بأيسر مؤونة ، وامتدت رقعة مملكة ليون وقشتالة بهذه الخطوة من شمالى نهر تاجه إلى ضفاف الوادى الكبير . ومن أكبر دلائل هوان أمر مسلمى الأندلس فى ذلك الحين ما ذكره ابن الخطيب من أن أهل طليطلة عارضوا فى إسلام البلاد لألفونسو ، « فلما بلغ الصبر بهم مداه خرجوا إلى محلته ، (محلة ألفونسو) ، فأدخلوا المضرب الذى كان له ، بعد حجاب غليظ وإذلال كثير ، فألفوه يمسح عينيه من أثر النوم ، فقال لهم : « إلى متى تتخاذلون ، وماذا تصنعون ؟ » فقالوا : « لنا بغية ، وفى فلان وفلان أمنية ! » ، وسموا له جملة من ملوك الأندلس ، فتهافت وسخر بهم ، ودعا بإرسال من سموه ، فحضروا وكلهم يؤدى خضوع مُرْسله ، وينوب فى لثم يده ، ويتوسل بهديته ، فخرجوا من عنده وقد سقط فى أيديهم . ولثلاثة أيام من ذلك المجلس خلوا بينه وبين البلد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله[١] » ، وكان ذلك فى منتصف المحرم ٤٧٨ هـ . / مايو ١٠٨٥ م[٢] .

وقد ارتج الأندلس الإسلامى لهذه الكارثة رجة عنيفة ، وشعر الأندلسيون أن أمر الأندلس كله إلى ضياع ، فقد وصلت حدود قشتالة إلى أجواز قرطبة ، وأصبح مصير بطليوس وإشبيلية فى الميزان ، وأطل ألفونسو على شرق الأندلس كله ، وتجرد للقضاء على إمارات الطوائف كلها ، وريع أهل الأندلس وقال شاعرهم عبد الله بن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟[٣]

الأندلسيون يستنجدون بالمرابطين :

وارتفعت الصيحة فى الأندلس ، وتحرك الفقهاء يرجفون بهول المصيبة ، وينذرون بالخطر الداهم . وكان أمر المرابطين قد استقام فى المغرب الأقصى

---

(١) ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢١٠ .

(٢) المقرى : « نفح الطيب » ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ .

(٣) المقرى : « نفح الطيب » ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

إذ ذاك ، فما زال الفقهاء يحضون أمراء الأندلس حتى جعلوهم يستنجدون بيوسف بن تاشفين ، فبادر بالعبور إلى الأندلس فى ربيع سنة ١٠٨٦ (٤٧٨هـ) ، وسار بجموعة للقاء ألفونس . وأدرك هذا خطورة الموقف ، فبعث يستدعى أنجاد فرسانه ويجمّع جنوده ، واستدعى القوة التى كان قد رصدها ببلنسية لحماية القادر بن ذى النون ، وكان يقودها فارس ليونى كبير يسمى Alvar Hanez تسميه المراجع العربية البَبْرهانس . وشعر القادر بعد انصراف حماته من النصارى ألا حول له ولا طول ، وبعث يستنجد ببنى هود . وهنا سنحت لرذريق الفرصة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل ، فاتفق مع المستعين بن هود على أن يستولى على بلنسية لحسابه على أن تكون الغنائم كلها له ، أى لرذريق . وبدلا من أن يسرع رذريق للوقوف إلى جنب إخوانه القشتاليين والليونيين فى معركتهم الفاصلة مع المرابطين ، فضل أن يغتنم بلنسية . ودارت معركة « الزلاقة » الحاسمة فى ١٥ رجب ٤٧٩ هـ . / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ بين قشتالة وليون من ناحية وجنود الأندلس والمرابطين من ناحية أخرى ، ومنى ألفونسو السادس بأقسى هزيمة عرفها فى حياته ، وقتل من فرسانه آلاف ، وعاد إلى طليطلة مهيض الجناح ؛ كل هذا ورذريق متكالب على بلنسية وكأنه لا يمت إلى إخوانه النصارى بسبب[1] .

بيد أن الكارثة هزت كيانه ، ولم يجد بداً من الإسراع إلى مَلِكه ومتبوعه القديم ألفونسو ، فذهب إليه وصالحه فى أواخر ١٠٨٦ ، فقبله وأقامه على رأس قوة قشتالية تقوم بمغازاة المسلمين فى شرق الأندلس ، فاختار أن يوجه نشاطه ناحية بلنسية وإقليمها . وهكذا عاد رذريق إلى هذا البلد المسكين يعمل لحساب سيد جديد هو ألفونسو السادس ، وهنا تبدأ فترة الأوج فى حياة هذا القائد الذى لا يكل ولا يقنع .

---

(١) المراجع عن موقعة الزلاقة كثيرة ، انظرها فى آخر مقال « الزلاقة » فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم ليفى پروفنسال ، وانظر :

C.F. Seybold, Die geographische Lage von Zallaka und Alarcos. Revue Hispanique, XV (1906), 647.

وأحيل القارىء إلى نص جديد مع بحث واف نشر فى مجلة الأندلس :

E. Lévi - Provençal, E. Garcia Gomez, J. Oliver Asin : Novedades sobre la batalla ilamada de al-Zallaka. Al-Andalus, XV (1950) fasc. 1, pp. 111-156.

رذريق مغامر يعمل لحسابه الخاص :

وهنا يبدو السيد فى صورة مروعة حقاً ، فقد مضى ينتسف ماوصل إليه من بلاد شرق الأندلس فى غير رحمة أو هوادة . ولم يقتصر على بلاد المسلمين بل تعداها إلى بلاد النصارى ، فأغار على نواحى إمارة برجلونة وأطلق جنوده فيها يحرقون ويخربون[١]، وخافه صغار أمراء المسلمين فى هذه الناحية ، فدفعت له سَهْلَةُ «بنى رزين» والبونت ومربيطر وشُبْرُبْ والمنارة الجزيةَ ، واتسعت ثروته وكثر جمعه ، ثم انقض على بلنسية وشدد الحصار حولها . وتسامع ألفونسو السادس بما يفعله هذا المارد فى شرق الأندلس ، فأسرع بقواته ليسبقه إلى بلنسية ، وكان ألفونسو قد دعا رذريق قبل ذلك للانضمام إليه ومعاونة النصارى فى الدفاع عن حصن لييط Alédo ضد المرابطين فى غرب الأندلس فلم يستمع له ، فغضب عليه ؛ ومن ثم فقد سار نحوه هذه المرة وهو مجمع القضاء عليه . وتحالف ألفونسو مع جماعات من بحارة الجنويين والبيشيين (أهل بيزا) فى الاستيلاء على البلد ، فلم يكن من السيد إلا أن أسرع بقواته إلى أرض قشتالة ومضى يخرب ويقتل وينهب ، فخرب مدائن نخره وقلهُره ولوجرونيو ، فاضطر ألفونسو إلى العودة إلى بلاده ، وعاد السيد إلى سرقسطة يحتمى فيها من جديد[٢] .

وكان السيد خلال ذلك كله يعتبر بلنسية ملكاً له ، يأخذ منها إتاوة قدرها مائة ألف مثقال من الذهب فى العام ويقوم بحماية القادر المنكوب . وكان إذا ترك بلنسية ترك فيها وكيلا له يسمى ابن الفرج ، كان لا يألو جهداً فى استخراج الأموال من الناس ، وقد ضج أهل بلنسية من عسفه وسئموا الطاعة لهذا القادر «ملكها المشئوم» ، كما يقول ابن عذارى ، وكان السيد قد شل يده عن كل شىء ، بل يقول ابن عذارى إنه خلعه وتركه جانباً[٣] .

---

(١) Dozy, Recherches, II. p. 115-116

(٢) ابن الكردبوس : «الاكتفاء فى أخبار الخلفاء» ، (مخطوط بمدرسة الدراسات العربية فى مدريد) ، قطعة نشرها دوزى :

Dozy, Recherches, II, appendice II, pp. XIX-XX.

(٣) ابن عذارى : «البيان المغرب» ، ج ٤ . قطعة نشرها ليڤى پروڤنسال فى مجلة «الأندلس» ، مجلد ١٣ (١٩٤٨) ج ١ ، ص ١٠٩ .

وكان المرابطون قد قرروا – بعد عبور يوسف بن تاشفين الثانى إلى الأندلس – أن يتلافوا أمر شرق الأندلس ، كما سدوا ثغر غربه بانتصار الزلاقة ، فوجهوا قائدهم محمد بن عائشة بقوة احتلت مرسية وجعلتها مركز أعمالها ، ولبثت ترقب الحوادث .

جعفر بن جحاف يتولى أمور بلنسية :

وتسامع أهل بلنسية بوجود القائد المرابطى فى مرسية على مقربة من بلنسية ، فأملوا مسيره إليهم ، وكتبوا إليه . ثم انتهزوا فرصة خروج السيد إلى سرقسطة ووثبوا على وكيله وعلى القادر معاً ، وكان يقودهم فى ذلك قاضيهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف وابن واجب صاحب الأحكام فى البلد . فعجل القادر بإرسال بعض عياله إلى حصون نفر من أصدقائه المجاورين لبلنسية ، وهرب بنفسه واختفى فى دار أحد أتباعه ، فبحث عنه ابن جحاف وقتله فى رمضان من ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ ، وطاف الناس برأسه على عصا فى شوارع البلدة[1] . ووصلت قوة مرابطية يقودها

---

(١) محمد بن علقمة : « البيان الواضح عن الملم الفادح » ، رواية ابن عذارى : « البيان » ، ج ٤ ، ص ١١٠ .

وابن علقمة هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن علقمة ، ولد سنة ٤٢٨/١٠٣٦ – ١٠٣٧ وتوفى ٥٠٩/١١١٦ . كان أديباً ناظماً ناثراً ، كتب عن بعض أمراء الطوائف فى عصره ، وقد كان فى بلنسية أثناء حصار السيد إياها واستيلائه عليها وكتب فى ذلك كتاباً فريداً يسمى « البيان الواضح عن الملم الفادح » ضاع أصله ، ولكن الذين ألفوا المدونة العامة الأولى (Primera Cronica General) ، التى نسميها هنا عادة « تاريخ إسپانيا العام » ، ترجموه إلى الإسپانية وضمنوه هذا التاريخ . وقد اكتشف ذلك رينهارت دوزى وبرهن عليه بدلالات من أسلوب الترجمة . ثم عثر ليڤى پروڤنسال على الجزء الرابع من ابن عذارى ووجد فيه فقرات كاملة من كتاب ابن علقمة ، فقام بمقارنة هذه الفقرات بالنص الإسپانى الموجود فى المدونة ، وانتهى إلى إثبات نظرية دوزى بصورة قاطعة :

Cf. : Dozy, Recherches, II. pp. 45-46.

Lévi-Provençal, La Toma de Valencia por el Cid. Al-Andalus XIII (1948) fasc. 1 . p. 99-102.

وانظر عن ابن علقمة : الضبى : « بغية الملتمس » ، (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٨٧) رقم ٥١٤ – حاجى خليفة : « كشف الظنون » ، (طبعة فلوجل) ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

Pons Boigues, Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géografos arabigo-espanoles (Madrid, 1898) nu. 140.

قائد يسمى ابن نصر ، فاعتز بها ابن جحاف وأصحابه . وتولى القاضى رياسة البلدة ، ويبدو أن الغرور ركبه بهذا التوفيق الذى وصل إليه ، فأظهر « أبهة الملك ، وطمح بصره إلى قضية القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، فما حسَّن النظر ولا ساعده القدر ، فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والزعماء ، والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء[1] » .

ولم تزودنا المراجع بقدر صالح من المعلومات عن جعفر بن جحاف ، ولكننا نفهم منها أنه كان من أسرة تكررت فى أفرادها ولاية القضاء ، فقد ولى جده جحاف بن يمن القضاء لعبد الرحمن الناصر واستشهد فى غزاة « الخندق » عام ٣٢٧ هـ . / ٩٣٨ [2] . وكان جعفر « آخر القضاة من بنى جحاف » ببلنسية ، وكان له جد آخر تولى القضاء ببلنسية أيضاً هو جعفر بن جحاف بن يمن المتوفى سنة ٣٧٦ هـ . / ٩٨٦[3] .

وواضح من كلام ابن علقمة أن العـُجب ملك جعفر بن جحاف بعد هذا الذى صنع ، وخيل إليه أنه يستطيع السير فى آثار أبى القاسم عباد القاضى الذى ملك إشبيلية وأنشأ لنفسه بها دولة بذكائه ودهائه ، ولكن ابن جحاف لم يكن مؤهلا لمثل هذا المطلب ، فأساء السياسة و « وقع فى هراش ، وتفرقت الظباء على خراش ، ودُفع إلى النظر فى أمور سلطانية لم يتقدم قبل [له شأن] فى غوامض حقائقها ، وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها ، ولا بالدخول فى ضنك مآزقها ، ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم ، وأن عقد ألوية البنود ، غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود » كما يقول ابن بسام[4] . ولم يلبث أن ملكه الزهو ، فشغل بمظاهر الرياسة عن تدبير أمور بلده ، وصدق فيه قول ابن خلدون : « إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها[5] » .

---

(١) ابن علقمة : المرجع السابق ، ص ١١١ .
(٢) الضبى : « بغية الملتمس » ، رقم ٦١٥ .
(٣) ابن الفرضى : « علماء الأندلس » ، رقم ٣١٧ .
(٤) ابن بسام : « الذخيرة » ، (« أبحاث » دوزى) ، ج ٢ ، ذيل ٢٢٢ ص ١١ .
(٥) « المقدمة » ، (طبعة القاهرة ١٩٣٠) ، فصل ٣٥ ، ص ٤٧٩ .

وكان من الطبيعي أن يغضب رذريق لما حدث ، ولكنه كان رجلا سياسياً بعيد الغور ، فكتب إلى ابن جحاف يهنئه بما فعل ويطلب إليه أزواداً له كانت مختزنة فى بلنسية ، فرفض ابن جحاف لأن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين « وتلك الأطعمة انتهبها رجاله[١] » . فكشف رذريق عن وجهه وأقبل يحاصر البلد ، وأقسم ألا يبرحه حتى يظفر بابن جحاف ، وتذرع بأنه يطلب ثأر القادر بن ذى النون ، واستجلب أمداداً كثيرة من الحصون المجاورة ، « واتصل الضرب منها إلى بلنسية فأضرّ بها وقتل من ظفر به من أهلها ، وكان معه جملة من رجال ابن ذى النون[٢] » . وأرسل المرابطون إلى بلنسية مدداً جديداً بلغ به عدد فرسان ابن جحاف ثلاثمائة ، فزاد وثوقاً من أمر نفسه ، وبدأت المناوشات بين رذريق وبين أهل بلنسية .

وأراد القاضى ابن جحاف أن يكون سياسياً ، فكان فى هذا حتفه ! أراد أن يخلص من المرابطين جملة ليستبد بالبلد وحده ، ولمح رذريق منه هذا الطمع ، فأكد له أنه معه فيه ، وأيده فى طرد المرابطين . وأحس أهل بلنسية بذلك ، فراجعوا قاضيهم فى الأمر ، ووقع الخلاف بينهم وبينه ، فسجن بعضهم ، وفيهم الأديب أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فكتب فى سجنه كتاباً يصف فيه الأمر لأحد أصحابه. وقد نشر ابن بسام هذا الخطاب فى « ذخيرته » ، فكان هذا الخطاب هو مفتاح معرفتنا لحياة رذريق وأعماله وكارثة بلنسية على يديه ، وقد نشر دوزى ذلك النص سنة ٨٤١ ، وكان الناس قبل ذلك يحسبون أن السيد شخصية أسطورية ، فلما نشر دوزى هذه القطعة من « الذخيرة » مع قطع أخرى من « الاكتفاء فى تاريخ الخلفاء » لابن الكردبوس ومن « الحلة السيراء » لابن الأبار ، أعاد الناس النظر فيما بين أيدينا من أخبار السيد فى « البريميرا كرونيكا خينيرال » وغيرها ، وكتب دوزى مقاله المشهور :

Le Cid d'aprês des nouveaux documents,

وانتقل السيد إلى ميدان التاريخ من ذلك الحين[٣] .

---

(١) ابن علقمة ، ص ١١١ .

(٢) ابن علقمة ، ص ١١١ .

(٣) *Cf.* : Dozy, Recherches, II. pp. 1 sqq

بدء محاولات المرابطين لنجدة بلنسية :

وفى سنة ٤٨٦ هـ . /١٠٩٣ م . استجاب المرابطون لنداء أهل بلنسية، وتحركت منهم جموع نحوها ، وأمر يوسف بن تاشفين رجاله وقواده بالتوجه إلى البلد ، فتجمعت جموعهم فى « شاطبة » لتسير منها إلى بلنسية . واستبشر أهل البلد وزاد دفاعهم عن بلدهم ، والسيد فى أثناء ذلك ينزل أشد أنواع التعذيب بمن عساه يقع فى يده من البلنسيين ، ويشدد الحصار عليهم حتى بدأت المجاعة تضُرُّ بهم . وكان — ككل أهل عصره — يؤمن بعيافة الطير ، وكان يقول لأصحابه إن طيوره تبشر بأن البلد له ، « يضيف إلى ذلك مخرفة من كذبه يقوى بها نفوس أصحابه[1] » ، كما يقول ابن علقمة ، فقال أحد أهل بلنسية ساخراً من رذريق وطيوره :

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا ... أو فقِّدوه إذا ما طيره زجرا

سيوف صنهاجة فى كل معترك ... تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

و « سيوف صنهاجة » إشارة إلى المرابطين الذين كان البلنسيون ينتظرون قدومهم من يوم لآخر .

وكان يقود القوات الذاهبة إلى بلنسية الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى ابن أخى يوسف بن تاشفين . وكانت جموعه عظيمة ، وكان مستطيعاً استنقاذ البلد وأهله لو أنه جد فى المسير ، ولكنه تلكأ لسبب غير معروف . وأدرك رذريق على أهل بلنسية غضب جعله يخرج عن المألوف فى حروب تلك الأيام ، وأرهب البلد وأهله رهبة شديدة تعجلا لتسليمهم ، وأدركه الخوف من مفاجأة المرابطين إياه فبعث يستنجد بألفونسو السادس . واقترب المرابطون من بلنسية وتراءت لأهلها طلائع الإنقاذ ، وهنا نفاجأ بأمر لا زلنا نبحث له عن تعليل دون جدوى : فإن أبا بكر بن إبراهيم اللمتونى لوى عنانه وهو بمرأى من البلد وعاد أدراجه نحو مرسية ! ولو أن يوسف بن تاشفين لم يكتب إليه بعد ذلك يؤنبه على ذلك التخاذل ، ويوجه إليه أقسى الألفاظ ، لعللنا انصرافه بأمر يوسف إياه ، ولكننا نجد يوسف يذهب فى

---

(١) ابن علقمة ، ص ١١٦ .

غضبه عليه إلى حد عزله عن ولايته . وكان تصرف القائد المرابطى على هذا النحو سبب ضياع بلنسية بعد ذلك[١]

رذريق يحاصر بلنسية :

ونستطيع أن نتصور شعور رذريق وهو يرى المرابطين ومن معهم يحجمون عن اللقاء على هذا النحو الغريب ، ونستطيع كذلك أن نتصور خيبة آمال البلنسيين وهم يرون أنفسهم يقعون بين يدى جلادهم ولا مهرب . وكان من الطبيعى أن يزداد كَلَب رذريق على البلد ، « فأقام يجبى الرعية ويوجه المغيرة ، ويمنع الدخول إلى المدينة ، ويعيث فى فل الفار عنها ، ومن تحرك من قريته أو شعر بحركته يستعبد أهله وولده ، فلم يقدم أحد على التحرك ، ولا حدث نفسه بالتحول[٢] » .

« وأيقن أهل بلنسية بالهلكة ، وغلب على الناس اليأس ، وضاقت النفوس ، وزاد حقد العدو وقسا قلبه ، وهلك أكثر الناس جوعاً وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر من المحلة فقئت عيناه أو قطعت يداه أو دقت ساقاه أو قتل ، فرضى الناس بالموت فى المدينة ، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً ، لانفساح مدة الحصار ، وتضاعف حقد العدو ، لصبرهم وطلبهم النصرة[٣] » .

---

(١) ابن علقمة : « البيان الواضح » ، ص ١١٢ — ١١٣ .

وقد جاء فى « المدونة العامة الأولى » أن القائد المرابطى كتب من دانية إلى بنى واجب فى بلنسية كتابا يعلل فيه انصرافه بقلة الأزواد معه وبهطول الأمطار وتدافع السيول مما جعل مسير الجيوش عسيراً ، فلم يكن له بد من العودة إلى مرسية ، ووعدهم فى الخطاب بأنه راجع إلى بلنسية لغوث أهلها فى القريب .

Cf. : Prim. Cron. Gen. pp. 575a-576b.

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقال ابن بسام : « وقوى طمع رذريق فى ملك بلنسية ، فلزمها ملازمة الغريم ، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ، [ومضى] ينتسف أقواتها ويقتل حماتها ، ويسوق إليها كل منية ، ويطلع عليها من كل ثنية . . . وبلغ الجهد بأهلها والامتحان ، أن أحلوا محرم الحيوان ، وأبو أحمد المذكور فى أنشوطة ما سهل وسنى ، وشرك ماجر على نفسه وجنى » . « أبحاث » دوزى ، ذيل ٢٢ ، ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

واستبسل أهل بلنسية استبسالا يعتبر مثالا عالياً فى الشهامة والحفاظ وبذل النفس فى سبيل حياض الوطن . وقد وصف لنا محمد بن علقمة فى كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح » أصناف ماقاسى أهل بلنسية من الأهوال أثناء هذا الحصار ، وصور لنا حالة بلنسية على صورة تفتت الأكباد[1]، ويكفى أن نقول إن تاريخ المسلمين لم يعرف حصاراً بلغ المحاصرين فيه مثل هذا الحد من الجهد والتلف دون أن يستسلموا ، وأن تاريخ الحروب لم يدون لقائد من القواد من القسوة وتحجر القلب والبعد عن الرحمة كما سجل لرذريق أثناء حصاره بلنسية . ومهما التمسنا له من الأعذار من ظروفه أو من روح العصر ، فإننا لا يمكننا أن نصف ما فعله ببلنسية وأهلها إلا أنه إجرام مروع رهيب .

---

(١) قال ابن علقمة (ص ١٢١ من « البيان الواضح ») :

« ومما امتحن به أهل بلنسية فى هذه السنة المؤرخة ، قال محمد بن علقمة : بلغ رطل القمح فى ربيع الأول بمثقال ونصف ، ورطل الشعير بمثقال ، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلى بستة دنانير ، ورطل الجلد البقرى بخمسة دراهم .

« وفى ربيع الثانى [الأول : ms] عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى فى عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت . وأعاد ابن جحاف استصراخ ابن هود ورغبه فى المال والبلد ، مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر .

« وانسلخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل إلى إدراك شىء من الموجود إلا أهل الجاه ، وترمق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بنى آدم . وهجم على نصرانى وقع فى الحفير ، فأخذ باليد ووزع لحمه .

وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

« ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير . وتوالى اليبس واستحكم الوباء ، وبينما الرجل يمشى ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رتبير . وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمائتى مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير وآخره باثنى عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالا » .

أحوال بلنسية أثناء الحصار :

وكان القاضي جعفر بن جحاف رئيس البلد يرقب ذلك فى جزع بالغ ، وقد أفلت الزمام من يده وتهاوت آماله فى قرب مجىء المرابطين لعونه ، وكان ليوسف بن تاشفين رأى طيب فيه ، وكان يرجو إنقاذ بلنسية من بلائها ، لولا كثرة مشاغله . وأراد القاضي التخفيف من شدة المجاعة ، « فأمر باقتحام الدور فحصا عن القوت » وعاد يستصرخ سليمان بن هود ، « ورغبه فى المال والبلد مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر »(١) ، فلم يجده ذلك كثيراً . وتحرج مركزه ، وكان قد ترك مقاليد الأمور لأصحابه بنى واجب ، ويبدو أنهم لم يكونوا أحسن منه تدبيراً(٢) ، فازداد مركزه ضعفاً ، وبدأ نفر من أهل البلد يتحدث فى التسليم ، وكان على رأس هؤلاء شيخ مسن من أجلاء أهل البلد ، هو أبو الوليد الوقشى(٣) ، ورجل آخر من أهلها يسمى ابن عبدوس .

كان أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد الكنانى – المعروف بالوقشى لأنه ولد ببلدة وَقّشْ – من كبار علماء عصره ، وكان قد ضرب فى كل معارف أهل عصره بسهم وافر ، وكانت سنه إذ ذاك تقارب الرابعة والسبعين لأنه ولد سنة ٤٠٨ هـ . / ١٠١٧ م ، وكان فى بلنسية أثناء حصارها . وتذكر « المدونة العامة الأولى » أنه لم يكن راضياً عن جعفر بن جحاف ، وأنه نصحه كثيراً بالاعتدال والتسليم ، وجرت بينهما مناقشات كثيرة ، والتف حوله نفر من أهل البلد ، فغضب عليهم ابن جحاف وأراد أذاهم(٤) ، فسعى فى الاتصال برذريق ، ويبدو أن هذا هو ما أشار إليه ابن بشكوال فى ترجمته للوقشى حينما قال : « وقد نسبت إليه أشياء الله أعلم بحقيقتها ، وسائله عنها ومجازيه

---

(١) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن علقمة : القطعة المترجمة فى Prim. Cron. Gen. 576a-579a.

(٣) R.M. Pidal, La Espana del Cid, II p. 493.

(٤) Op. cit. p. 493.

بها[1] » ، وكان من معارضى ابن جحاف كذلك الأديب المعروف أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فأودعه ابن جحاف السجن[2] على ما ذكرناه .

بيد أن طول الحصار وتوالى المحن أقنع جعفر بن جحاف بضرورة التسليم ، فبدا له أن يبعث لرذريق رسلا ليرى إذا كان من الممكن أن ينصرف عن البلد لقاء إتاوة كبيرة ، فاعترض على ذلك نفر ممن كانوا لا يزالون يؤملون فى مدد المرابطين — وفى مقدمتهم بنو واجب ورئيسهم أبو الحسن بن واجب ، صاحب الأحكام فى البلد — فعزله ابن جحاف عن الأحكام . وعاد الرسل يقولون إن رذريق يشترط إخراج بنى واجب من البلد قبل البدء فى أى تفاهم ، وأحس أبو الحسن بن واجب أن ابن جحاف يريد إخراجه ففر من بيته ، فأرسل ابن جحاف نفراً من الجند تعقبوه حتى عثروا عليه ، ثم أخرجوه مع أهل بيته وأنصاره أجمعين وأسلموهم لرذريق ورجاله فقتلوهم[3]. وبلغ ذلك المرابطين فتغيرت نفوسهم على ابن جحاف ، وأنكر أهل بلنسية منه ذلك ، فزاد مركزه سوءاً ، ولم يبق له إلا مخرج واحد من « الأنشوطة » ، كما يقول ابن بسام : هو أن يتفاهم مع رذريق على إسلام البلد له .

وسعى ابن جحاف فى استرضاء رذريق ، فطلب إليه هذا أن يسمح له بالنزول فى قصور كانت لابن عبد العزيز صاحب بلنسية الأسبق ، وكانت خارج البلد ، فنزل له ابن جحاف عنها . واحتوى عليها السيد ، فزاد غضب البلنسيين على رئيسهم ، وزاد غضبهم أن رذريق لم يذكر هذه اليد لابن جحاف ، فأمر رجاله بعد أيام بهدم القنطرة الجميلة التى كانت تقوم على نهر بلنسية ، وكانت من محاسن البلد ومواضع فخر أهله ، فهدمت بحجة منع المرابطين من استعمالها إذا قصدوا البلد . فاشتد حنق الناس على ابن جحاف ، وخافوا أن يسلمهم قاضيهم لعدوهم ، فتكلموا فى عزله ، فخافهم

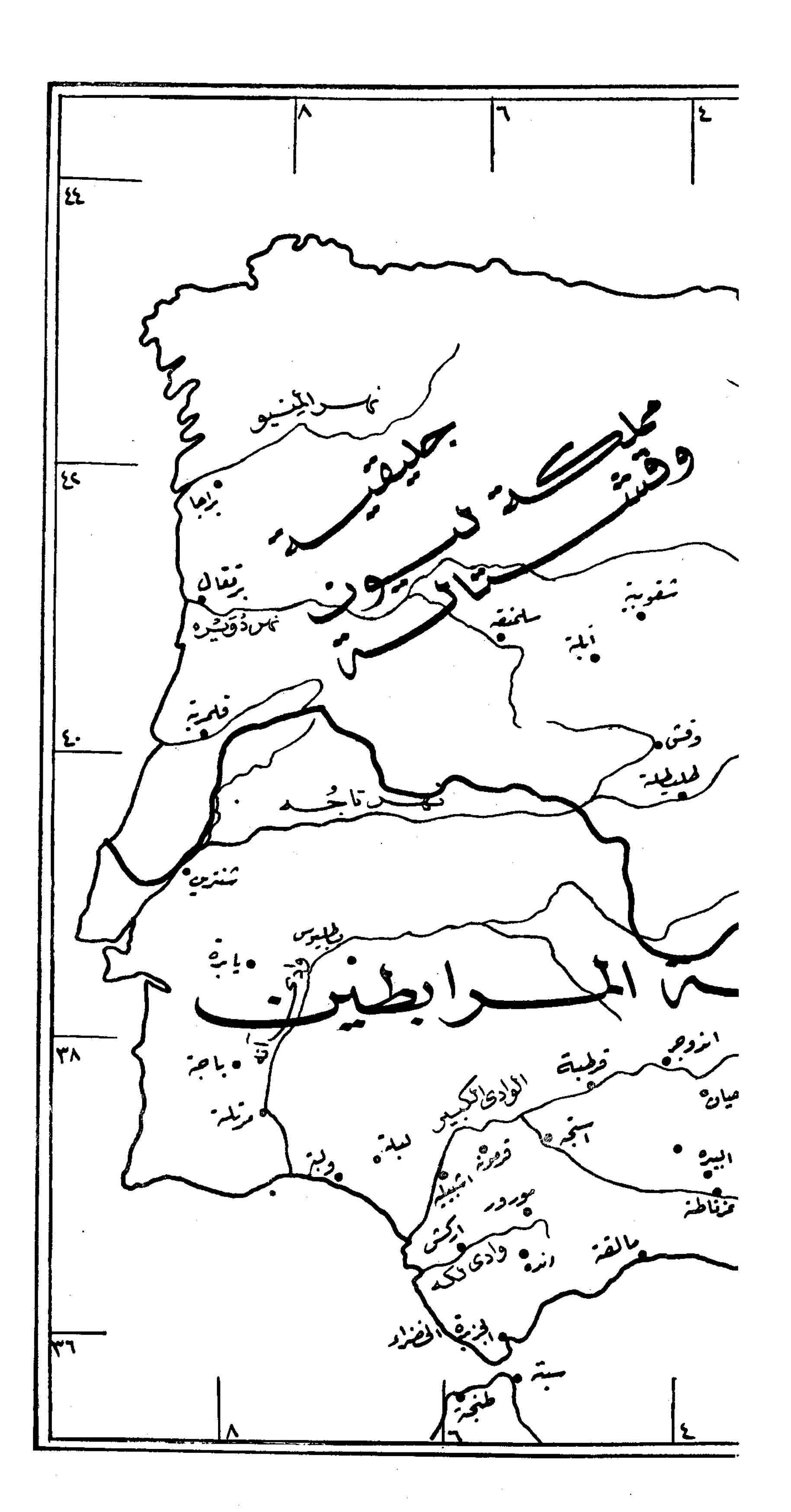
---

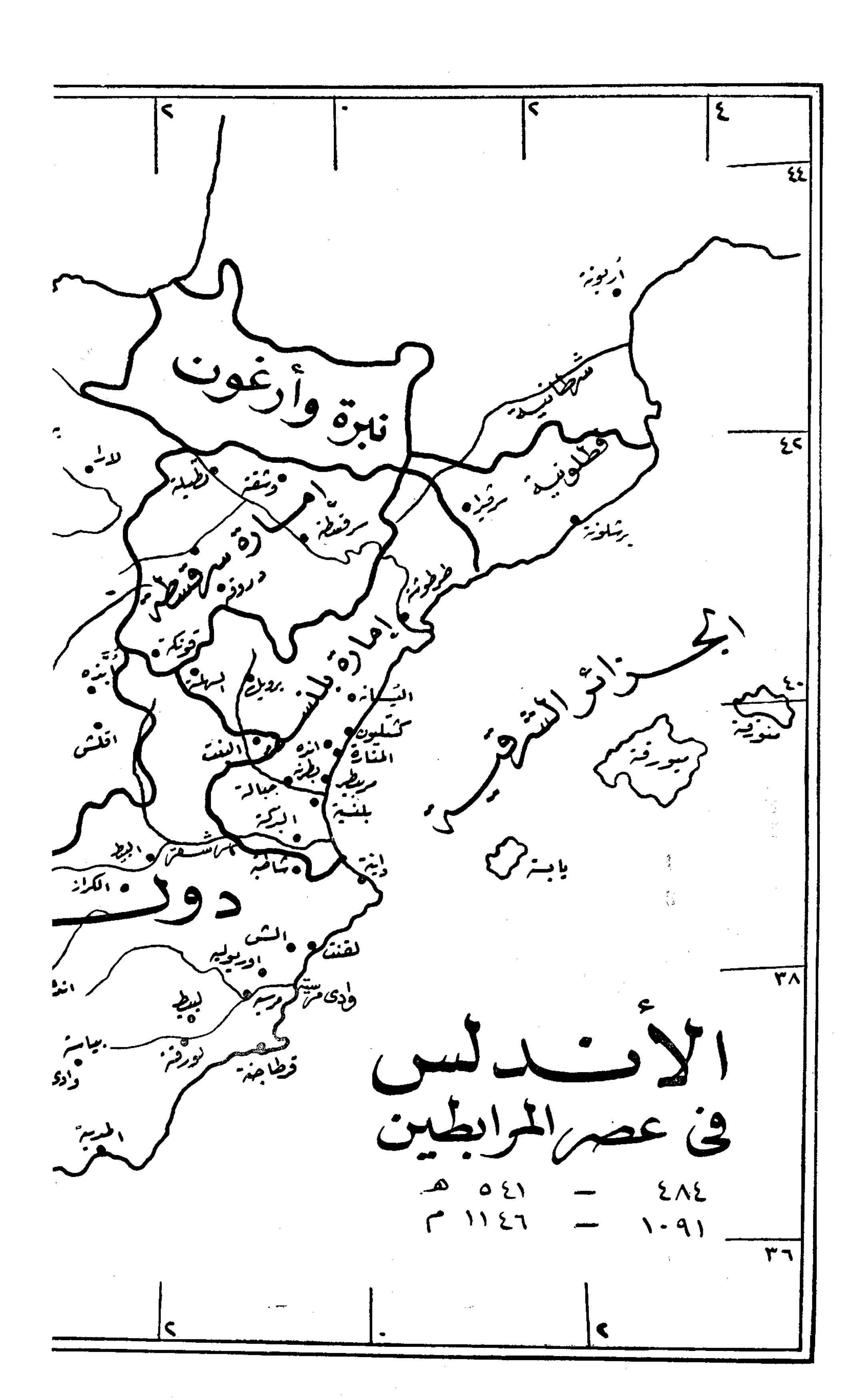
(١) الضبى : « بغية الملتمس » ، رقم ١٤٢٦ .

ابن بشكوال : « الصلة » ، رقم ١٣٢٣ . وقد توفى الوقشى بدانية يوم الاثنين ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ هـ .

(٢) انظر عن أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر : ابن خاقان : « القلائد » ، ص ٦٤ .

(٣) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. cap. 914, pp. 5836 sqq.





الأندلس
في عصر المرابطين
٤٨٤ — ٥٤١ هـ
١٠٩١ — ١١٤٦ م
نبرة وأرغون
إمارة سرقسطة
إمارة بلنسية
الجزائر الشرقية
قطلونية
أربونة
سرطانية
برشلونة
طرطوشة
سرقسطة
وشقة
تطيلة
دروقة
قونكة
البونت
اقليش
كشليون
المنارة
مربيطر
بلنسية
جبالة
شاطبة
دانية
ميورقة
منورقة
يابسة
لقنت
الش
اوريولة
مرسية
وادي مرسية
قرطاجنة
لورقة
المرية
٤٤
٤٢
٤٠
٣٨
٣٦



على نفسه ، وجعل يتعقب رؤوس الفتنة عليهم بالسجن والأذى[١].

وفى أثناء هذه المحنة القاسية نظم أبو الوليد الوقشى قصيدة طويلة يصف فيها مصاب بلنسية ، وقد ضمنها ابن علقمة كتابه الآنف الذكر ، وترجمها معاونو ألفونسو العاشر المعروف بالعالم فيما ترجموا من كتاب ابن علقمة ، وجعلوها ضمن نص « المدونة العامة الأولى » وزعموا أن الوقشى صعد على أسوار بلنسية وأنشدها . وقد أعجب بعض ناسخى « المدونة » بها وأراد أن يتعرف نصها العربى ، فلجأ إلى رجل يعرف بعض ألفاظ من العربية — يذهب بعضهم إلى أنه يهودى وبعضهم الآخر إلى أنه من أهل مراكش — فكتب تحت كل كلمة من ترجمتها الإسبانية لفظاً عربياً يقابله ، ورسمه بحروف لاتينية ، ولهذا وصلتنا بعض نسخ « المدونة » وهذه القصيدة مدونة فيها بهذا النص العربى مكتوباً بحروف لاتينية كلها تحريف وتصحيف ، ولا زال هذا النص الذى يعرف « بمرثية الوقشى لبلنسية » من المشاكل اللغوية التى تحير الباحثين[٢].

(١) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. p. 5736 sqq.

(٢) وردت الترجمة الإسبانية لمرثية الوقشى في : Prim. Cron. Gen. pp. 576a-579a.
أما ترجمتها الحرفية إلى العربية — مكتوبة بحروف لاتينية — فقد وردت فى ثلاث نسخ من « المدونة » نشرها منندذ پيدال :

Cf. : R.M. Pidal, Sobre Aluacaxi y la elegia árabe de Valencia. Homenaje a Codera (Madrid 1904) pp. 392-403.

وانظر رأى خليان ريبيرا فى المرثية فى نفس المصدر ، ص ٤٠٣ وما بعدها . وسأكتفى ببيت واحد من هذه المرثية كنموذج لهذا النص الغريب ، وسأضع بعد كل بيت نصه العربى كما رسمه ريبيرا وأتبعه بترجمة لما يقابله من الترجمة الإسبانية التى وردت فى المدونة :

1. Valencia Valencia gayt eleic quezra quebira
بلنسية بلنسية جاءت عليك كسرة كبيرة

Antafi hauch hantumunic fe ynquem yechtum
فى أنت وقت حانت موتك ف إن كان يكون ؟

Cagidach anteflet mejujede yecon agaban
(قدرلك) قدرك ؟ أن تفلت من ؟ هذا يكون عجباً

que bulimen yeric
لمن كبيراً ؟ يريك

بلنسية ، بلنسية ، توالت عليك ويلات كثيرة ، وقد حان حينك
فإذا قدر الله لك النجاة من هذا البلاء ، لكان ذلك أمراً عجيباً لمن يراك . =

وطال صمود البلنسيين للحصار ، وبلغ الغضب بالسيد مبلغاً جاوز به الحد فى القسوة على من ظفر به من المسلمين خارج البلد . قال ابن الكردبوس : « وانقطع إلى القنبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفسادهم وممن يعمل بأعمالهم خلق كثير ، وتسمى « بالدوائر » فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ويسلبون الأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ونبذ شريعة النبى (صلعم) إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية[1]» .

وأراد رذريق أن يتعجل تسليم البلد ، فمنع من يريد الخروج من مبارحتها حتى تزداد المجاعة إلى داخلها استحكاماً . قال ابن علقمة : « وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء ، فهان على الناس الإحراق بالنار . فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار[2] » .

ومن الغريب أن مؤرخ السيد « مننذ پيدال » تصدى للدفاع عن هذه الفظاعات كلها ، فزعم أنها من أساليب الحرب المشروعة ، ومضى يخبط خبطاً غريباً يأسف له كل منصف ، ثم زعم أن الذين كانوا يفعلون ذلك كله هم المسلمون من حلفاء السيد والعاملين فى معسكره وحدهم ، مما لا يؤيده فيه نص واحد من « المدونة » أو غيرها[3] .

رذريق يدخل بلنسية :

وأخيراً ، وبعد أن بلغ الجهد بالبلنسيين مداه ، وانقطع أملهم فى الغوث

= والقصيدة على درجة كبيرة من الأهمية لما فيها من وصف بلنسية وما كان فيها من جليل المبانى ، وما كان يحيط بها من سور عظيم ذى أبراج أيام سعدها. ، وما كان أهلها ينعمون به من رياض وخيرات ، وما كانوا يتمتعون به من الخروج إلى المنازه على ضفاف النهر وعند القنطرة .

(١) ابن الكردبوس : « الاكتفاء » ، فى « أبحاث » دوزى ، ج ٢ ، ذيل ٢٧ ، ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٣) R.M. Pidal, op. cit. pp. 507-508.

وانظر رأى دوزى فى ذلك كله فى ختام المقال .

من أية ناحية ، اتفقوا على التسليم ، وأخذ القاضى ابن جحاف على رذريق أوثق العهود ألا يؤذى أهل البلد فى أنفسهم وأموالهم . وفى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ . / مايو – يونيو ١٠٩٤ م . دخل السيد بلنسية ، واستهل أمره فيها استهلالا طيباً ، فجمع أهل البلد وخطب فيهم خطبة احتفظت لنا « البريميرا كرونيكا » بترجمتها الإسبانية – إذ الغالب أن السيد ألقاها بعربية أهل الأندلس – قال فيها : « إننى رجل لم يملك قبل ذلك مملكة أبداً ، ولم يكن ذلك لأحد من أسلافى ، ولكن اليوم الذى رأيت فيه هذه البلدة أعجبتنى ورغبت فيها ، وسألت الله أن يملكنى إياها ، وها أنتم ترون الآن قدرة الله الذى تفضل وأعطانى بلنسية . وعندما قدمت لحصار بلدة جباله Juballa لم أكن أملك إلا أربعة أرغفة من الخبز ، فأولانى الله من فضله ما ملكنى به بلنسية وجعلنى سيدها . فإذا أنا سرت بالعدل ومضيت بالأمور فى طريق حسن فسيتركها لى الله ، وأما إذا أنا ملكتنى الكبرياء والخسة وأسأت السيرة ، فأنا أعلم حق العلم أن الله سيسلبنى إياها . وعلى هذا فليرجع كل منكم إلى ما كان بيده وليمض فيه كما كان قبلا ، ومن وجد منكم حقله أو كرمه خالياً فليدخله ، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع لزارعه أجره وما أنفقه فيه وليستعد ملكه إياه على ما تقضى به شريعة الإسلام ، وعلى القائمين بجباية أموال البلد ألا يأخذوا من الناس أكثر من العشر ، كما تقضى به شريعتكم » . ثم قال بعد ذلك : « وقد قررت أن أقعد لسماع ظلاماتكم يومين فى الأسبوع : الاثنين والخميس ، وإذا وجد أحد منكم نفسه مظلوماً فليأتنى أى يوم أراد ، فسيجدنى سميعاً . ذلك لأننى لا أنفق وقتى مع النساء أو على الشراب وسماع الغناء كما يفعل أصحاب الأمر فيكم ، أولئك الذين لم تكونوا تستطيعون رؤيتهم إذا مست حاجتكم إلى ذلك : إننى أريد أن أسمع بنفسى أقضيتكم ، وأريد أن أكون لكم رفيقاً ، أحميكم كما يحمى الصديق صديقه والقريب قريبه ، أريد أن أكون قاضيكم الذى يفصل فى خصوماتكم ووزيركم الذى ينفذ الأحكام ، ومهما وقع بينكم من منازعات وخصومات فسأقضى بينكم بالحق » . واستطرد فى أشباه ذلك الكلام ، ثم عرج على ابن جحاف فقال : « وقد بلغنى أن ابن جحاف عدا على بعضكم وظلمه ، وأنه سلب بعضكم أمواله ليهديها إلىّ ، وأنه فعل مثل ذلك بمن كانوا يبيعون الخبز للناس بسعر فاحش

أثناء الحصار ، ولم أكن أنا راغباً فى أن تهدى إلىّ هذه الأموال ، ولو أردتها لأخذتها بنفسي دون أن ألجأ إليه فى تحصيلها ، لم أرغب فيها لأن الله لا يرضى أن أغصب أحداً ماله دون حق ، وهو يبارك لمن يحسن البيع ويعامل من معه بالحق . وعلى هذا ، فمن أخذ منه ابن جحاف شيئاً فليطالبه به ، وقد أمرت بأن يرد إليكم كل شيء ... هل رأيتم الأموال التى أخذتها من الرسل الذين ذهبوا إلى مرسية ؟ لقد كانت هذه الأموال حقاً لى ، فقد غنمتها عن حرب وفزت بها من قوم حنثوا فيما اتفقوا معى عليه ، ومع أننى أخذت هذا المال بوجه حق ، فإننى أمرت الآن بأن يرد إلى أصحابه إلى آخر درهم فلا يضيع عليهم منه كثير أو قليل » . ثم قال : « وإنى آمر بألا يؤسر مسلم أو مسلمة فى بلنسية ، وإذا خالف أحد ذلك فأطلقوا الأسير بالقوة واقتلوا آسره . . » . وقال بعد ذلك : « ولا أريد دخول بلدكم ولا المقام فيها ، وإنما سأتخذ لى عند « القنطرة » منزلا أقيم فيه إذا مست بى الضرورة إلى المقام[١] » .

وهذا الكلام من رذريق يدل على مهارة سياسية كبرى ، وعلى علم دقيق بأنظمة المسلمين . وقد ذهب مننذذ بيدال داعية السيد إلى أنه يدل على تأصل نوازع العدالة فى نفسه[٢] ، ولكننا سنرى بعد قليل أنه لن يفى للبلنسيين بشىء مما وعد ؛ ولكنه ، على أى حال ، كسب ود المسلمين من أهل بلنسية وأمن روعهم بهذا الكلام . ونلاحظ أنه أراد أن يثبت للبلنسيين أنه خير من أمراء الطوائف الذين يحتجبون عن الناس ، ولا يردون المظالم ، وينفقون أوقاتهم فى ملاذ أنفسهم . ودلت خطبته من أول الأمر على نيته نحو جعفر ابن جحاف ، فقد مهد بكلامه الطريق لاتهامه ، وزعم أنه لم يطلب إليه أموالا ، مع أنه كان يعتصره اعتصاراً ، وقد جاء معظم بلاء الرجل من اشتداده فى جمع الأموال ليؤديها إتاوات لرذريق حتى يرد طمعه ، وسيرى البلنسيون عما قريب أنه لم يكن صادقاً فى قوله إنه لم يكن طامعاً فى المال . وأما إشارته إلى

(١) ابن علقمة فى Prim. Cron. Gen. 588a-590a

وقد أورد لنا ابن علقمة معظم خطاب رذريق فى أهل بلنسية فى فصل كامل فى الصفحات المبينة أعلاه ، وعنوانه :

918. Capitulo de como el Çid entro en la noble cidat de Valencia et de muchas et muy nobles razones que ouo con los moros.

(٢) R. Menéndez Pidal, op. cit. II, p. 638.

رد أموال رسل مرسية فتدل على ذكاء ، لأن رسل مرسية كانوا رسل المرابطين ، فكأنما رمى رذريق من وراء ذلك إلى إفهام المرابطين وأنصارهم أنه يريد أن يصادقهم ويعيش معهم فى أمان ، ولم يكن صادقاً فى كذلك أيضا .

شرق الأندلس نهب للفوضى :

دخل رذريق بلنسية فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ . / فبراير ١٠٩٤ وقضى الفترة الأولى يمهد أمرها لنفسه ، وقد أحسن السيرة أول الأمر « فلم يعمل هو وأصحابه — لعنهم الله — ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال ، فانتشطت الأنفس من عقال ، وانبسطت الآمال وأمن الناس ، وهو مع ذلك يراعى أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة[١] » . أما منعه الناس من الخروج من المدينة ، فقد دفعه إليه خوفه من أن يتصلوا بالمرابطين ، ويدل كذلك على أنه كان ينظر إليهم كفريسة وقعت فى يده أو أسرى صاروا إليه

بهذا أصبح رذريق أميراً على بلد إسلامى ، ولسنا نجد تكييفاً لملكه إياها ، فهو نفسه لم يكن « دولة » لها كيان ونظام ، وإنما كان قائد جماعة من الجنود ، ولم يكن جنده هيئة لها كيان ، وإنما كانوا أخلاطاً من كل صنف ، فيهم القشتالى والليونى والمسلم والنصرانى . قال ابن الكردبوس فى وصف رجال رذريق : « وكان دخوله إياها (بلنسية) سنة ٤٨٧ . وفى هذه المدة انقطع إلى الكنبيطور وغيره ، من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفساقهم ، وممن يعمل بأعمالهم خلق كثير ، وتسمى « بالدوائر » ، فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ، ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ، ويسلبون النساء والأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ، ونبذ شريعة النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية[٢] » . وهذه ليست هيئة قوة محترمة تؤمن على أمور الناس ، ولم يكن رذريق كذلك داخلا فى نطاق دولة كبيرة يعمل لحسابها ، وإنما كان يعمل لحساب نفسه ،

---

(١) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(٢) ابن الكردبوس : « الاكتفاء » ، « أبحاث » دوزى ، جـ ٢ ، ذيل ٢٣ ، ص ٢١ .

ولهذا فنحن لا نجد تكييفاً صحيحاً له أو لنظامه الذى أقامه فى بلنسية وما حولها .

بيد أن شرق الأندلس كله كان قد صار إلى فوضى شاملة لا تجعل قيام رذريق فيه بهذا الدور أمراً غريباً ، فقد كان قد تقسم نواحيه طائفة كبيرة من صغار المستبدين ، اعتمد كل منهم على قطعة صغيرة من الفرسان وأقام لنفسه دويلة فى بلد أو حصن ، من أمثال تأييد الدولة صاحب لاردة ، وسيد الدولة صاحب طرطوشة ، وحسام الدولة صاحب شنت برية ، ونظام الدولة صاحب ألبونت ، وحسام الدولة بن رزين صاحب السهلة ، وابن طاهر صاحب مرسية[1] ، وكلهم عفاة نهازون فرضوا سلطانهم على نواحيهم . وأصدق تكييف لرذريق فى وضعه الجديد هو أنه أصبح أمير طوائف هو الآخر ، استبد بناحية بلنسية ، أميرا لطائفة نصرانية ، وهو فى ذاته أمر طريف فى ذلك العصر الحاوى لكل طريف غريب فى الأندلس . ولا يختلف مركز رذريق فى بلنسية عن مركز معن بن صمادح فى المرية ، أو مركز منذر بن يحيى التجيبى فى سرقسطة ، إلا أنه كان أقوى وأقدر . وكان رذريق يشعر بذلك ، ولذلك أحب أن يتقوى باجتذاب أهل بلنسية ناحيته حتى تقوى بذلك « طائفته » ، كما رأينا من خطابه .

ولم يكن بشرق الأندلس من الهيئات ذات الكيان الثابت إلا دولة بنى هود فى سرقسطة ونواحيها ، وقوة المرابطين فى مرسية وشاطبة ودانية وإمارة برشلونة النصرانية . فأما بنو هود ، فقد كانوا إمارة طوائف ذات قوة وكيان ، وقد أسعدها الحظ بثلاثة أمراء على جانب كبير من القدرة هم أحمد بن سليمان الملقب بالمقتدر بالله (٤٤١ / ١٠٥٠ — ٤٧٤ / ١٠٨١) الذى وحد الإمارة وعقد أحلافاً مع جيرانه النصارى ، مما أعان دولته على البقاء ، ويوسف ابنه الملقب بالمؤتمن (٤٧٤ / ١٠٨١ — ٤٧٦ / ١٠٨٣) وهو الذى لجأ إليه رذريق أول أمره فاستخدمه وانتفع بمواهبه ، إذ وجهه لحرب رامُن بيرنجوير الثانى كُنْد قطلونية ، وكان طامعاً فى سرقسطة ، فكسب له انتصار « المنارة » على هذا الكند القطلونى ، وقام بحمايته من مطامع ألفونسو السادس ؛ ثم أحمد بن يوسف المؤتمن ولقبه المستعين (٤٧٨ / ١٠٨٥ —

---

(١) ابن علقمة ، ص ١٢٥ .

٥٠١ / ١١٠٨) وكان أمهر الثلاثة وأقدرهم على الحفاظ على إمارته ، وقد استمر على مصانعة رذريق واستخدامه بين الحين والحين ، وتمكن من هزيمة قوات ألفونسو السادس أكثر من مرة بفضل حلفه مع هذا الفارس القشتالى ، وقد استمر هذا الحلف طوال أيام المستعين فسلمت إمارة سرقسطة من شره ، وتمكن المستعين كذلك من كسب ود يوسف بن تاشفين وتأييده ، فلم يعزله كما عزل غيره من أمراء الطوائف ، وكتب إليه خطاب أمان حفظته لنا المراجع[١]. وكان هم المستعين المحافظة على أراضيه ، فلم يفكر فى غوث بلنسية رغم استصراخ أهلها به ، لأن بلاءها كان على يد رذريق حليفه ونصيره[٢] .

أصل لفظ « السِّيد » :

وإلى خدمة رذريق الطويلة لبنى هود ترجع تسميته بالسِّيد ، لأن بنى هود أمروه على جيشهم ، فكان أفراده ينادونه « بيا سيدى » ، وقلدهم فى ذلك جنده من النصارى ، فصاروا يخاطبونه بميوثيد Mio Cid أى ياسيدى ، فلزمته هذه التسمية من ذلك الحين واشتهر بها فى التاريخ .

أما المرابطون فقد كان مركزهم قوياً فى الجزء الجنوبى من شرق الأندلس حتى مرسية ، وكانت أعظم مراكزهم شاطبة ودانية ، وكانوا يودون استنقاذ شرق الأندلس من السيد وغيره من عفاة قواد النصارى ، ولكنهم شغلوا عن ذلك بمدافعة ألفونسو السادس عن وسط الأندلس وغربه . بيد أن سقوط بلنسية فى يد السيد وأفاعيل رجاله فى نواحيها لم تلبث أن نبهتهم إلى سوء مصير شرق الأندلس إذا هم تركوه على حاله ، فوجهوا همهم كله هذه الناحية ، وأرسلوا القوات إلى مرسية تحت قيادة أبى بكر بن إبراهيم بن تافلويت أخى

---

(١) انظر : ابن الخطيب : « أعلام الأعلام » ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ . و « الحلل الموشية » ، ص ٦٠ .

(٢) انظر عن تاريخ سرقسطة فى ذلك العصر مقالنا « الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين» ، مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد ، مجلد ٧١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ٩١ وما يليها .

يوسف بن تاشفين لأمه ، وسيّروها نحو بلنسية جادين فى الأمر هذه المرة [١] .

وكانت الإشاعات قد طارت بأن ألفونسو سائر لعون السيد ، فحسبه المرابطون قد أتى بالفعل ، فوقع الرعب بين المقاتلين وتفرقت جموعهم فى كل ناحية ؛ وهكذا فشلت هذه المحاولة الثانية وتحولت إلى كارثة جديدة ، وكان ألفونسو قد انتهز الفرصة ناحية غرناطة ومضى يخرب فيها ، فعم البلاء [٢] .

رذريق ينقلب على أهل بلنسية :

وسخط السيد سخطاً شديداً على أهل بلنسية لفرحهم بمقدم المسلمين واشتراك كبارهم فى مكاتبة المرابطين . فأمر أهل البلد بأن يوافوه إلى القصر ، فذهبوا . وهناك خطبهم خطاباً يخالف كل ما كان قد قاله لهم فى خطابه الأول : لم يحدثهم بأنهم أهله وإخوانه ، بل قال إن إخوانه هم جنوده وحدهم ، وأنه لا يهتم إلا براحة أولئك الجنود ، ثم فاجأهم بأمر جديد : طالبهم بأن يسلموه ابن جحاف وأهله وكل من له ضلع مع المرابطين ، وكانوا كثيرين جداً ، فذهل الناس وعلموا أن السيد ينوى بهم كل شر . وأمر السيد ابن عبدوس — مشرفه على المدينة — بأن يأتيه بابن جحاف وأهله وكل من له به صلة .

وقد احتفظ لنا مصنفو « المدونة » بفقرات طوال من خطاب السيد هذا ، ووصفوا لنا ذعر البلنسيين بعد أن سمعوه [٣] ، وقد أوجز ذلك ابن عذارى فيما أوجز من كتاب ابن علقمة ، قال : «ثم رجع (السيد) إلى المدينة ، فمشى بَرِيحُه باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثم خرج عليهم ، ونظر إليهم ، وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم ، وأن ذلك ما أغنى عنهم . وجعل ينظر فى عطفه ، ويشمخ بأنفه ، ثم قال : « انظروا لى فى سبعمائة ألف مثقال وإلا هلكتم ، وأحلت السيوف عليكم » ، ثم خرج وبقى المسلمون فى القصر ،

---

(١) ابن أبى زرع : « روض القرطاس » ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. cap. 919, p. 590.

وأغلق عليهم الباب ، فصاروا فى سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخرست الألسنة[١] » .

وكان السيد قد أقام للبلد جابياً يسمى ابن الفرج من يهود بلنسية ، وكان يلقب بالوزير ، وكان معناه فى مصطلح الإدارة الأندلسية فى ذلك الحين عامل الخراج . وكان عنيفاً فى أساليبه مع أهل البلد من المسلمين ، ولكنه كان على أى حال يخفف من وطأة السيد عليهم . قال ابن عذارى بعد ذلك : « ثم رجع اليهودى وزيره إليهم وقال لهم : « لم أزل ألاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتى ألف مثقال ، فبادروا بتوزيعها ، وافدوا أنفسكم منه » فتُوُزِّع العدد على الأحوال ، واشتد ثقاف الأغنياء . وبلغ اليهودى — لعنه الله ! — من المسلمين مبلغ الغاية فى العذاب ، وسلط اليهود على الإسلام ؛ فبلغوا النهاية فى النكال والنكاية ، ومنهم الأمناء الموكلون ، والمتصرفون ، وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودى للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط ، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل غدو ، فإن جاء بشىء ، وإلا أخذ بالسوط والعذاب . وتمادت هذه المحنة مدة ، فلا قوة إلا بالله العلى العظيم[٢] » .

وفكر السيد فى حجة يتعلل بها لقتل جعفر بن جحاف وأصحابه ، وكان قد أودعهم السجن . وكان لأول دخوله البلد قد سأل ابن جحاف عن أموال القادر « واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها ، فأقسم بالله جهد أيمانه ، غافلا عما فى الغيب من بلائه وامتحانه ، وجعل رذريق بينه وبين القاضى المذكور عهداً أحضره الطائفتين ، وأشهد عليه أعلام الملتين ، إن هو انتهى بعدُ إليها ، وعثر عنده عليها ، ليستحلن إخفار ذممه ، وسفك دمه ، فلم ينشب رذريق أن ظهر على الذخيرة المذكورة لديه ، لما كان قد حم من إجراء محنته على يديه ، ولعلها كانت حيلة منه أدارها ، وداهية من دواهيه سددها وأثارها ، فأنحى على أمواله بالنهاب ، وعليه وعلى أهله بأنواع العذاب ، حتى بلغ جهده ، ويئس مما عنده[٣] » . وقد أكمل

---

(١) ابن علقمة : برواية ابن عذارى ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن علقمة ، برواية ابن عذارى ، ص ١٢٦ .

(٣) ابن بسام : « الذخيرة » ، « أبحاث » دوزى ، ذيل ٢٢ ، ص ١٣ .

لنا ابن علقمة بقية مأساة ابن جحاف وأهله على يد السيد التى تصل بنا إلى ذروة محنة هذا البلد التعيس على يد ذلك العفى ، قال : « فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً ، أمر بإضرام النار . وسيق القاضى أبو المطرف يرسف فى قيوده ، وأهله وبنوه حوله ، وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال لملأ من المسلمين : « ما جزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم ؟ » ، فصمتوا ؛ فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » ، وأمر به وبجملته إلى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم ، وتضرعوا إليه فى ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ، ولا علم بتلك الأمور عندهم ؛ فأسعف الرعية فى رغبتهم بعد جهد ومدة ، وترك النساء والصبية . وحفر للقاضى حفرة ، وأدخل فيها إلى حُجزْته ، وسوى التراب حوله ، وضمت النار إليه . فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ! » ثم ضمها إلى جسده . فاحترق ، رحمه الله تعالى ! »

« ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده فى طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاءً فى استمساك البلدة وإبقاء الكلمة »

« وعمد الطاغية — لعنه الله ! — بعد إحراق القاضى — رحمه الله ! — إلى الجلة من أهل بلنسية ، فثقفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم ، وجعل الناس فى المحنة اسوة ، يأخذهم على طبقاتهم . حتى عمتهم المحنة ، وهلك فى ذلك الثقاف كثير منهم ، رحمهم الله وجعلها كفارة لهم ![1] » .

وما نظن أن حوليات التاريخ تحوى أشنع من هذه الجناية ، فقد بلغ رذريق بها أبشع درجات القسوة وتحجر الفؤاد والبعد عن كل معنى إنسانى ، فلم تكن المسألة مجرد إعدام ذلك الشيخ ، بل التلذذ بتعذيبه وحرقه هو وعياله وأهله بالنار على صورة رهيبة تدل على أنه كان فى أعماق نفسه وحشاً ضارياً[2] ، كما قال دوزى . ومع ذلك ، فقد اجتهد مننذ پيدال فى تبرير هذا الفعل الذميم والقول بأن ابن جحاف يستحق هذا العقاب الشنيع ، وأن تصرف السيد على هذا النحو دليل على عدله وإنصافه ومعرفته بالقوانين وتطبيق القوانين[3] .

(١) ابن علقمة ، برواية ابن عذارى ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٢) Dozy, Recherches, II. p. 187.

(٣) R.M. Pidal, op. cit. pp. 553-668.

وعاش السيد بعد ذلك فى بلنسية عيشة أمير شرقى ذى حول : سكن القصر ، وكان – فيما يقول ابن بسام : « زعموا تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب ويتعجب ، وفى بلنسية يومئذ يقول ابن خفاجة :

عاثت بساحتك الظبى يا دار ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها : لا أنت أنت ولا الديار ديار[١]

عسف رذريق للبلنسيين :

واشتد أذى السيد لأهل بلنسية بعد ذلك ، حتى بان أن مصيرهم إلى الفناء على يديه ، وكان إحراقه ابن جحاف وأبى جعفر البتى ونفر من أهل بلنسية على هذا النحو الذى ذكرناه قد روع المسلمين جميعاً ونبه المرابطين إلى ضرورة استنقاذ البلد قبل أن يخرب تماماً ، وقد صدق مننذذ پيدال فى قوله : « إن ابن جحاف استطاع بعد موته أن يكون أشد ضرراً على السيد مما كان فى حياته ، فإنه أصبح بذلك شهيداً تؤجج روحه حوافز الثورة فى المسلمين حوله[٢]» . والواقع أن اشمئزاز الناس من هذه الجناية كان عظيما ، وتحول ابن جحاف فى اعتبارهم إلى « شهيد » مات على يد طاغية نصرانى ؛ حتى ابن طاهر نفسه ، ألد أعدائه ، ذلك الذى سجنه ابن جحاف وآذاه ، شعر بالألم لمصابه ، وكتب إلى ابن عم له يعزيه فيه ويطنب فى مدحه ويستنزل الرحمات عليه[٣].

واطمأن السيد إلى أمره بعد أن قضى على ابن جحاف وكل مناوئيه فى البلد ، وأخذ يفكر فى توسيع أملاكه ، وترامى بصره إلى الاستيلاء على أكبر الحصون المجاورة لبلنسية وهو حصن مُرْبِيطَر Murviedro ، بل إلى الاستيلاء على الأندلس كله ، وجعل يقول : « على يد رذريق فتحت هذه الجزيرة ،

---

(١) ابن بسام : « الذخيرة » ، « أبحاث » دوزى ، ج ٢ ، ذيل ٢٢ ، ص ١١٥ .
(٢) R.M. Pidal, op. cit. II. p. 554
(٣) ابن بسام : « الذخيرة » ، نفس المرجع ، ص ١٦ – ١٧ .

وردريق يستنقذها »(١). وعجل يوسف بن تاشفين بإرسال قوة اقتربت من بلنسية ، ولكن السيد تمكن من تشتيت شملها فى غير عسر(٢).

ثم عاد يوسف بن تاشفين فبعث محمد بن عائشة فى قوة كبيرة بلغت عدة رجالها ثلاثين ألفاً عسكرت عند شاطبة ، وعجل السيد فعقد حلفاً مع پدرو ملك أرغون سنة ١٠٩٤ وسارا معاً للقاء المرابطين . ووجد محمد بن عائشة أنه لن يستطيع لقاء هذه القوة ، ففضل الانسحاب من شاطبة ، وعسكر عند تل على مقربة من بلدة بَيْرِين Beiren ، وأراد السيد شحذ عزائم رجاله ، فجعل يتمشى بين صفوفهم يشجعهم ويؤكد لهم أن المسيح سيهبه النصر على المسلمين ، ثم حمل على المرابطين فشتت شمل جيشهم وغنم معسكرهم. وتشجع بعد ذلك وسار نحو مربيطر فحاصرها ، وعبثا حاول أهلها الاستنجاد بالمستعين بن هود والمرابطين ، بل بعثوا يستنجدون ألفونسو السادس وكند برشلونة ، فلم يسعفهم أحد . واستولى السيد على قصبة مربيطر فى ٢٤ يونيو ١٠٩٨ ، وأنشأ فيها كنيسة رسمها باسم القديس يوحنا . وكان السيد قبل استيلائه على البلد ، أذن أن يخرج من أهله من أراد الخروج ، ثم عاهدهم على ذلك قبل استسلامهم ، وأفلت منهم نفر . فلما استولى عليها فرض على من بقى منهم مالا جسيماً اجتهدوا فى جمع ما استطاعوا منه ، فلما أخذ المال أمر بأهل البلد فأخذوا أسارى جميعاً وسيقوا مكبلين إلى معسكره فى بلنسية(٣).

وعاد السيد بعد ذلك إلى بلنسية ليتم نقمته على أهلها ، فأمر بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة ، وأفرغ على تأثيثها أموالا جليلة واستدعى من فرنسا أسقفاً كلونياً هو Jerome de Périgord وأقامه أسقفاً لبلنسية(٤). وكان يحس دائماً أن المرابطين من ورائه ، فاجتهد فى تحصين البلد .

واستدعى زوجه خيمينا وبنتيه كريستينا وماريا وزوج البنتين لأميرين نصرانيين ، وأقام أعراساً فاقت فى بهجتها ونفقتها أعراس أمراء المسلمين .

---

(١) ابن بسام : نفس المصدر ، ص ١٤ .

(٢) Dozy, Recherches, II. p. 188

(٣) Dozy, Recherches, II. pp. 193-194.

(٤) Lévi-Provençal, Le Cid de l'histoire, dans : L'Islam d'Occident, p. 181.

وفاة رذريق :

وصمم المرابطون آخر الأمر على استعادة البلد ، وأخذت قواتهم تناوش قوات السيد ، وقتلوا ابنه Diego فى إحدى المعارك ، وكان دييجو فى التاسعة عشرة من عمره ، فهاضت الكارثة نفس أبيه المغامر الذى لم يعرف مرارة الألم قبل ذلك ، والتحم المرابطون فى معركة أخرى مع قوات نصرانية قرب قونكة وقتلوا الفارس البرهانس ، بل هزموا جيشاً للسيد نفسه على مقربة من جزيرة شقر Alcira ، وأراد السيد الانتقام ففاجأ حصن « المنارة » الإسلامى واستولى عليه .

وفى ظلال هزيمة « جزيرة شقر » وفجيعة ابنه مات السيد فى يوليو ١٠٩٩ بعد أن ظل سيد بلنسية خمس سنوات ، وأقبلت قوات المرابطين يقودها أعظم قوادهم محمد بن مزدَلى ، وشددت الحصار حول بلنسية . وحاولت « خيمينا » زوج السيد الدفاع عنها فلم تستطع ، وبعثت تستنجد بألفونسو السادس ، فأقبل ورأى قوات المرابطين وتبين ألا فائدة من قتالهم ، فنصح خيمينا بترك البلد ورجع إلى طليطلة . فلما تبين المحتلون قلة جدوى المقاومة أحرقوا البلد حتى جعلوه كومة رماد ثم خرجوا . ودخل محمد بن مزدلى البلد فى أوائل مايو ١١٠٢ ، وأخذ رجال السيد رفاته معهم ودفنوها فى دير San Pedro de Cardena واعتزلت خيمينا فى هذا الدير وعاشت بعد زوجها خمس عشرة سنة .

* * *

خاتمة :

تلك هى قصة السيد الكنبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، حارب فى صفوفهم وعاش معهم وخدمهم وعرف لغتهم ووجد عندهم المأوى أيام نفيه وتشريده ، ثم قسا عليهم ولم يدخر مع ذلك وسعاً فى إيذائهم وتخريب ديارهم وحرقهم بالنار حينما أمكنته الفرصة فيهم . وذلك فى ذاته أمر يبعث على العجب فى طبيعة ذلك الرجل الذى بدأ بعد موته بقرن يتحول فى نظر الإسبان إلى شخصية أسطورية تتمثل فيها أجمل صفات الإسبانى فى أحسن صورها . ونسج القصاصون والشعراء حول حياته أروع ملاحم البطولة الإسبانية وهى قصيدة السيد

El Poema de Mio Cid ، وجعله « پيير كورْنى » رمز الشرف والشهامة والواجب . وقضى أكبر علماء إسبانيا المعاصرين – رامون مننذذ پيدال – نحو عشرين سنة من حياته يتعبد فى محرابه ويجمع أخباره ، وأخرج فى سيرته أكبر عمل تاريخى ظهر فى إسبانيا خلال نصف القرن المنقضى وهو كتاب La Espana del Cid لم يدع فضيلة إلا نحله إياها ، وجعله جماع الخير كله ، والفضل كله ، والإنسانية كلها ، بل جعله طليعة العاملين على وحدة إسبانيا وبعثها ، وأزرى فى هذا السبيل بمعاصر للسيد فعل – من غير شك – أكثر مما فعل السيد فى سبيل إسبانيا النصرانية ، وهو ألفونسو السادس الذى يسمى فى النصوص العربية باسم ابن ردمير .

بيد أن مننذذ پيدال لم يستطع رغم هذا الجهد العظيم أن يمحو من أذهان الناس الصورة البشعة التى صور دوزى السيد بها فى مقاله الذى أشرنا إليه ، ولن يستطيع فيما أظن ، لأن الوقائع والشواهد أقوى من البلاغة والتكلف ، والتاريخ – بعد كل شىء – لا يبنى على العواطف . والمسألة – آخر الأمر – تتعلق بحوادث مضى عليها أكثر من عشرة قرون . وأختم هذا الكلام بعبارة طريفة لابن بسام فى السيد ، قال : « وكان هذا البائقة أوحد وقته فى دِرب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته – آية من آيات ربه إلى أن رماه سريعاً بحتفه ، وأماته ببلنسية حتف أنفه . وكان – لعنه الله – منصور العلم ، مظفرا على طوائف العجم ، لقى زعماءهم مراراً ، كغرسية المنبوز بالفم المعوج[1] ، ورئيس الإفرنج ، وابن ردمير ، ففل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير كثير عددهم ، وكان – زعموا – تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب منها ويتعجب[2] » .

* * *

---

(١) كان غرسية هذا يوصف بهذا الوصف فى اللغة الإسبانية أيضاً : Bocatuerte

(٢) ابن بسام : « الذخيرة » ، نفس المرجع ، ص ١٤ .

هذا هو المكان الذى يحتله السيد القمبيطور فى تاريخ إسبانيا السياسى وهو — فى واقع الأمر ، ومهما ترخصنا فى التعظيم من شأنه — دور صغير لم يكن له أثر ظاهر فيما تلا ذلك من أحداث التاريخ الإسبانى . ولكن السيد يحتل من نفوس الإسبان ، رغم ذلك ، مكاناً لا تدانيه فيه شخصية أخرى : فهو « البطل القومى » ، وهو رمز الرجولة والبطولة والشهامة عند الإسبان .

وقد بدأ السيد يأخذ هذه الهيئة البطلية الأسطورية بعد وفاته بقليل ، فقد أحدثت أعماله ومغامراته دوياً بعيد المدى فى نفوس الإسبان ، وأعان على ذلك أنه ظهر فى فترة الصراع بين قشتالة وليون على السيادة فى أيبريا ، وتزعم القشتاليين ضد الليونيين . ثم إن أسطورته تكونت بعد ذلك فى فترة بلغ فيها النفوذ الغالى (نسبة إلى غالة ، وهى فرنسا) أقصاه فى إسبانيا عن طريق الفرسان الفرنسيين والرهبان الكلونيين ، الذين كان ملوك إسبانيا يستعينون بهم ويطلقون يدهم فى كل شىء . هذا ، فضلا عما بسطناه من كفاحه مع المسلمين كفاحاً قومياً دينياً يثير حماس الإسبان . فتجمعت هذه العواطف كلها حول شخص السيد ، ومضى القصاصون والمنشدون ينشئون حوله الأقاصيص والأشعار ، يصورون بها صراع القشتاليين لليونيين وامتيازهم عليهم ، ويصورون فيها تفوق الإسبان على الفرنسيين وظهورهم عليهم فى ميادين الحرب والنزال ، ويصورون بها نزوع إسبان ذلك العصر إلى الحد من سلطان ملوك ليون واستنكارهم للسلطان الفرنسى الكلونى الذى كانوا يشجعونه .

من هنا تكوّن — مع الزمن — ذلك الديوان الضخم من الأناشيد والقصائد والملاحم التى تدور حول شخصُ السيد ، وأهم ما فيه « قصيدة سيدى El Pœma de Mio Cid » وهى ملحمة كبيرة ظهرت بعد « ملحمة رولان » بأربعين سنة ، وتشبهها من نواح كثيرة : فكلتاهما أنشودة أعمال ووقائع Chanson de Geste ، وكلتاهما من الشعر القصصى الشعبى الطويل النفس ، وهما تقفان — جنباً إلى جنب — مع أروع ما لدينا من الملاحم القصصية الكبرى ، كالنيبلونجن ، والبيووُلف ، و « موت آرثر » ، والشهنامة ؛ وكلها « دواوين شعوب » نسجت

حوادثها وأبياتها أحاسيس الأمم وهى فى مداخل الصبوة والتطلع إلى المغامرات وعظائم الأمور .

* * *

وقد كتب قصيدة السيد شاعر إسبانى مجهول الاسم ؛ ولا بد أنه قرأ « ملحمة رولان » وغيرها من « أناشيد الأعمال » الفرنسية واتجهت همته إلى إنشاء قصيدة على غرارها . وقد وجد بين يديه أخباراً كثيرة عن صراع قشتالة مع ليون وما وقع من الحروب بين الفرسان والملوك ، وكلها أخبار منثورة ولكنها شاعرية الروح ، بعضها قصصى صرف مثل قصة برناردو دل كاربيو Bernardo del Carpio ،وبعضها يدور حول وقائع تاريخية صحيحة ، وقد وصل إلينا الكثير منها فيما بقى لنا من مدونات التاريخ الإسبانى ، (انظر فهرس المراجع) .

ويغلب على الظن أن ناظم هذه الملحمة رجل مستعرب من بلدة « مدينة سالم Medinaceli » ، على الحدود بين مملكة قشتالة وإمارة سرقسطة الإسلامية إذ ذاك ، وقد فرغ منها عام ١١٤٠ م . ، أى بعد وفاة السيد بأربعين عاماً . وهى تشبه « ملحمة رولان » من حيث الصياغة والقالب ، فهى تتألف من أبيات طوال فى كل بيت منها نحو أربعة عشر مقطعاً ، وكل بيت مشطور إلى مصراعين ، والقصيدة كلها مرسلة على هيئة فقرات ، كل فقرة منها على قافية واحدة ، والفقرات غير متساوية الطول . والملحمة كلها تتناول فترات مختلفة من حياة السيد تبدأ من أيام صباه Mocedades del Cid وتنتهى فى أواخر أيامه ، وتدور حول وقائعه مع صهريه فتيى الكريون Los Infantes del Carrion

وقد أثبت رامن مننذ پيدال أن « قصيدة السيد » تساير الوقائع التاريخية فى معظم الأحوال ، وأن القصاص لم يبالغ إلا فى الحالات التى راقت خياله الشاعرى ، كهذه التفاصيل الكثيرة التى ترد عن بنتى السيد وما وقع لهما مع زوجيهما ، وذلك الإسهاب الذى وصف به حصار سمورة ومقتل الملك شانجة ، وما إلى ذلك .

والقصيدة تصور السيد بطلا محارباً شجاعاً ، مدار حياته الحصول على الممتلكات « Averes » ، ويراد بها فى القصيدة الأموال والأراضى ، والقصاص

هنا أقرب إلى حقيقة السيد من الاتجاه الحديث فى الترجمة له عند الإسبان المعاصرين . ولا يغلب على القصيدة الطابع الدينى كما ترى فى ملحمة رولان ، فهى لا تدور حول الحرب مع المسلمين ، ولا يصور المسلمون فيها أشراراً أشقياء، بل مدار الحديث الصراع بين القشتاليين والليونيين وحروب السيد مع أكناد برشلونة . وهذا لا يمنعنا من القول بأن القصيدة تصور السيد مسيحياً صادقاً مخلصاً . وروح القصيدة معتدل رزين ، والسيد يصور فيها رجلا عادياً يمتاز عن غيره بمزيد من فضائل الشجاعة والذكاء واليقظة والشرف ، وقد رمى القصاص من وراء رسمه على هذا النحو، إلى تصوير الصراع بين أوساط الناس الذين قامت على أكتافهم إمارة قشتالة ، مع الأغنياء والنبلاء الذين كانوا يؤيدون ليون . والمعروف أن هذه الروح القشتالية، هى التى انتصرت وسادت إسبانيا وتولت الكفاح الحقيقى مع المسلمين فيما بعد ، وقد أبدع مننذذ پيدال فى تصوير هذه الناحية فى كتابه عن السيد ، وعرف كيف يصور انتقال مركز التوازن فى أيبريا من إسبانيا الغربية الأطلسية La Espana Atlantica (جليقية وأشتريس وليون)إلى إسبانيا الشرقيةالمتوسطيةLa Espana Mediterranea وبيّن كيف كان هذا الانتقال هو الخطوة الحاسمة فى توحيد إسبانيا وميلادها من جديد . والقصيدة تصور شعباً أفضل بكثير مما تصوره قصيدة رولان ، والفضائل التى تنص عليها إنسانية أقرب إلى روح العدالة والمساواة مما نرى فى الملاحم الفرنسية المعاصرة لها ، وهى تعتبر — من هذه الناحية — وثيقة هامة من وثائق التاريخ الإسبانى .

* * *

وتعطينا « القصيدة » عن حياة فارس بيڤار صورة تختلف عن صورته فى التاريخ من نواح وتتفق معها فى نواح أخرى . وإليك ما تعرضه من جوانب حياته للمقارنة بما أسلفنا من ترجمته :

تبدأ القصة بمشهد خروج السيد إلى المنفى بعد اختلافه مع الملك نتيجة للوشايات التى ألقاها بينهما الكند غرسية أرْدُنييذ ، وهى تصف كيف أودع السيد زوجه وبنتيه أحد الأديرة وابتهل إلى الله أن ينسأ فى أجله حتى يزوج هاتين البنتين زواجاً صالحاً ويقضى السنوات الأخيرة من عمره فى سلام عائلى .

ثم يتزود بشيء من المال حصل عليه من يهوديين بُرْغُشيين بحيلة بارعة ، ويبرح أرض قشتالة يحيط به لمة من فرسانه لا يجاوز عددها الثلاثمائة ، وقصد أمير سرقسطة المسلم ، وعبأ فرسانه ومن انضم إليه من المغامرين على هيئة « رِدْفة » من المقاتلين mesnada ، ومضى ينوش بلاد جيرانه وينزل بهم الهزيمة بعد الهزيمة ، وتوالت انتصاراته على أكناد برشلونه النصارى بصفة خاصة .

وتضخمت ردفته وعظمت قواه ، فلم يلبث أن استغلب بلنسية وانتزعها من أيدى أصحابها المسلمين ، ثم يستقدم زوجه خيمانة Ximena وبنتيه ليقمن معه فى البلد الذى فتحه وأمَّر نفسه عليه . ويلتقى فى أثناء ذلك بجيش يقوده « يوسف » أمير المرابطين وينتصر عليه انتصاراً عظيما . وعلى إثر هذه الانتصارات رضى الملك ألفونسو عن السيد ، وصفح عنه وعرض أن يختار لبنتى السيد زوجين من أبناء البيوت الغنية ricoshombres ، واختار فتيين شقيقين هما ولدا كُنْدْ الكريون ، وكانا من أقارب غرسية أوردونييذ خصم السيد ، ولكنهما رضيا بالزواج من بنتيه طمعاً فى مالها . وتم الزواج فى بلنسية وأقام الفتيان فيها ، ولكنهما ظلا يتعاليان على زوجيهما ويلمزانهما بأصلهما المتواضع ، فوقع البغض والنفور بين السيد وصهريه ، ثم حدث أن انهزما فى قتال مع نفر من المسلمين انهزاماً قبيحاً ، فازدراهما رجال السيد ، فتغيرت نفساهما وامتلأتا بالحقد وأضمرا الانتقام ، وأعلنا أنهما مزمعان العودة إلى قشتالة بزوجيهما ، ومضيا بهما ، حتى إذا بلغا غابة بلوط عند قرية كوربس Corpes فى قشتالة انهالا على زوجيهما ضرباً وسلباهما كل ما كان معهما وتركاهما فى الغابة ووليا هاربين . وشكا السيد إلى ألفونسو ما فعل الفتيان ببنتيه ، فعقد ألفونسو محكمة لسماع الشكوى ، وطلب السيد أن يرد الفتيان إليه سيفين قيمين كانا قد سرقاهما ، فأجابته المحكمة إلى ما أراد ؛ ثم طلب رد بائنتى بنتيه ، فأجابه القضاة إلى ذلك أيضاً ؛ ثم طلب أن تأذن له المحكمة فى الانتصاف لشرفه بمبارزة الفتيين ، حسبما تقضى عادات القوط الغربيين القديمة ، فطال الأخذ والرد حول هذا الطلب . وفى أثناء ذلك أقبل رسل من لدن ملكى نبره وأرغون يخطبان بنتى السيد لابنيهما ، فأجابهم ألفونسو إلى ما طلبوا . ثم تثور المبارزات وينهزم الفتيان انهزاماً مخزياً ، وعلى صليل السيوف تنتهى تلك الملحمة القصصية الطويلة .

* * *

أما من الناحية الأدبية ، فتتسم القصيدة بعنف وجفاف وبعد عن المحسنات والتزام للطابع الواقعي ، وهي – من هذه الناحية – تقل عن ملحمة رولان ، بل إنها تستعير من تلك الملحمة الفرنسية الكثير من الفقرات التصويرية التي تحتاج إلى خيال بعيد، غير أن ناظمها وفق – رغم ذلك – إلى ضرب آخر من الجمال لم يوفق فيه تورولد Turold ناظم ملحمة رولان . والسيد يصور لنا في معامع المعارك رجلا أيداً يتوسط رجاله والدم يسيل على ذراعه دون أن يحفل له ، وقد غطى وجهه بمغفر من الزرد almofar ، فإذا حمي الوطيس نزع مغفره عن رأسه وأشار إشارة الهجوم ، وما هي إلا جولة حتى يكون النصر المؤزر . ومن أمثلة هذه الفقرة التي تصور جانباً من معركة أبدع تصوير :

Embraçan los escudos — delant los coraçones
abaxan los lancas — abueltas de los pendones
enclinaron las caras — de suso de los arzones
iban los ferir — de fuertes coraçones.
A grandes voces llama — el que en buen ora nacio :
"Feridlos caballeros — por amor del Criador !
Yo so Roy Diaz, el Cid de Bivar Campeador !"

وترجمتها :

أمسكوا بدروعهم — وجعلوها دون قلوبهم
وخفضوا حرابهم — المدلاة بالحمائل
ومالوا بوجوههم — على سروجهم
واستعدوا ليضربوا — بقلوب قوية
وفي صوت عال نادى — ذلك الذي ولد في ساعة سعد
[وقال :] اضربوهم أيها الفرسان — حباً في الخالق
أنا روى دياذ السيد — مقاتل بيڤار

وأجمل ما في القصيدة – كما قلنا – هو تصوير نفور صغار الناس من

الاستبداد ورغبتهم فى الخلاص منه . والسيد — هنا — يصور لنا نزوعاً اجتماعياً .
وما ألطف قول صاحب القصيدة ، عقب ذكره لنفى السيد من بلاط ألفونسو :

Dios que buen vasallo, si oviesse buen sonor

يا إلهى ! ماكان أعظمه من تابع لو أنه وجـــد سيداً حسناً

وهذا البيت يكاد يوجز فكرة القصيدة كلها ، بالضبط كما أوجز تورولد فكرة ملحمة رولان بقوله :

Paien unt tort e chrestiens unt dreit

الكفار على ضـــلال والنصـــارى على صواب

المراجع

مراجع عربية :

ابن الأبار القضاعي ، أبو عبد الله : « الحلة السيراء » — نشر دوزى القطعة الخاصة بابن طاهر — ومنها الكلام على السيد — فى « أبحاثه » ج ٢ ، ملحق ٢ ، ص ٢٧ — ٢٩ .

— « التكملة » — طبعة مدريد ١٨٨٧. انظر الترجمة رقم ٥١٤ ، ص١٤٦.

ابن بسام ، أبو الحسن على الشنتريني : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » قطعة كبيرة عن السيد ، جعلها ابن بسام ضمن مادته عن ابن طاهر فى القسم الرابع الخاص بشرق الأندلس . وقد كتب ابن بسام هذه القطعة فى إشبيلية سنة ٥٠٣ — ١١٠٩ ، أى بعد وفاة السيد بعشر سنوات فقط ، وهى لهذا من أهم ما لدينا عنه ؛ وقد نشرها دوزى فى « أبحاثه » :
DOZY, *Récherches*, II. opp. I pp. IV — XVIII.
مع ترجمة فرنسية وتعليقات ضافية

السيوطى : « بغية الوعاة » — انظر : ترجمة أحمد بن عبد المولى البلنسى البتى ، أبى جعفر .

الضبى : « بغية الملتمس » طبعة كوديرا ، مدريد. انظر مادة أحمد بن عبدالمولى البتى ، أبى جعفر .

ابن عبد الملك المراكشى : « كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » . مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، نشر دوزى القطعة الخاصة بابن علقمة وكتابه فى « أبحاثه » ، ج ٢ ملحق ٥ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

ابن عذارى المراكشى ، أبو العباس : « البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » — ج ٣ ، نشره ليفى پروفنسال سنة ١٩٣٠ . ثم عثر بعد ذلك على « البيان المغرب » كاملا ، ووجد فى الجزء الرابع كلاماً كثيراً عن

السيد اعتمد المؤلف فيه على كتاب ابن علقمة ، فنشر منه قطعاً فى مقال عن « استيلاء السيد على بلنسية » فى مجلة الأندلس . (انظر فى المراجع الإفرنجية تحت اسم ليڤى پروڤنسال)

ابن علقمة ، أبو عبد الله محمد بن خلف : (١٠٣٦/٤٢٨ — ١١١٦/٥٠٩) « البيان الواضح عن الملم الفادح » — ضاع أصل هذا الكتاب ، ووجدنا قطعاً منه فى جزء جديد من « البيان المغرب » لابن عذارى ، (انظر هذا المرجع) ، ووُجدت قطع كبيرة منه مترجمة إلى الإسبانية فى « المدونة العامة الأولى Pr. Cr. Gen. » (انظرها فى المراجع الإفرنجية) ، وعنها نقل راهب دير القديس پدرو فى كاردينيا قطعاً أدخلها مدونته التى نشرها خوان ڤيلورادو وجعلها ضمن كتابه المسمى Cronica del Cid ، وهذا الكتاب هو الذى يسمى الآن « المدونة الخاصة بالسيد Cronica particular del Cid » انظر المراجع الإفرنجية تحت ليڤى پروڤنسال .

ابن الكردبوس : « الاكتفاء فى أخبار الخلفاء » — مخطوط بمدرسة الدراسات العربية بمدريد ، ونشر القطعة الخاصة بالسيد منه دوزى فى « أبحاثه » ، ج ٢ ملحق ٢ ، ص ١٨ — ٢٢ .

المقرى ، أحمد بن محمد : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » طبعة لايدن ١٨٥٦ — ١٨٦١ ، انظر الفهرس .

مراجع غير عربية :

ASCHBACH : *De Cidi historiae fontibus.* Bonnae, 1843.

BRIZ, FRAY JUAN : *Historia de San Juan de la Pena.* Zaragoza, 1620.

CIROT, G. *Le vrai Cid* apud *Bulletin Hispanique*, XLI (1939).

DOZY, REINHART : *Le Cid d'après des nouveaux textes. dans Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen-âge.* (3°éd. Layade 1881) vol. II. pp. 1-243, et les appendices I-VI.

FRANCISCO DE BERGANZA : *Antigüedades de Espana.* 1719.

Gesta de Roderici Campidocti (= *Carmen latina*)
cf : R.M. Pidal, op. cit. II pp. 915 *Sqq.*

Historia Roderici. cf : Risco, Espana Sagrada, XXXV. Madrid 1786
— R.M. PIDAL, *Espana del Cid,* II. pp. 901 *Sqq.*

HUBER : *Gesch. des Cid,* 1829.

HURTADO, JUAN — J. DE LA SERNA — ANGEL GONZALEZ PALENCIA : *Historia de la literatura Espanola* (6ªed.) Madrid 1949.

LEVI-PROVENCAL, E. : *Observations sur le texte du Bayan d'Ibn 'Idari apud Mélanges Gaudefroy — Demombynes* (Le Caire 1937) pp. 241 *Sq.*

— *La toma de Valencia por el Cid apud Al-Andalus.* vol. XIII, fasc. 1, 1948.

— *Le Cid de l'histoire* apud *Islam d'Occident* (Paris 1948) pp. 154-185.

MASDEU : *Historia critica de Espana y de la cultura espanola.* t. XX, 1805

MENÉNDEZ PELAYO : *Antologia de pœtas liricos,* tomo XI, 1903.

MULLER, JOHAN : *Der Cid nach den Quellen.* Frankfurt a. Main, 1805.

EL POEMA DE MIO CID ed. R.M. PIDAL. 2e. ed. Madrid 1948.

PRIMERA CRONICA GENERAL.
أمر بتأليفها ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، ونشرها رامون منندذ پيدال فى مدريد ١٩٠٦ .

PRUDENCIO DE SANDOVAL : *Historia de los cinco reyes.* Pamplona 1615.

PUYOL, JULIO : *El Cid de Dozy* in Revue Hispanique. XXII, 1910.

QUINTANA : *Vidas de Espanoles Célebres.* 1833.

R. AMADOR DE LOS RIOS : *Burgos.* 1888.

RAMON MENEDEZ PIDAL : *La Espana del Cid.* Madrid 1948.

— *La politica y la reconquista en el siglo XI* (*Examen de los ultimos escritos referentes al Cid*) in Revista de estudios politicos. No. 35-36 vol. XIX.

RISCO : *La Castilla y el mas famoso castillano.* Madrid, 1792

حسين مؤنس

جامع الظاهر بيبرس البندقدارى[1]

هذا جامع تثير رؤياه فى النفس ذكريات شتى ، وتبعث إلى الذهن بصور بعضها محبب إلى النفس ، وبعضها بغيض إلى القلب ، تاريخه فى الحقيقة مختصر لتاريخ مصر الإسلامية منذ أمسك بزمامها المماليك حتى اليوم .

فى بنائه الضخم ، وفى منظره الفخم مظهر لغظمة مصر فى عصر المماليك . وفى إهماله ، وتعطيل الشعائر الدينية فيه ، وبيع أنقاضه مظهر للفوضى التى ضربت بجرانها على البلاد بعد الفتح التركى . وفى جعل الفرنسيين له قلعة — كما يقول الجبرتى — وتحويل منارته إلى برج ، ووضع المدافع على أسواره ، وبناء مساكن للجند بين جدرانه ، مظهر للغزو الفرنسى [2] . وفى تحويله على

---

(١) الأبحاث الأثرية التى تناولت هذا الجامع بالدرس هى :

١ — Von Berchem, *Materiaux pour un Corpus Inscriptiorum Arabicorum* (Paris 1903).

٢ — Patricolo (M.A.), *Compte rendu, Service de Conservation des Monuments de l'Art Arabe*, Le Caire, 1922.

٣ — Briggs M., *Muhammedan Architecture in Egypt & Palestine, Oxford*, 1924.

٤ — Creswell (C.K.A.), *The Works of Sultan Bibars Al-Bunduqdari in Egypt, Bull. Inst. Fr. Archeo. Or. du Caire*, 1926.

٥ — Richmond, *Moslem Architecture*, London, 1926.

٦ — Hautecœur L. & Wiet G., *Les Mosquées du Caire*, Paris, 1932.

وقد استفدت بهذه الأبحاث جميعاً واستعنت بما فيها من معلومات قيمة عند قيامى بدراستى العملية لهذا الأثر وعند كتابة هذا البحث .

(٢) يقول الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة ومنارته برجاً ووضعوا على أسواره مدافع ، وأسكنوا به جماعة من العسكر ، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنه العسكر المقيمة فيه » (ص ٤٨ ج ٦ — طبعة المطبعة الأزهرية العربية سنة ١٣٠١ هـ) .

يد الإنجليز إلى مذبح [١] — حتى ليعرف اليوم بين العامة وبعض الخاصة بمذبح الإنجليز — مظهر للاحتلال الإنجليزى . وفى رد اعتباره إليه على يدى لجنة حفظ الآثار العربية مظهر يترجم عن نضوج الوعى القومى والاتجاه إلى الاهتمام بتراث الأجداد [٢] .

فلنتخذ طريقنا إليه ، نقرأ ما سطرته يد الزمن على صفحات جدرانه الباقية. إننا الآن بين يدى مدخله الرئيسى ، إنه أشبه بمدخل المدن منه بمدخل المساجد، يذكرنا منظره بأبواب القاهرة الفاطمية : باب زويلة وباب العز وباب الإقبال[٣] وهو بارز مثلها عن سمت الجدار ، ويفضى مثلها إلى ممر معقود ينتهى إلى باب المسجد .

والتأمل فى هذا المدخل ، والمقارنة بينه وبين ما سبقه من مداخل المساجد يشعرنا بالتطور العظيم الذى تدرج فيه فن العمارة الإسلامية فى مصر ، ويبين لنا فى جلاء مبلغ ما وصل إليه أجدادنا المسلمون فى هذه الناحية ، ويكفى لكى يلمس الإنسان هذا التطور أن يستحضر فى ذهنه صورة أبواب مسجد ابن طولون التى تتجلى فيها البساطة ، ثم صور المداخل الفخمة لمساجد الحاكم والأقمر والصالح طلائع ويقارن بين هذه جميعاً وبين المدخل الرئيسى لجامع الظاهر الذى يتكون من عقد كبير مدبب ، متعدد الفصوص ، كان يعتمد على عمودين ذهب بهما الزمن ، ويحف به من الخارج إطار مملوء بالزخرفة ، ويزينه من أعلى ثلاثة

---

(١) اتخذ الفرنسيون — أثناء احتلالهم لمصر — من هذا الجامع مكاناً لذبح ما يأكلونه من الحيوان وقد سار على نهجهم الانجليز — عند ما احتلوا البلاد — راجع ص ٤٧ من

Patricolo (M.A.), *Compte Rendu, service de Conservation des Monuments de l'art Arabe,* Le Caire, 1922.

(٢) Patricolo (M.A.), *Compte Rendu, Service de Conservation des Monuments de l'art Arabe,* Le Caire, 1922, p. 48.

(٣) اشتهر البابان الأخيران بين الناس باسم باب النصر وباب الفتوح ، ولكن الكتابات التاريخية المحفورة فوق أحدهما وبجوار الآخر تعطى باب النصر اسم « باب العز » ، وباب الفتوح اسم « باب الاقبال » راجع :

١ — سجل الكتابات العربية الجزء الرابع النص رقم ١٥٠٧ .

Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, Le Caire depuis 1931, IV, No. 1507.

٢ — Wiet G., *Nouvelles Inscriptions Fatimides,* Extrait du *Bull, Inst. d'Egypte,* t. XXIV, 1941.

مناطق على شكل نجوم بها عبارة « الملك لله » . ويحيط بهذا العقد من أعلى ومن أسفل أربعة تجويفات : اثنان فى كل جانب ، العلويان ينتهيان من أعلى بزخرفة محارية يعلوها عقد مدبب ، والسفليان ينتهيان من أعلى بمقرنصات جميلة . والمقرنص (١) من العناصر ذات الشأن فى العمارة الإسلامية ، يتجلى فى أبسط صوره فى الكوى التى تقام فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة الحجم عند ما يراد تسقيفها بالقبة كى يتمكن البناء بواسطة هذه الكوى من إيجاد سطح يمكن للقبة أن تستقر عليه . وليست هذه الوسيلة من اختراع المسلمين ، ولكنهم ورثوها عن الأمم الشرقية السابقة عليهم ، على أنهم لم يستطيعوا الصبر طويلا على سذاجتها ، فما كادت تتهذب ملكتهم الفنية حتى أخذوا يعدلون فيها ، ويعقدون فى شكلها ، فقسموا الكوة الواحدة إلى كوى صغيرة متعددة حتى بدت قطعاً من الفن الجميل كلما تأملت فيها غمرتك بلذة روحية ، وشاء لهم خصبهم الفنى أن لا يقفوا عند حد استعمالها فى جوانب القباب بل تراهم يزينون بها الواجهات وعقود الأبواب

والجانبان البارزان من هذا المدخل يزدان كل منهما بتجويفات ثلاثة ، يتوجها من أعلى عقود مدببة ، وقد نثرت على الجدار فوق هذه التجويفات جامات ، بعضها مستدير وبعضها معين ، وكلها مملوءة بزخارف عربية غاية فى الإبداع . والممر المعقود الذى يفصل بين هذا المدخل وبين الجامع به على اليمين وعلى اليسار مشكاة (٢) يتوجها زخرفة كأنها الخط الكوفى المربع . أما الباب نفسه فعتبته قد بنيت من قطع من الرخام أو الحجر الأصفر أو على حد التعبير الفنى من صنج تفنن البنّاء فى قطعها وتعشيقها بحيث تبدو كأنها قطعة واحدة يتخللها زخرفة جميلة (٣) . وأعلى هذا العتب لوحة من الرخام عليها كتابة نصها :

---

(١) راجع مادة Mukarnus فى Encyclopedic de l'Islam, Supl. Livraisom

(٢) المشكاة هى كوة ليست بنافذة (انظر الإفصاح فى فقه اللغة ص ٢٧٤) .

(٣) تسمى هذه القطع أو الصنج باسم Joggled Vousoires

وهذه الظاهرة المعمارية سابقة فى وجودها على الإسلام ، فقد ظهرت فى أيام البطالمة فى مصر فى مقابر كوم أبو بلد بالدلتا ، وكانت منتشرة كذلك فى بلاد الشام قبل الإسلام. أما بعد الإسلام فقد استخدمت لأول مرة فى قصر الحير الذى بناه فى بادية الشام الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك عام خمسة عشر ومائة بعد الهجرة ثم ذاع استعمالها بعد ذلك واستعملت لأول مرة فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى فى الجامع الأقمر – راجع

Creswell (C.K.A.) *Early Muslim Architecture*, Part. I, pp. 343-345.

« بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين صاحب القبلتين الآمر ببيعة الخليفتين خادم الحرمين الشريفين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة » .

وتلخص لنا هذه اللوحة التأسيسية تاريخ الظاهر بيبرس منشئ هذا الجامع بل هى توضح لنا على الأصح ، تاريخ ذلك العصر الذى شيد مسجده فيه ، لأن كل عبارة من عباراتها بمثابة فصل فى تاريخ مصر ، فلنقف عندها قليلا نستوضح هذه العبارات ما تحمله وراءها من المعانى ليستقيم فى أذهاننا مرماها ، ويتجلى لنا على هديها مركز مصر من التاريخ العام فى ذلك العصر .

أما « السلطان » فلقب ظهر لأول مرة فى عهد الخليفة العباسى هرون الرشيد إذ خلعه على وزيره خالد بن برمك تعظيما له ، ثم اختفى هذا اللقب فترة من الزمن ليظهر من جديد فى عصر بنى بويه إذ تلقب به ملوكهم ثم ذاع استعماله بعد ذلك (١) .

وأما « الملك » فكان يلقب به — على حد قول القلقشندى — الزعيم الأعظم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة (٢) .

وكلا اللقبان قد ظهرا وشاعا فى البلاد الإسلامية عند ما ضعفت الدولة ، وغلب الخلفاء العباسيون على أمورهم وصارت شئون الدولة بأيدى وزرائهم من الفرس والترك .

و « الظاهر » هو اللقب الذى اتخذه بيبرس لنفسه عند ما تولى عرش مصر (٣) .

---

(١) القلقشندى — صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤٧ — طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) كان أول لقب اختاره بيبرس لنفسه عند ما أصبح سلطاناً لمصر هو « القاهر » ولكن أشير عليه بتغيير هذا اللقب لأنه « ما تلقب به أحد فأفلح » فاتخذ لنفسه لقب الظاهر — راجع المقريزى — السلوك لمعرفة دول الملوك — ص ٤٣٧ من الجزء الأول (القسم الثانى) — نشر حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك — القاهرة سنة ١٩٣٦ .

وتاريخ بيبرس نفسه قبل ولايته على مصر جدير بالعناية ، فهو تاريخ حافل تشع من بين سطوره آيات المجد الحربى إذ ساهم فى طرد الصليبيين من البلاد ، وعاون على أخذ قائدهم لويس التاسع ملك الفرنسيين مع حاشيته إلى المنصورة أسرى مكبلين بالأصفاد حيث ذاقوا مرارة الذل ، ولم ترد إليهم حريتهم حتى دفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وكأنما شاءت الأقدار أن يمحو الفرنسيون على يدى نابليون — أثر هذه الهزيمة باتخاذهم هذا الجامع العظيم الذى أنشأه بيبرس حامل لواء النصر عليهم قلعة عسكروا فيها كما أشرنا إلى ذلك من قبل وأرسلوا منها على المصريين نيران مدافعهم .

و « سلطان الإسلام والمسلمين » لقب جديد ظهر بعد أن هوت الخلافة عن بغداد حين هاجمها هولاكو وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله وقتل معه أهله وأكابر دولته . وهو لقب يشعر باعتقاد المسلمين فى ضرورة وجود رئيس لهم يرعى شئونهم ويرجع إليه للفصل فى أمورهم . ولما كانت الخلافة قد قضى عليها التتار فلا بد من وجود شخص يحمى الإسلام والمسلمين إلى أن تقوم الخلافة من جديد وهكذا اتخذ بيبرس لنفسه هذا اللقب ، وفى الحق أنه اتخذه عن جدارة فقد كان أقوى ملوك المسلمين فى عصره .

أما عبارتا « صاحب القبلتين » و « خادم الحرمين الشريفين » فليس فى معناهما غموض ، فالمقصود بالقبلتين : مكة وبيت المقدس ، وبالحرمين : المكى والمدنى . ولقد عنى بيبرس بشئون هذه البلاد المقدسة عناية كبيرة [١] ، وبسط عليها نفوذه وسيادته ، وزارها وأفاض النعم على حراس بقاعها المقدسة ، ودعى له على منابرها [٢] .

---

(١) فى سنة تسع وخمسين وستمائة جهز الأموال والأصناف لعمارة الحرم النبوى بالمدينة وبعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس .

وفى سنة إحدى وستين وستمائة جهز فى البحر جماعة من البنائين والنجارين والنشارين والعتالين وعدة أخشاب وغيرها من الآلات برسم عمارة الحرم النبوى الشريف .

(ص ٤١٥ و ص ٥٠٢ من السلوك للمقريزى — جـ ١ (قسم ٢) نشر الأستاذ الدكتور زيادة بك) .

(٢) ص ٤٩٨ من السلوك للمقريزى — جـ ١ (قسم ٢) نشر الأستاذ الدكتور زيادة بك .

وإذا كان من اليسير فهم العبارتين سالفتى الذكر فإن عبارتى « الآمر ببيعة الخليفتين » و « قسيم أمير المؤمنين » تفتقران إلى شيء من الإيضاح . فلم يكن القضاء على الخلافة الإسلامية مما يسكت عليه المسلمون طويلا أو يسلمون فيه بالأمر الواقع إذ لا تزال نفوسهم متعلقة بأهدابها ، يرون أن تنصيب الخليفة واجب إذا تركوه أثموا فى حق الدين . والحكام منهم على الخصوص فقدوا بفقدها قوة أدبية عظيمة كانوا يستمدون منها العون على تثبيت أقدامهم على العروش التى اغتصبوها ، لذلك ما فتئوا يفكرون فى إحيائها ، وخطا بيبرس الخطوة الأولى الجريئة فى سبيل ذلك فاستقدم أحد فلول العباسيين واستقبله فى مصر استقبالا حافلا ، وسار فى ركابه هو وأمراء مملكته ، وبايعه وأمر رجاله ببيعته ، وأحيا له عرش الخلافة الإسلامية من جديد وأجلسه عليه باسم « المستنصر » . ولكن ما كاد يمضى على ذلك شهور ثلاثة حتى حل الشك فى قلب الظاهر وخشى على نفوذه أن يقل أو يضيع بجوار هذا الخليفة الذى أقامه فى البلاد فصمم على التخلص منه بظرف ولباقة ، فجهز له جيشاً يعاونه على استرداد عرش الخلافة فى بغداد ولكنه دبر فى الخفاء أمر التخلص من هذا الخليفة إذ تخلى عنه الجيش فى الطريق ، وخرج التتار على المستنصر وقتلوه وقتلوا كل من كان معه إلا واحداً وفد على مصر ، وعاودت الظاهر فكرة إحياء الخلافة مرة ثانية فاستقبل هذا العباسى وبايعه بيبرس بالخلافة كما بايع المستنصر من قبل ، وأمر رجاله بمبايعته ، كما أمرهم بمبايعة سلفه ، فهو إذن الآمر ببيعة الخليفتين . وقد اتخذ الخليفة الأخير لقب « الحاكم بأمر الله » .

وقد كان بيبرس حذراً هذه المرة فحرم على الخليفة التدخل فى شئون الدولة ، وأقامه فى القلعة كالسجين يحصى عليه حركاته وسكناته ولا يسمح له بالظهور إلا بأمره وتحت رقابته . وستر هذه الحقيقة عن الشعب بتلك العبارة التى يشير فيها إلى أنه « قسيم أمير المؤمنين[1] » ، وما كان أمير المؤمنين فى الحقيقة إلا دمية يحركها بيبرس وفق إرادته . وفى الحق أن مركز الخلافة العباسية قد أخذ منذ ذلك الوقت يفقد تلك المكانة السامية التى كان يتمتع بها من قبل ، ولم تعد له تلك

---

(١) Von Berchem, *Materiaux pour un Corpus Inscriptiorum Arabicorum*, p. 104.

الهالة التى كانت تحيط به . وظلت مكانته تتضاءل فى النفوس حتى انتهت بأن « رحل اسم الخليفة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها [١] » ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض أمراء المسلمين فى غير مصر كانوا يرون فى الخلافة العباسية فى القاهرة فائدة كبيرة لأنها تمنحهم ألقاباً يسترون بها اغتصابهم لمراكزهم ، فمؤسس الأسرة المظفرية فى جنوب فارس خرج عن طاعة رئيسه المغولى وبايع الخليفة العباسى فى مصر وكان يذكر اسمه فى الخطبة . كذلك سلاطين دلهى فى الهند ، وسلاطين ما وراء النهر .

وآخر ما يستحق الذكر فى هذه اللوحة التأسيسية كلمة « الصالحى » . وهذا اللفظ على صغره يكشف لنا عن أصل المماليك ، فالصالحى نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب أحد سلاطين الدولة الأيوبية ، ونسبة بيبرس إليه معناها أنه كان من مماليكه . والمماليك رقيق كان يحصل عليه بالأسر أو الشراء ، وقد كان الخلفاء العباسيون أول من استن هذه السنة ونسج على منوالهم أمراء المسلمين وسلاطينهم ، فاستعانوا بهم فى الحرب وزينوا بهم قصورهم فى السلم ، فابن طولون قوى بهم جيشه ، والإخشيد اعتمد عليهم فى حروبه ، والفاطميون أكثروا من شرائهم ، والأيوبيون بالغوا فى الاستكثار منهم لا سيما الصالح نجم الدين أيوب وكان بيبرس أحد مماليكه هؤلاء[٢] .

* * *

والآن بعد هذا الاستعراض الموجز للعصر الذى انشىء فيه هذا الجامع ، وبعد الوقوف فى جولة قصيرة بين ما بقى لنا من جدرانه ، ندور حوله من الخارج ثم ننفذ إلى داخله لنقف على خصائصه ومميزاته . وأول ما يقابلنا هذا البرج المربع القائم فى الزاوية الشمالية الغربية ، الذى تنيره نوافذ ثمان ذات أسقف مقوسة ،

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة — ص ٣٢٥ — المطبعة المنيرية ١٣٥١ هـ . راجع أيضاً :

Arnold (Sir Thomas), *The Caliphate* I, London, 1924 pp. 99. ff.

(٢) سمى بيبرس باسم البندقدارى لأنه كان أول أمره مملوكاً للأمير ايدكين البندقدارى قبل أن يصبح من مماليك الصالح نجم الدين أيوب . والبندقدارى نسبة إلى البندقدار وهو لفظ فارسى معرب معناه حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير (راجع المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك ص ٣٥٠ جـ ١ (قسم ٢) نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك .

وهذه إحدى خصائص العمارة الإسلامية أيام بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله .

وتنطوى جوانح هذا البرج على درج يفضى إلى سطح الجامع ، وله نظائر ثلاث كل واحدة منها تحتل زاوية من زوايا الجامع الأخرى ، وهى تشبهه فى المظهر الخارجى وتختلف عنه فى الحجم والتصميم ، فهى فى الداخل صماء ، وفى المساحة أقل سعة إذا استثنينا البرج القائم فى الزاوية الشمالية الشرقية فهو يقرب فى مساحته من البرج الشمالى الغربى .

* * *

وتبرز فى الجدارين الشرقى والغربى للجامع دعامات ، بعضها مشطوف من أعلى وبعضها غير مشطوف ، والدعامات المشطوفة ظاهرة معمارية جديدة على العمارة المصرية الإسلامية تبدو هنا لأول مرة ، وظهورها فى بلد قليل الأمطار — كمصر — يشعر بأنها أجنبية وفدت على البلاد من الخارج ، لأنها من خصائص البلاد الكثيرة الأمطار ومصر ليست كذلك . ويغلب على الظن أنها بنيت هنا بواسطة الصليبيين من الذين وقعوا أسرى بين يدى بيبرس فى حروبه فى بلاد الشام [١] .

وتبدو لنا فى هذه الدعامات — فى المدماك الثالث تحت النوافذ — نهايات أعمدة ممتدة فى اتجاه أفقى فى عرض الحائط . ترى ما وظيفة هذه الأعمدة العرضية ؟ وما هو مصدرها ؟ وهل هى من مبتكرات المسلمين أم نقلوها عن غيرهم من الأمم ؟

أما وظيفتها فهى ربط أجزاء الجدار بعضها ببعض بقصد تقويتها وتوثيقها . وأما مصدرها فبلاد الشام . وأما مبتكروها فهم العرب إذ يحدثنا المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » أنه عند إنشاء مدينة عكا أتى بفلق الجميز الغليظة فصفت على وجه الماء ثم بنى فوقها بالحجارة ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء . ومبتكر هذه الطريقة هو أبو بكر البناء كما يقول المقدسى الجغرافى العظيم [٢] . ولقد ظهرت هذه الطريقة لأول مرة فى مصر فى أبواب

---

(١) Creswell (C.K.A.), *The Works of Sultan Bibars Al Bunduqdari in Egypt*, *Bull. Inst. Archeol. Or. du Caire*, 1926.

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (الجزء الثانى من المكتبة الجغرافية) ص ١٦٢ و ص ١٦٣ (طبعة ليدن)

القاهرة ثم جامع الصالح طلائع آخر المساجد الفاطمية، ثم فى هذا المسجد الذى نتحدث عنه .

ويتوسط الجداران الشرقى والغربى مدخلان عظيمان يتشابهان والمدخل الرئيسى فى التخطيط العام ويختلفان عنه قليلا فى الحجم وبعض العناصر الزخرفية .

أما المدخل الغربى فتتكون واجهته من عقد كبير يحف به من أسفل تجويف فى كل جانب ينتهى من أعلى بزخرفة محارية يعلوها مقرنصات جميلة . وفوق هذه المقرنصات منطقة مستديرة يزينها من الداخل آيات من القرآن الكريم نقرأ منها فى اليمين : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال» ونقرأ فى المنطقة اليسرى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .

ويعلو كل منطقة معين به زخرفة عربية محفورة فى الحجر غاية فى الإبداع . ويفضى هذا المدخل إلى باب المسجد نفسه الذى تتكون عتبته من مزررات قد قطعت على شكل شرفات وضعت بجوار بعضها ، واحدة قائمة والثانية مقلوبة بالتناوب ، وقد اتخذت هذه المزررات من حجرين مختلفى اللون . ويعلو ذلك وتر العقد الذى يعلو هذا الباب وهو يزدان بسطر من الكتابة الكوفية الجميلة نقرأ فيه : [تبار] ك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل [لك قصوراً] . ويعلو هذا الوتر لوحة رخامية عليها ستة أسطر من الكتابة الكوفية نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك تقرباً إلى الله العظيم وإظهاراً لقوة الدين القويم مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه »

وأما المدخل الشرقى فيتكون من عقد كبير يحف بفتحته خطان منكسران متوازيان يحيط بهما من الخارج شريط من الزخرفة ، وفى خاصرتى العقد جاماتان مستديرتان بهما زخرفة عربية متقنة . وعلى جانبى المدخل من أسفل مشكاتان يتوجهما مقرنصات بديعة . ويفضى هذا المدخل إلى باب المسجد نفسه الذى يعلوه عتب مكون من مزررات من حجارة متداخلة بشكل جميل . وأعلى هذا العتب عقد مسدود يحف به من جميع نواحيه آيات من القرآن الكريم ويتوسطه لوح من الرخام عليه كتابة نسخية نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أعز الإسلام وجنده وانصره نصراً لا غلبة بعده ببقاء الآمر بعمارة هذا الجامع المبارك مولانا وسيدنا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة » .

وقبل أن ننفذ إلى داخل المسجد نلاحظ فى جدرانه ظاهرة جديدة جديرة بالعناية ، هى تلك الأشرطة الصفراء والحمراء المتعاقبة المتوازية التى تجرى على واجهة الجامع من الخارج والتى بهتت ألوانها فى مواضع كثيرة بفعل العوامل الجوية ولكنها لا تزال واضحة فى بعض المواقع .

وفى الحق أن هذه الظاهرة المعمارية التى تبدو فى مصر لأول مرة فى هذا الأثر قد لعبت فى العمارة الإسلامية دوراً هاماً حتى لقد كادت أن تصبح علماً عليها ، وهى لذلك جديرة بأن نقف عندها قليلا محاولين البحث عن أصلها . فلقد أشار كازانوفا فى بحثه القيم عن قلعة القاهرة إلى نص ورد فى مخطوط لشهاب الدين يصف فيه قصراً بناه بيبرس فى مدينة دمشق جاء فيه ، « القصر الأبلق بناه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى ، وظاهر من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر مدماكاً من هذا ومدماكاً من هذا بتأليف غريب وإحكام عجيب (١) »

وينطبق هذا الوصف على واجهة جامع الظاهر بيبرس الذى نحن بصدده مع اختلاف بسيط هو استعمال اللون الأحمر بدلا من الأسود .ولعل فى توفر حجر البازلت الأسود فى بلاد الشام وتوفر الحجر الجيرى الذى تحيل العوامل الجوية لونه إلى الاصفرار فى تلك البلاد أيضاً ما نستطيع معه أن نفسر ظهور هذه الظاهرة المعمارية فى بلاد الشام قبل ظهورها فى مصر . وعند ما ظهرت فى مصر استبدل الحجر الأسود فيها بالحجر الأحمر الذى يتوفر وجوده .

هذا وقد كان يتوج جدرانه شرفات على شكل أسنان المنشار وصل إلينا القليل منها . أما نوافذه فعدتها اثنتان وسبعون فى كل جانب من جوانبه ثمانى عشرة ،

(١) P. Casanova, *La Citadelle du Caire* (*Mem. de la Mis. Archeol. fr, du Caire*, t.VI, pp. 638-639).

ولهذه النوافذ شبابيك من الخارج ومن الداخل مصنوعة من الجص ذات زخرفة غاية فى الجمال .

* * *

والآن فلندخل الجامع من ذلك الباب الصغير المفتوح فى الجدار القبلى والذى يوصلنا مباشرة إلى رواق المحراب الذى يتكون من ست بلاطات لتجرى عقودها فى موازاة جدار القبلة وتعتمد هذه العقود على صفوف من الأعمدة إلا الصفين الثالث والسادس فعقودهما تعتمد على أكتاف . ويتوسط هذا الرواق أمام المحراب قبة عظيمة فى حجم قبة الإمام الشافعى كما يقول المقريزى[1].
ويتوسط هذا الرواق مجاز[2] متسع عن باقى المجازات المجاورة له وممتد من المدخل الرئيسى حتى المحراب الذى هو اليوم عاطل من الزخرفة[3] والذى يتوجه لوح من الرخام الأبيض يتضمن كتابة نسخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين فى سنة ستمائة وستين » .

ولا بد أن سقف هذا المجاز كان مرتفعاً عن سقف المسجد نفسه — كما هو الحال فى جامعى الأزهر والحاكم — لأننا نلاحظ وجود قطعة من الزخرفة الجصية فى أعلى الواجهة الداخلية للمدخل الرئيسى . ويجرى على الجدارين القبلى والشرقى فى هذا الرواق طراز من الكتابة الكوفية الجميلة يسير أفقياً ثم يدور حول النوافذ كيفما دارت وهو يتضمن آيات من القرآن الكريم من سورة الأنعام ، ويوجد أسفل

---

(١) يقول المقريزى فى خططه ج ٢ ص ٣٠٠ من طبعة بولاق — « ورسم بين يديه هيئة الجامع وأشار بأن يكون بابه مثل المدرسة الظاهرية وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الشافعى رحمة الله عليه » .

(٢) راجع نشأة هذا العنصر المعمارى ومصدره فى كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لكاتب هذا البحث (ص ٥٦ و ٥٧) .

(٣) كان هذا المحراب مكسوا بالرخام وكانت هناك مقصورة من الخشب تحيط به . وهذا الرخام وذلك الخشب أخذهما السلطان بيبرس من قلعة يافا بعد أن « هدمها كلها وجمع أخشابها ورخامها وحمله فى البحر إلى القاهرة فعمل من الخشب مقصورة الجامع الظاهرى بالحسينية ومن الرخام محرابه ». راجع ص ٥٦٤ و ٥٦٥ من الجزء الأول (القسم الثانى) من كتاب السلوك للمقريزى نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك .

هذا الطراز شريط من الزخرفة العربية الجميلة محفورة فى الجص كذلك .

أما صحن هذا المسجد فقد تحول اليوم إلى حديقة عامة يؤمها الناس للترفيه عن النفس . وأما الأروقة الثلاثة الأخرى فقد ضاعت معالمها ولم يبق منها إلا أسس أعمدة أو بقايا عقود ناتئة من الجدران هى التى عاونتنا على تخيل شكل المسجد وقت إنشائه ومن هذه الصورة المرتسمة فى خيالنا نرى أنه كان يسير على نهج المساجد السابقة عليه (١) أى أنه مكون من صحن مكشوف تحيط به أروقة أربعة أكبرها رواق المحراب .

وليس هناك من شك أن مهندس جامع الظاهر بيبرس كان متأثراً إلى حد كبير بتصميم مسجد الحاكم بأمر الله فهو يشبه هذا الجامع فى مظهره الخارجى وفى تخطيطه الداخلى مع فروق بسيطة يسهل التعرف عليها .

* * *

هذه صورة مجملة لهذا الجامع العظيم الذى شيده عظيم من عظماء مصر ، فهل يتيح الله له عظيما يرده إلى الحياة كما كان ويحيى لنا بتجديد هذا الأثر ذكرى مؤسسه ؟

محمد عبد العزيز مرزوق

---

(١) راجع تصميم مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم والأقمر والصالح طلائع فى كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لكاتب هذا البحث .

أهم برقيات النجدات العسكرية المصرية

لمعاونة الدولة العثمانية فى أثناء
الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ – ١٨٧٨)

للقائمقام عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى

أضحت الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر هدفاً موحداً للتقسيم . تآزرت عليه الدول الأوربية الكبرى مع تنوع ديبلوماسية وأساليب كل منها حسب مصالحها الاستراتيجية والسياسية . وكانت تلك الدول تشجع الولايات العثمانية فى أوربا للثورة عليها والخروج على الباب العالى طمعاً للاستقلال .

فمنذ سنة ١٨١٥ أضحت الصرب إمارة مستقلة تحت سيادة تركيا على أن تدفع جزية سنوية وتقبل حامية عثمانية فى بعض مدنها . وقد أقر هذا الوضع فى اتفاقية باريز (٣٠ مارس ١٨٥٦) وتعدل فى سنة ١٨٧٦ بتنازل الباب العالى بمحض إرادته عن الحق الذى خول له وهو إقامة حامية فى قلعة بلغراد عاصمة الصرب وفى بعض الحصون الأخرى .

وكانت إمارة الجبل الأسود قد ثارت على السلطان فى عام ١٨٦٢ فأخمدت تركيا ثورتها وهى فى المهد وكبح جماحها .

وقبل عام ١٨٧٥ تمردت ولايتا البوسنة والهرسك بإيعاز النمسا والصرب وحدثت عدة معارك . واستطاع الجيش التركى بقيادة المشير أحمد مختار باشا أن يخمد الثورة ويقضى عليها فى الأشهر الأولى من سنة ١٨٧٦ . غير أن الصرب التى كانت من الموعزين بإثارة الفتنة رأت الفرصة سانحة ، فشرعت فى الاستعداد للقتال مما دعا الصدر الأعظم لإنذارها ، فتظاهر أمير الصرب بحسن النية بيد أنه وجه إنذاراً صريحاً إلى الباب العالى (٢٢ يونيه ١٨٧٦) وكان ذلك بداية لاشتعال الحرب .

وسرعان ما قدمت روسيا معاونتها العسكرية للصرب . وفى الوقت نفسه طلبت تركيا من مصر بموجب الفرمانات التى بينهما نجدة عسكرية وبحرية .

فأصدر الخديو إسماعيل أمره إلى نجله الأمير حسين كامل باشا الذى كان وقتها ناظراً للجهادية والبحرية بإعداد الحملة[1] وعين لقيادتها الفريق راشد حسنى باشا واللواء إسماعيل كامل باشا قائداً ثانياً لها .

وكانت قوة الحملة المصرية مؤلفة من :

٣ آلايات مشاة

أورطة من آلاى مدفعية الحرس (أربع بطاريات) بقيادة البكباشى حسن همت وعدد مدافعها ٢٤ وبلغ تعداد الحملة ١١٦٨٦ ضابطاً وجندياً

وقد ساهمت الحمة فى معاونة تركيا مدة سنتين اشتركت فى خلالها فى حربين طاحنتين ، وهما حرب الصرب ثم حرب روسيا التى وقعت بعدها .

* * *

انتصر الترك والمصريون على الصربيين الذين كانوا بقيادة القائد الروسى جرنابيف وأظهر الجنود البسالة التقليدية ثم عادوا إلى استانبول (١٦ ديسمبر ١٨٧٦) فسلانيك .

وقد كان متوقعاً أن يتم الصلح بين الصرب وتركيا على أثر عقد الهدنة . ولكن لما رأت روسيا أن الصربيين انهزموا فيها وأنها لم تنل مقصدها من تركيا طلبت عقد مؤتمر أوربى بالاستانة للنظر فى شئون ولايات البلقان فأجابتها دول أوربا إلى ذلك تهدئة للأفكار العامة الثائرة فى بلادها .

انعقد المؤتمر المذكور وحضره مندوبو الدول الأوربية ومندوبان من قبل تركيا . غير أن روسيا التى كانت تضمر للدولة الأحقاد لم تنتظر قرار هذا المؤتمر بل حشدت جيوشها على حدود بلادها والدولة والأناضول قبل أن يقرر المؤتمر شيئاً ، فأثار ذلك مخاوف الباب العالى وجعله يحشد الجنود العثمانية والمصرية فى قطاع وارنه .

وكانت الحملة المصرية إلى ذلك الحين لم تعد . فأرسلت برقية من الخديو إسماعيل إلى الفريق راشد باشا بأن يضع قواته تحت تصرف الحكومة العثمانية للاشتراك مع جيشها فى القتال .

وفى ٢ يناير ١٨٧٧ وصلت القوات المصرية إلى وارنة وشرعت فى إنشاء

---

(١) الوقائع المصرية رقم ٦٦٥ ص ١ بتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٦) .

الاستحكامات العسكرية بها .

وكان المؤتمر الأوربى – الآنف الذكر – قد أتم أعماله وعرض قراره على تركيا رسمياً فألف السلطان عبد الحميد مجلساً عالياً للنظر فى قراره ، فأجمع المجلس على رفضه . عند ذلك تدخلت الدول بين روسيا وتركياً لحسم الخلاف بينهما ، وطلبت من تركيا دون روسيا نزع سلاحها ، فلم توافق الدولة وطلبت أن يكون نزع السلاح منها ومن روسيا فى آن واحد فرفضت روسيا وانقطعت بينهما العلاقات السياسية وأعلنت الحرب بينهما فى ٢٤ أبريل عام ١٨٧٧ .

نشبت الحرب عنيفة بين الطرفين ، واصطدمت جيوش الدول – روسيا وإمارات البلقان وتركيا ومصر – فى عدة معارك من بينها روسچق وينى كوى وقره حسن كوى وبلفنا وكاسل جيڤو وبوب كوى وجير وكوفنا وبازارجق. وكان الطرفان يتبادلان النصر والهزيمة .

استمرت المعارك عدة أشهر انتهت بهزيمة تركيا ثم عقد الصلح بينها وروسيا (١٥ مارس سنة ١٨٧٨) وعادت الحملة المصرية إلى مصر وقد استشهد من قادتها اللواء زكريا باشا .

هذا هو مجمل الحوادث . . حوادث حرب ١٨٧٦ – ١٨٧٨ ولم يكن لمصر فيها «ناقة ولاجمل » غير شعور حكومتها بتأدية واجب سام نحو شقيقتها تركيا.

وفيما يلى أهم برقيات تلك الحرب من وجهة النظر المصرية .

برقيات الحرب التركية الروسية
عام ١٨٧٧

البرقية رقم ٦٠٩

فى ٢٠ كانون الأول سنة ٩٢ الموافق أول يناير سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى الفريق راشد حسنى باشا قائد الجنود المصرية التى ستصل (ستخرج) اليوم إلى وارنة . من المير اللواء محمد باشا سر ياور الحضرة الشاهانية

لما رفعت إلى العتبات السلطانية ما قمتم به أنتم وجنودكم من الشكر وما نلتم من الغبطة عند حظوتكم جميعاً أمس بتلقيكم السلام السلطانى تفضل جلالته

فأبدى رغبته فى استدعائكم شخصياً إلى المثول بين يديه ليحبوكم بعطفه إلا أن ما اختصصت به هذه الأيام من الشواغل التى جعلتكم لا تلبثون عند قدومكم إلا ريثما ترحلون ، لم تدع وقتاً لهذا المثول . لذلك صدرت إرادته السنية بأن تنفذ تلك الرغبة الملكية حين عودتكم وبأن يبلغ ذلك إليكم وها أنذا أقدم إليكم هذه البشرى .

برقية رقم ٢١٥٧

٢١ كانون الأول سنة ٩٢ الموافق ٢ يناير سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة من اللواء المصرى عثمان نجيب باشا إلى قيادة وارنة. تسلمت تلغرافكم المؤرخ فى ٢٠ كانون الأول سنة ٩٢ الموافق ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ وأعرض لإحاطة سعادتكم علما بأن المطلوب لأفراد بلوكات البيادة والطوبجية هو عدد ٢٣٢٣ لباساً وقميصاً باعتبار لباسين وقميصين لكل منهم وعدد ٢٧٤٢ طربوشاً مع زر وعدد ٢٧٤٢ حذاء وللضباط أيضاً عدد ٨١ چاكيت وبنطلون وعدد ١٦٢ لباساً وقميصاً وعدد ٨١ حذاء وعدد ٨٦ كبوداً للوقاية من المطر .

برقية رقم ٢٩٩ ١٦

٢٨ كانون الأول سنة ٩٢ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة من المشير أحمد باشا إلى قيادة وارنة . (راشد حسنى باشا) الرجا التكرم بالإفادة تلغرافياً بأنواع ومقادير المدافع مع طوابير العساكر المصرية السنية التى حضرت إلى وارنة وإرسال تقرير عمومى بالبوستة مبين فيه ضباط وأفراد الطوابير والبطريات المذكورة وأنواع ومقادير الجبخانة والمهمات والحيوانات الموجودة معها

برقية رقم (غير واضحة)

فى ٢٩ كانون الأول سنة ٩٢ الموافق ١٠ يناير سنة ١٨٧٧

(عربى) من سعادة طلعت باشا إلى قومندان وارنة (راشد حسنى باشا) حيث صدر لنا أمر بمشترى طرابيش للآلاى المقيم فى زايجار فالمرجو

إرسال تعريفة (بيان) بعدد العساكر والصف ضباط الموجودة بالآلاى المذكور .

برقية رقم ١٦٥٢٢

٣١ كانون الأول سنة ٩٢ الموافق ١٢ يناير سنة ١٨٧٧

برقية واردة من القائمقام محمد خلوصى بك إلى قيادة وارنة

أعرض أنه نظراً لكثرة الضباب وعدم إمكان قيام بواخر الطونة لهذا السبب فإنى منتظر لحين اعتدال الجو فى روسچق

برقية رقم

فى ٣ مارث سنة ٩٣ الموافق ١٥ مارس سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من الميرالاى على فهمى بك فى عجملر جواباً على تلغراف سعادتكم المؤرخ ٢٥ شباط سنة ٩٢ — ٩ مارس سنة ١٨٧٧ (هكذا فى الأصل) وبناء على إفادة مجلس القرعة ورئيس الأطباء ، أعرض أنه لم يبق هنا شىء من مهمات العساكر المصرية الشاهانية ولوازمها الأخرى وإنه وإن كان موجوداً فى مستشفى سنيجه عشرة أنفار من المرضى إلا أنه لعدم قدرتهم على التحرك الآن سيعنى بأمر معالجتهم وإرسالهم عند شفائهم .

برقية رقم ١٣٧٠

فى ٣ نيسان سنة ٩٣ الموافق ١٩ أبريل سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من اللواء المصرى عثمان نجيب باشا

أعرض أن الطابور البيادة الأول من الآلاى قد قام من ڤيدين ورحل إلى روسچق بأمر من دولة المشير الأكبر وأن الطوابير الأخرى وبطارية الطوبجية أيضاً ستقوم على التوالى وترحل .

برقية رقم ٢٣٩٧

فى ٨ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٢٠ أبريل سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة بازارچق من قيادة روسچق

إنى فى انتظار تشريفكم « شمنى » غداً للمذاكرة معكم فى بعض المسائل بعد أن تنيبوا عنكم الفريق إسماعيل باشا .

برقية رقم ٢٥٦٨

فى ١١ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٢٣ أبريل سنة ١٨٧٧
صورة برقية واردة إلى قيـــادة وارنة من المير اللواء عثمان نجيب باشا بروسجق . أعرض أننا قد وصلنا روسجق من ڤيدين ليلة الاثنين مع بقية الآلاى وصحة الجميع جيدة .

برقية رقم ٥٥٩

فى ١٢ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٢٤ أبريل سنة ١٨٧٧
صورة تلغراف وارد إلى قيادة العساكر المصرية بوارنة من نظارة الجهادية المصرية

توضح فى تلغرافكم الوارد أخيراً أنكم ستخبروننا بالبوستة عن مقدار الجبخانة الموجودة بطرفكم ومقدار ما يلزم فى المستقبل ولكن البوستة قد تأخرت إلى الآن ولم يظهر شىء . فيلزم إخبارنا سريعاً وعاجلا عما ينقصكم من الجبخانة وغيرها لأجل إرساله .

برقية رقم ٣٠٩٠

فى ١٢ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٢٤ أبريل سنة ١٨٧٧
صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من عثمان نجيب باشا بروسجق
أعرض أن بطرية الطوبجية قد حضرت مع طوابير الآلاى . والأمر مفوض .

برقية رقم ؟

فى ١٦ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٢٨ أبريل سنة ١٨٧٧
صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من نظارة الجهادية المصرية
قد اطلعنا على تلغرافكم الوارد المبين به مقدار ما يقتضى إرساله من الجبخانة إلى وارنة وإلى الأستانة وفقط أن جبخانة رامنتون المرسلة من هذا خلاف ما أخذته الآلايات معها هى مليون وكسور خرطوشة وعلى ذلك يخص كل

نفر ٧٠٠ خرطوشة وكسور . وهذا المقدار طبعاً لا يمكن صرفه فى الحرب فياترى هل كان ترك قبل الرحيل فى جهة أخرى شىء من الأشياء اللازمة أو لم يترك وما هو مقدار ما صرف فى الحرب ومقدار ما هو موجود الآن فالأمل التكرم بسرعة الإفادة عن ذلك .

برقية رقم ٤٣١٧

فى ١٨ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٣٠ أبريل سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من اللواء المصرى عثمان باشا بروسجق بما أن الخمسة معاونين الذين صار ترقيتهم هذه المرة ليس لهم خيول فالأمل صدور الأمر بمشتراها من هنا أو الإفادة عن الجهة التى ستعطى منها وإنى فى انتظار الرد .

برقية رقم ٥١٢٥

فى ٢٦ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٨ مايو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من اللواء المصرى عثمان نجيب باشا بما أنه ورد تلغرافكم العالى بتاريخ ٢٥ نيسان سنة ٩٣ الموافق ٧ مايو سنة ١٨٧٧ نرجو إرسال الملابس البيضاء الخاصة بالطابور وبطرية الطوبجية الموجودة هنا إلى وارنة وسنجرى العمل بمقتضى الأمر . وحيث أنه يوجد أشياء زائدة خاصة ببعض المتوفين مثل كبابيد وشنط فأنتظر صدور أمركم بإرسالها معاً فى حالة إمكان ذلك

برقية رقم ٥٨٤٩

فى ٣٠ نيسان سنة ٩٣ الموافق ١٢ مايو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة الى قيادة وارنة من مير الاواء عثمان باشا بروسجق

بما أنه يلزم لبطرية الطوبجية (قايش طوقمين) لأجل أربعين (فانتارمه) وقايش عدد ٩ لربط السيوف وثلاثة (ويداله) وأربعة أحذية للسوارى وعدد ٣٠ مسطرة سوارى وهذه الأشياء غير موجودة هنا ، فأعرض لسعادتكم ذلك بأمل شرائها من هناك .

برقية رقم ٦٠٤٠

فى ٢ (؟) سنة ٩٣ الموافق ١٤ مايو سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من الميرى اللواء عثمان نجيب باشا بروسجق

بما أنه معين لكل واحد ممن يترقوا من رتبة باشجاويش إلى رتبة ملازم مبلغ خمسة ليرات لأجل مشترى أشياء مثل بطانيات وأشياء أخرى وتوجد أوامر بشأن صرف ذلك . فإنى منتظر صدور أمر سعادتكم بصرفه أو عدم صرفه.

برقية رقم ٧٠٢٤

فى ١١ (؟) سنة ٩٣ الموافق ٢٣ مايو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من المير اللواء المصرى عثمان نجيب باشا بروسجق .

إن الطبيب خلوصى أفندى الذى أرسل للتفتيش على العساكر المصرية الشاهانية فى روسجق قد حضر وعقدت جمعية من الأطباء وكشفت على المرضى الموجودين فى المستشفى فقدرت أن أربعة وعشرين نفراً منهم محتاجون لتبديل الهواء وبما أن طريق السكة الحديد سيعطل فى يوم الجمعة فإذا كان من الضرورى إرسال المذكورين إلى ذاك الطرف فإنى منتظر صدور أمركم .

برقية رقم ٢٨١

فى ١٤ (؟) سنة ٩٣ الموافق ٢٦ مايو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة من قيادة وارنة من القيادة العامة بشمنى

قد اتصل بنا أنه حصل اختلاف فى الأفكار بين الأمراء العسكريين وبعضهم وأدى ذلك إلى تأخير إنشاء الاستحكامات وتجهيزاته . وإن كان هذا الخبر لا يمكن تصديقه ولا مما يجوز حدوثه . وبما أنه من الواجب أن نعمل جميعاً بتمام الاتحاد والاتفاق وأنه من الأمور الطبيعية أن جميع الأعمال الجارية هناك خيرها وشرها عائدة وراجعة عليكم . فالأمل التنبيه على هؤلاء الأمراء بأن يعملوا مؤتلفين متحدين وأن يرجعوا إليكم فى كل خلاف يقع بينهم ويتلقوا أوامركم وينفذونها حرفاً بحرف بكمال الصدق والإخلاص وأن لا يجعلوا سبيلا لمعاملتكم .

برقية رقم ٧٨

أول حزيران سنة ٩٣ الموافق ١٣ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من طلعت باشا فى أميركون

أحيط علم سعادتكم بأن صاحب الدولة حسن باشا نجل حضرة الخديو الأفخم قد قام من الإسكندرية أمس فى الساعة العاشرة العربية مع العساكر الموجودين بمعيته قاصداً إلى هذا الطرف .

برقية رقم ٤٣

فى أول حزيران سنة ٩٣ الموافق ١٣ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من عبده باشا القائد العام بشمنى

قد جاء فى تلغرافكم السامى الوارد لنا الآن أن العساكر المصرية قد قامت من الإسكندرية فى يوم الاثنين على اثنى عشر سفينة . وأنه تقرر ترحيلهم فى الحال إلى وارنة بمجرد وصولهم إلى دار السعادة . فأخطركم بما ذكر لأجل اتخاذ التدابير اللازمة لذلك .

برقية رقم ٣٠

فى ٥ حزيران سنة ٩٣ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من حسن باشا فى أمير كون

إن السواريخ الحربية وأدواتها الموجودة فى الباخرة (شبين) يجب بقاؤها بها

برقية رقم ٢١

فى ٥ حزيران سنة ٩٣ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من حسن باشا فى أميركون

إنه عند وصول البواخر بالعساكر إلى وارنة يلزم إخراج العساكر إلى البر وإبقاء البواخر بمرفأ وارنة لحين وصولنا إلى ذلك الطرف وأما الباخرة (شبين) فيجب إعادة السواريخ المشحونة بها مع كامل باشا إلى هنا والتنبيه على الباشا المشار إليه .

برقية رقم ٣٤١

فى ١٠ حزيران سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من قيادة بالجق

أعرض أن الفريق حسن باشا قد قام أمس مساء من سفينة على الباخرة الهمايونية المدرعة المسماة (آثار توفيق) ووصل إلى مرفأ بالجق اليوم فى الساعة السادسة

برقية رقم ١٠١٧٤

فى ١٢ حزيران سنة ٩٣ الموافق ٢٤ يونية سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة الى قيادة وارنة من مير الاواء عثمان نجيب باشا بروسجق إنه فى حرب المدافع التى وقعت أمس بين روسجق وبرلرك فى نقط أخرى قد أطلقت من بطرية الطوبجية ٣١٠ قنابل . وبما أنه من الضرورى ايجاد بدلها فهل يرسل من هناك أم نأخذه من هنا واذا كانت سترسل من ذاك الطرف فإنى فى انتظار أمر سعادتكم .

برقية رقم ١١٦٩

بدون تاريخ

صورة برقية واردة الى قيادة وارنة من ميراللواء عثمان نجيب باشا بروسجق قد سمعت أن مير آلاى الآلاى موجود بوارنة وقد أرسل الليلة قائمقام الآلاى حالة كونه مريضاً مع طابور إلى منطقة مهمة . وبما أنه لهذا السبب من الضرورى وجود الميرالاى هذا ، فالرجا ارساله بالباخرة القادمة غداً .

برقية رقم ١٠٠

فى ١٣ حزيران سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من طلعت باشا فى أميركون . أخبركم وأبشركم بأن صاحب الدولة حسن باشا قد قام من هنا اليوم فى الساعة العاشرة والنصف العربية على الباخرة المسماة «مصرى» مستصحباً الباخرة الهمايونية المدرعة

المسماة « عثمان » التى أرفقت بمعيته من قبل الحضرة الشاهانية قاصداً إلى وارنة بالسلامة .

برقية رقم ١٤٦

فى ١٤ حزيران سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٧

صورة برقية واردة الى قيادة بازارجق من القيادة العامة

قد أبلغنا مقام السرعسكرية الآن أن دولة حسن باشا نجل حضرة الخديو الأفخم قام من دار السعادة أمس متوجها الى وارنة . وبما أن المشار إليه هو قائد فرقة وارنة فيجب إجراء ملابس استقباله حين تشريفه وإفادتنا عن تشريفه .

برقية رقم

صورة برقية واردة إلى قيادة وارنة من المير اللواء المصرى عثمان نجيب باشا بروسجق . بما أن الثلاثمائة وعشرة قنابل التى صرفت من البطرية فى الحرب التى وقعت أول أمس كما سبق العرض عنه والمائة والثلاثين قنبلة التى صرفت فى الحرب أمس ومجموع ذلك عدد ٤٤٠ قنبلة من الضرورى إيجاد بدلها . فإنى فى انتظار صدور أمر سعادتكم

برقية رقم ١٦٤

فى ٧ تيموز سنة ٩٣ الموافق ١٩ يوليو سنة ١٨٧٧

تلغراف إلى قيادة وارنة بالشفرة

قد وصلنا بالسلامة إلى بازارجق اليوم حوالى الساعة السابعة والنصف بعد أن بيتنا ليلة أمس بناحية دربند وقد خصصنا لإقامة العساكر مكاناً على الطريق الواقعة بين بالجق ووارنة بالقرب من طريق وارنة . وبما أن القوة الموجودة هنا هى عبارة عن تسعة طوابير ونصف طابور من المشاة وآلاى سوارى وبطريتى كروب سوارى من ذات أربعة بغال وألف وخمسين بيادة من عساكر المعاونة ونحو مائتين من سوارى الجراكسة والتتار ، فسنقدم لدولتكم التقرير التفصيلى عن ذلك . وحيث أننا فى شدة الحاجة إلى مقدار وافر من المؤونة فنلتمس التكرم بسرعة إرسالها . والأمر مفوض .

برقية رقم ١٧٩

فى ١٠ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يوليو سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العلية

قد كنا عرضنا لدولتكم أنه طبقاً للأصول المتبعة فى إخراج فصائل الاستكشاف والدورية قد رتبنا يوم (٩ تيموز سنة ٩٣) ٢٣ يوليو من سوارى العساكر النظامية والمعاونة وأرسل (هنا الورق مقطوع من الأصل) وأنه بناء على التلغراف الوارد من دولتكم بتاريخ ٩ تيموز سنة ٩٣ سنرسل اليوم فى الصباح بلوكاً منسوارى العساكرالنظامية إلى قرية [قوارنة] لقمع الاختلال الواقع هناك . والآن نعرض على دولتكم أننا علاوة على ذلك قد أرسلنا اليوم فى الساعة الخامسة إلى جهة قوارنة مقداراً كافياً من سوارى العساكر المعاونة مع هدايت باشا قائد اللواء الثانى للفرقة وعساكر المعاونة وبما أن فصيلة الاستكشاف من السوارى السابق إرسالها بقيادة أحمد أغا لأجل استكشاف نواحى بالجق قد وصلت إلى بالجق وقد علم من التلغراف الوارد منه بأنه لا يوجد هناك أى حادث وأن الاختلال حاصل فقط من قوارنة . وبناء عليه قد أخطرناه تلغرافياً بأن يذهب حالا إلى قوارنة لقمع الاختلال الواقع هناك فمن البديهى أن هؤلاء والبلوك السوارى النظامى وعساكر المعاونة الذين ذهبوا مع هدايت باشا أخيراً لدى وصولهم سيقضون على الاختلال الواقع بقوارنة على كل حال . وإنه وإن كان جاء فى التلغراف الوارد لنا من متصرفية وارنة أن ألفاً أو ألفين من الجراكسة والتاثار قد حاصروا قرية قوارنة ، ولكن علمنا من أقوال أحد متصرفى القرية المذكورة الذى حضر إلى هنا اليوم بأن الحقيقة على العكس من ذلك حيث قال إنه بسبب قيام الحكومة المحلية من هناك بغير انتظام أدى إلى إشعال نار الفتنة بواسطة المسيحيين الموجودين بتلك النواحى بينالأهالى . ومن البديهى أنه إذا عين مأموران خصيصاً من قبل الحكومة لإسكان هؤلاء المهاجرين على أن يقيموا جميعاً فى محل واحد لما كان حدث شىء بين الأهالى مثل هذا . بناء عليه نرجو التكرم بإصدار الأمر لمن يلزم بتعيين الموظفين اللازمين لإسكان هؤلاء الفقراء من المهاجرين والنظر فى أمر راحتهم . والأمر مفوض .

برقية رقم ١٦٨

فى ١٠ تيموز سنة ٩٣ و ١١ رجب سنة ٩٤ ، ٢٢ يوليو سنة ١٨٧٧
إلى دولة المشار إليه (دولة حسن باشا)
أتشرف بأن أقدم مع هذا إلى مقام دولتكم التقرير الوارد من البكباشى إبراهيم خليل أفندى الذى عين هو والمعاون إبراهيم شكرى أفندى من ضباط العساكر المصرية معلمين العساكر المعاونة الموجودين تحت قيادة سعادة المير اللواء هدايت باشا بخصوص وقوع المعاون المذكور فى الأسر بواقعة بوغازكوى . والأمر مفوض .

برقية رقم ١٧٤

فى ١١ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يوليو سنة ١٨٧٧
إلى نظارة الحربية
أتشرف بإحاطة علم دولتكم أنى بمجرد وصولى إلى موقع « بازارجق » قد أخرجت شراذم للاستكشاف والدورية المعتاد إخراجها حسب النظام المتبع ورتبت بلوكاً سوارياً من العساكر النظامية والمعاونة وأرسلته إلى نواحى بالجق وكذلك بناء على أوامركم التلغرافية الواردة قد أرسلت فى اليوم التاسع من الشهر الرومى بلوكاً من السوارى النظامى إلى [قوارنة] كما أرسلت فى الساعة الخامسة من اليوم المذكور مقداراً كافياً من سوارى العساكر المعاونة برفقة هدايت باشا اللواء الثانى للفرقة وقائد عساكر المعاونة لأجل تفقد أحوال الاختلال الحاصل هناك والوقوف على حقيقتها . وبعد قيامهم حضر صباح اليوم المعتبرين من أهالى تلك الجهة أصلا ، والمقيم بناحية بالجق الآن إلى هذا الطرف لأشغاله الشخصية وقرر أن الإشاعة القائلة بمحاصرة الجراكسة والتاتار للمسيحيين بتلك القرية إشاعة كاذبة وكل ما حدث هو أن الحكومة لما أصدرت أوامرها إلى الأهالى بالهجرة استولت عليهم الدهشة وأخذ يعتدى بعضهم على بعض ونهب بعضهم البعض وهذا نشأ من تهاون الحكومة فى تنفيذ الإجراءات اللازمة طبقاً للاصول والنظام كما هو الملاحظ وإنى فى غنى عن العرض والبيان .

٥

إن إبلاغ قوة الفرقة العسكرية لموقع بازارجق إلى هذه الدرجة كان لأجل تأمين الأهالى من اعتداء العدو عليهم ومع ذلك لماشاهدنا المهاجرين من البلدان أثناء قدومنا من وارنة يبيتون فى الطرق وأطراف القرى محملين أشياءهم وأولادهم وعيالهم بعضهم على عرباتهم المملوكة لهم والبعض الآخر على عربات الأجرة كمتشردين ، قد وصينا سعادة فخرى بك متصرف طوبجى الموجود الآن بوارنة الذى كنا قابلناه مصادفة فى صباح الليلة التى بتنا فيها بناحية دربند بإسكان هؤلاء اللاجئين فى النواحى والجهات اللازمة وإعادة الصالحين منهم للعمل إلى بلادهم فى أقرب وقت لأجل حصد وجمع مزروعاتهم التى تركوها بدون حصد والتى وصلت إلى درجة التلف وقد كنا أحضرنا متصرف وارنة تلغرافيا راجين بأن يتحد مع البك الموما إليه لإجراء اللازم لذلك – ومع ذلك لم تحصل ثمرة إلى الآن ولم يرد علينا أيضاً ولا يخفى على دولتكم أن تهاون الحكومة بهذه الدرجة فى القيام بالإجراءات المفروضة عليها واستماع الأراجيف الكاذبة التى يذيعها بعض الأشخاص وتسببها فى إرسال العساكر من جهة إلى أخرى على التوالى كل ذلك أدى إلى ضعف قوة الفرقة . وخصوصاً أراضى هذه الجهة هى سهول شاسعة وتحتاج إلى عدد كبير من السوارى ولا يرضى دولتكم توزيع القوة المجتمعة هكذا من وقت لآخر فى جهات متفرقة وبما أن الأمن مستتب هنا والحالة هذه كما سبق أن عرضنا على دولتكم بالشفرة بتاريخ ١١ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يوليو مع الموافقة أرى أن تتخذ الحكومة التدابير اللازمة لتأمين راحة أهالى قرى سنجق وارنة وتعيين مأمورين مخصوصين لإسكان المهاجرين الذين بقوا مشتتين فى الطريق مع أولادهم وعيالهم ومواشيهم فى النواحى والجهات اللازمة .

برقية رقم ؟

فى أقرب وقت وسرعة إعادة القادرين على العمل من رجال المهاجرين إلى قراهم لأجل حصد مزروعاتهم بدلا من تلفها لأن هؤلاء المهاجرين لو بقوا فى الطرق بدون إسكانهم سيكون ذلك سبباً

أولا – لتلف الزراعة ولمسؤولية مأمورى القضاء أمام الحكومة فيما بعد .

ثانياً ــ لحصول اختلال من وقت لآخر ولمشغولية هذه الجهة وفضلا عن ذلك فإنه بدلا من تعطيل مثل هذا العدد الكبير من العربات فيكون من الأولى لجهة المصلحة استعمالها فى السوقيات العسكرية اللازمة . فبعد إحاطة علم دولتكم بما ذكر ألتمس إصدار الأوامر الشديدة بذلك من قبل دولتكم إلى متصرفية وارنة ومتصرفية طولجى .

حاشية ــ قد وصل إلى سمعى أن المسيحيين الموجودين بالقرى تركوا مواشيهم وأشياءهم عند المسلمين لأجل حفظها لديهم ، ثم ادعوا بأن المسلمين اغتصبوا ونهبوا أموالهم ــ وغرضهم من ذلك إيقاع الفساد فى البلاد وإشغال الحكومة بهذه الطريقة فنعرض على دولتكم ذلك لأجل الإحاطة .

برقية رقم ١٧٨

فى ١٢ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العلية

أقدم مع هذا إلى مقام دولتكم التقرير المحرر بمعرفة أركان الحرب عن السفرية من يوم الأربعاء السادس من الشهر الحالى وهو تاريخ القيام من وارنة لغاية اليوم وهو الثلاثاء الثانى عشر من الشهر .

برقية رقم ١٨٨

فى ١٤ تيموز الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٧

إلى هدايت باشا اللواء الثانى بازارجق وقائد العساكر المعاونة

بما أنه يقتضى ــ بناء على الخبر الوارد بظهور فصائل استطلاع العدو بجهة متقالية ــ أن تأخذوا معكم بلوكاً من السوارى النظامى و ٣٠٠ نفر من فرسان الجراكسة من عساكر المعاونة ومدفع كروب من عيار ٤ (قندلق) وزوجاً من أجود الخيول التى ضبطتموها هذه المرة من ناحيتى قوارنة ليكون احتياطياً للموقع المذكور وذلك لأجل التجول والطواف على الوجه المبين فى الخريطة الموجودة بيد محمد رحمى أفندى من يوزباشية أركان حرب العساكر المصرية الشاهانية المعينين برفقة حضرتكم ، وقيامكم للاستكشاف ، فالأمل أن تستصحبوا الِصفوف العسكرية المذكورة وتقوموا مساء اليوم بعد أن تعينوا

مكانكم وكيلا عنكم وأن تقوموا بوظيفة الاستكشاف طبقاً لنظام الأصول العسكرية وأن تحرروا تقريراً يومياً بما يتبين لكم من التحقيقات والمشاهدات أثناء الاستكشاف وإرساله إلى هنا أولا بأول . وعلاوة على ذلك أن تبذلوا الهمة فى منع الاعتداء الواقع من البلغاريين الموجودين فى تلك الجهات على الأهالى وإزالة الفساد الواقع بينهم .

برقية رقم ١٩٧

فى ١٥ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢٧ يوليو سنة ١٨٧٧

إلى قيادة طونة العامة وقيادة وارنة العليتين

رداً للتلغراف المؤرخ ١٤ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يوليو . نعرض أننا تسلمنا إرادتكم العلية الليلة فى الساعة الخامسة . ونفيد بأننا بناء على الأخبار التى وصلت من أن طلائع العدو شوهدت فى جهة [متقالية] وأن مائتى قوازق وعشرة مدافع وصلت إلى تلك الجهة . قد أرسلنا هدايت باشا أمس مساء وبرفقته محمد رحمى أفندى من يوزباشية أركان الحرب المصرية و ٦٠ عسكرى نظامى و ٣٧ ضبطية و ٢٢٤ جركسى و ١٢٥ ثاثار ومجموعهم ٤٤٦ عسكرى سوارى ومدفع كروب من عيار ٤ (قندلق) وعشرون صندوق جبخانة لأجل الاستخبار وللاستكشاف حسب النظام العسكرى فى الجهات اللازمة من قضاءى بالجق ومتقالية ولمنع الاعتداء الواقع من بلغاريى تلك الجهات على الأهالى وإزالة الفساد . وقد طلبنا إليه كتابة بتحرير تقرير يومى بما يحققه وما يشاهده فى الاستكشافات التى سيجريها وإرساله . وسيقدم إلى مقام دولتكم نتيجة ذلك والأمر مفوض .

وفقط كما سبق أن عرض على دولتكم أن الباشا المشار إليه لما كان ذهب إلى [قوارنة] لقمع الفتنة السابق حدوثها هناك أخبرنا أن الطقس فى الجهة المذكورة جيد ويوافق لأن يكون محل إقامة تشكيل عصابات . فأرسل مقدار من العساكر إلى الجهة المذكورة سواء لقطع دابر العصابات والفتنة المذكورة أو قمع الاختلال بقضاء بالجق منوط برأى دولتكم العالى فأعرض على دولتكم ذلك والأمر مفوض .

برقية رقم ٢١٣

فى ١٨ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٧

إلى حضرة صاحب السعادة الفريق إسماعيل كامل باشا بوارنة

بما أن عثمان نجيب باشا يستعلم تلغرافياً عما إذا كان الجاويش ومن معه من المعاونة الذين سبق إرسالهم من الآلاى الرابع إلى وارنة لأجل تسليم الأسلحة والشنط عادوا أم لا فالأمل إخطاره عما إذا كانوا ذهبوا أم لم يذهبوا.

برقية رقم ٢٢٣٥

فى ١٩ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من الفريق إسماعيل كامل باشا بوارنة. بما أنه غير معلوم إن كان الطريق مفتوحاً أو غير مفتوح فإن المعاون والجاويش اللذين حضرا لا يزالان موجودان هنا .

برقية رقم ٢١٤

فى ١٩ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٣١ يوليو سنة ١٨٧٧

إلى مير اللواء عثمان نجيب باشا بروسجق

جواباً لما ورد فى١٨ تيموز سنة٩٣ الموافق٣٠ يوليو نفيد بأنه لما استعلمنا من سعادة إسماعيل كامل باشا بوارنة عن المعاون والجاويش أفاد بأنهم لا يزالون موجودين بوارنة فإذا كان الطريق مفتوحاً فنرجو إخطار سعادته من طرفكم لأجل إرسالهم .

برقية رقم ٢١

فى ١٩ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٣١ يوليو سنة ١٨٧٧

شفرة إلى قيادة وارنة العليا

جاء فى الأمر الوارد من دولتكم بتاريخ ١٩ رجب سنة ٩٤ (٣٠ يوليو سنة ١٨٧٧) بناء على التلغراف الوارد من سعادة محمد على باشا أن يبقى بلوكات السوارى القادمين من وارنة إلى بازارجق فى هذا الطرف وأن يرسل

إلى وارنة جميع من حضر من قبل مع أمير اللواء على رضا باشامن عساكر السوارى لأجل إرسالهم إلى طرف المشار إليه . وأنه سيرسل بدلا عنهم أورطتان من سوارى غارديا(١). وحيث أن الحالة تدعو إلى وجود عدد كبير من عساكر السوارى نظرا لحالة الأراضى هنا كما لا يخفى على دولتكم . وأن الموجود من السوارى الآن فى هذا الطرف كاف فقط للحراسة والاستكشاف والداورية وسائر الخدمات

وحيث أن العدو لديه عدد عظيم من عساكر السوارى كما هو معلوم من قبل . وأننا سنحتاج فى المستقبل إلى زيادة قوة السوارى كما هو بديهى . فنظرا لأهمية لزوم جميع ما هو موجود من السوارى فى هذا الطرف نلتمس أن تتكرموا دولتكم مع الموافقة إخطار سعادة المشار إليه بإبقائهم هنا كما كانوا والأمر مفوض .

برقية رقم ٢١٨

فى ٢١ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العليا

أبلغنا المير اللواء هدايت باشا بتلغرافه المؤرخ ٢٠ تيموز سنة ٩٣ أول أغسطس أنه فى أثنـــاء مروره بجهات [متقالية] للاستكشاف غنم الأغنام التى تركها الروسيون وكذلك الأغنام والمعيز والخرفان البالغ مقدارها عدد ٨٠٢٢ رأس وأربعة أبقار وعدد ١٠٠ ثور وعدد ٧ جمال وعدد ٢٦ فرساً مهراً التى وجدت بدون صاحب فى تلك الجهات وسلم كل ذلك إلى قائمقامية بالحق . وقد أخطرتنا القائمقامية المذكورة أيضاً بأنها تسلمت المقدار المذكور من الأغنام والمواشى . فنعرض على دولتكم ذلك رجاء الإحاطة . والأمر مفوض

برقية رقم ٢١٩

فى ٢١ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٢ أغسطس سنة ١٨٧٧

شفرة إلى قيادة وارنة العلية رداً لما ورد فى ٢٠ تيموز سنة ٩٣ أول أغسطس أعرض أن بلوك [الأحوال] أرطتى سوارى غارديا قد وصل سالماً . وبما أن البعض

(١) أى سوارى الحرس .

من سوارى سعادة عادل باشا الموجودين بمعيته فى الأول متفرقين فى بعض الجهات فتنفيذاً لأمركم العالى سيصير جمعهم وإرسالهم إلى شوملا(١) بطريق برادادى يوم الجمعة غداً والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٠٩

فى ٢٢ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنا العلية

قد تسلمت التلغراف الوارد من مقامكم السامى بالشفرة وبتاريخ ١٩ تيموز سنة ٣١،٩٣ يوليو وامتثلت للأمر المشتمل عليه ولدى إحالته على أركان الحرب أجاب بأن القوة العسكرية التى ستوضع بقوارنة حسب موقعها الطبوغرافى لا يفيد فرقة بازارجق العسكرية أية فائدة

وأنه إذا أريد سحب العساكر وقت اللزوم فسيكون ذلك سببا لتكبد الصعوبات فى النقليات ولإرسال مقدار كاف من العساكر من وقت لآخر فيقدم مع هذا إلى دولتكم التقرير المذكور . ونعرض أنه وإن كان استنسب فى الحقيقة إمكان إدارة الجهة المذكورة والحالة هذه بعساكر السوارى الموجودين بجهات بالجق إلاأن إجراء ما يجب عمله موقوف على رأى دولتكم. والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٢٠

فى تيموز سنة ٩٣ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العليا

رداً لما ورد فى ٢٠ تيموز سنة ٩٣ أول أغسطس نعرض أنه قد أرسل اليوم فى الساعة السادسة خمسة بلوكات من السوارى على أن يذهبوا إلى شوملا.

برقية رقم ٢٢٢

فى ٢٣ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العلية

ورد تلغراف من متصرفية وارنة بتاريخ ٢٢ تيموز سنة ٣،٩٣ أغسطس بناء على التلغراف الوارد لها من قائمقامية بالجق يتضمن أنه قد وصل إلى قرية [سليماتلك] بقضاء بالجق حوالى الساعة الخامسة عدد ٥٠ أو ٦٠ نفراً من طلائع

---

(١) مدينة بلغارية تبعد عن ثغر فارنة بمسافة ٩٠ كيلومتر غربا .

فرسان العدو وأنهم استعلموا عما إذا كان يوجد أحد من العساكر الشاهانية أو من الجراكسة وأنهم قد جمعوا بعد ذلك مقدار ٣٠ عربة من عربات مهاجرى قرية قطب الدين التابعة لقضاء [متقالية] وعادوا بها إلى الوراء — ثم ورد تلغراف آخر من القائمقام المومإ إليه يفهم منه أن المدعو عثمان حضير أوغلى الذى قدم من قرية حستجة الواقعة على مسافة سبع ساعات من بالجق قرر أن عدداً من العساكر الروسية تقدر ب ٦٠ نفراً قد وصلوا قبل ظهر أمس إلى جهة سليماتلك وقتلوا جركسيين من المعاونة الذين صادفوهم وأخذوا خيولهم كما أخذوا أشياء المسلمين من الأهالى مثل أسلحة وساعات واستمروا فى التجول بتلك الحوالى لغاية أذان الصبح ، قائلين ليس من حدنا القدرة عليكم (هكذا فى الأصل) وأخبروا أن جيشهم موجود على رأس بحيرة قريد حاجبلر الواقعة على مسافة ساعتين من ناحية [متقالية] وأن جيشهم الآخر أيضاً موجود بجهة طوبراق حصار ، ثم عادوا . وبناء عليه أعرض لدولتكم أنه قد كتب إلى هدايت باشا بالنظر فيما يجب عليه والإفادة بحقيقة الكيفية وهذا للعلم والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٢٣

فى ٢٨ رجب سنة ٩٤ — ٢٧ تيموز سنة ٩٣ الموافق ٨ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة — امتثالا لأمر دولتكم العالى أقدم مع هذا إلى مقامكم السامى التقرير المقدم من صاحب العزة مصطفى صفوت بك قائمقام أركان الحرب المشتمل على إفادات عبد البارى وعبد الزاهد اللذين انتخبا بعد البحث وأرسلا إلى جهة ميجريدية لأجل التجسس وذلك للعلم بما فيه تفصيلا والأمر مفوض .

حاشية — نعرض أنه نظراً للإشاعات التى تواترت قبل ورود أمر دولتكم التلغراف المؤرخ ٢٦ تيموز سنة ٩٣ — ٧ أغسطس قد أرفق بمعيته سعادة هدايت باشا وصاحب العزة محمود فهمى بك رئيس أركان الحرب مقدار كاف من العساكر الجراكسة المعاونة لأجل الاستكشاف والتحقيق وأرسلوا مساء اليوم وأننا نبذل السعى والجهد فى سبيل إعلاء شأن الدولة والملة فى

ظل ملجأ الخلافة وبركات حضرة الخديو الأكرم وذات دولتكم العلية .
ولكن نظراً لعدم وجود مخبرين أكفاء لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال .
ومع ذلك فقد علم المخلص لكم من التحريات التى أجراها من هذا الطرف
أن العدو أخذ يتقهقر إلى الوراء من جهة مجيدية . فلأجل الوقوف على حقيقة
الحال عين قسم من العساكر الكشافة لأجل إرسالهم لعمل الاستكشاف
على الوجه المعروض . وقد أرسل معهم أيضاً خمسة وعشرون نفراً من عساكر
وصف ضباط من كل أورطة من أورط سوارى غارديا ومعهم ضباطهم بقيادة
البكباشى فرهاد مهيب أفندى . وكل تقرير يرد إلينا سنقدمه إلى مقام دولتكم
السامى للاطلاع عليه .

الغرض من إرسال من أرسلوا من أورط غارديا للاستكشاف على الوجه
المشروح بهذا هو لأجل قيامهم بخدماتهم الحسنة على الوجه الأكمل .

برقية رقم ٢٣٣

فى ٢٩ تيموز سنة ٩٣ الموافق ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العلية .

كما سبق أن عرضنا لدولتكم أن هدايت باشا والمخلص لكم محمود بك
فهمى رئيس أركان حرب العساكر المصرية الشاهانية قد قاما ليلة الخميس
مع مقدار كاف من العساكر المصرية الشاهانية والمعاونة لإجراء الاستكشافات
اللازمة فشاهدا بجوار قرية قوبادين نحو عدد — ٢٥ من القوزاق السوارى
وبالهجوم عليهم فروا تاركين وراءهم قتيلا واحداً وعدة جرحى وقبض منهم
على أونباشى حياً ولم يحدث من طرفنا خسارة ما . وسنعرض على دولتكم
التفصيلات بعد وصول الأسير المذكور وتسييره إلى طرفكم . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٣٥

فى ٣٠ تيموز سنة ٩٣ الموافق ١١ أغسطس سنة ١٨٧٧ .

بالشفرة إلى قيادة وارنة العليا .

رداً لما ورد فى ٣٠ تيموز سنة ٩٣ أفيد بأنى تسلمت اليوم فى الساعة
١٢ صباحاً الأمر التلغرافى الصادر من دولتكم ليلة أمس .

وحيث أن الطوابير الثلاثة المذكورة سترسل فى المساء لأجل تطمين خواطر الأهالى فنرجو صدور الأمر مرة أخرى إلى مأمورية السكة الحديد بأنه عند وصول تلك الطوابير إلى برادادى يصير اركابها فى القطار لغاية فسيحان . والأمر مفوض .

برقية رقم ٤٧٧

فى ٣١ تيموز سنة ٩٣ الموافق ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة .

أوصيكم بأن تكون أرطتنا المصرية الثلاث الموجودة هناك عدا الثلاثة طوابير المرسلة مساء الأمس إلى شمنى مهيأة ومعدة للسفر بمهماتها وجبخاناتها لأجل إرسالها إلى وارنة بموجب إشارة من هنا وأن تخطر بتنفيذ ذلك بالتمام .

برقية رقم ٢٢٦

٣١ تيموز سنة ٩٣ الموافق ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٧

إلى قيادة وارنة العلية .

لقد كنت عرضت لدولتكم تلغرافياً ــ أن سعادة المير اللواء هدايت باشا وصاحب العزة محمود بك رئيس أركان الحرب العساكر المصرية الشاهانية قد قاما من هنا ليلة الخميس لأجل الاستكشاف والتجول والطواف بجهات مجيدية وأنهما شاهدا بجوار قرية قوبادين خمسة وعشرين فارساً من الفرسان الروس القوزاق وأنهما لما هجما عليهم فروا تاركين قتيلا واحداً وبضعة جرحى وأسير أومباشى واحد حياً وأن هذا الأسير أرسل إلى طرف المخلص وأنه سيرسل إلى طرف دولتكم تحت الحفظ مع تفصيلات الحادث فمقتضى العرض المذكور أرسل مع هذا إلى مقام دولتكم الأسير المذكور مع الأشياء التى اغتنمت تسليما لرشوان أفندى من ملازمى آلاى المشاة الثالث كما أرسلنا صورة من التقرير الوارد من الباشا والبك الموما إليهما بالاتحاد معا وصورة من الإقرار المأخوذ من الأسير المذكور وكذلك ورقة استجوابه الذى حصل هنا مرة أخرى . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٢٨

فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٧ م

إلى حضرة صاحب السعادة اللواء الأول لفرقة بازارجق .

بما أنه ورد أمر تلغرافى من قيادة وارنة بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧ م) بسرعة إرسال طابور الطليعة الخاصة الرابعة وطابور [أنطالية] الموجودين هنا والطابور الأول من الآلاى السادس من الفيلق الهمايونى الثانى ومجموعها ثلاثة طوابير وبطارية كروب من المدفعية الشهانية وبطارية جبلية من المدفعية المصرية تحت قيادة سعادتكم للقيام غداً صباحا إلى شمنى رأساً من أقرب طريق ، فبمقتضى الأمر المشار إليه يلزم تهيئة المعدات اللازمة لسفر تلك الطوابير وبطريتى المدفعية المذكورتين لغاية مساء اليوم والقيام غداً صباحاً والذهاب إلى شمنى من أقرب طريق والأمر مفوض .

برقية رقم ٣٤٥

فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٧ م

بالشفرة إلى قيادة وارنة العلية .

امتثالا لأمر دولتكم التلغرافى الوارد بتاريخ ٣١ تيموز سنة ٩٣ — ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٧

قد نبه على أميرالاى الآلاى المصرى الثالث من الفرقة الأولى بأن يكون الآلاى على هيئة الاستعداد كما سبق أن عرضنا أثناء وجودنا بقرية دربند أنه بناء على حضور العساكر إلى هذه الجهة وعلى الإجراءات التى تقررت بفضل مساعى دولتكم المشكورة بخصوص إسكان المهاجرين من الأهالى وإعادة الرجال منهم لحصد مزروعاتهم قد ساد الأهالى الأمان والاطمئنان وقدموا من كل طرف وعادوا إلى أماكنهم وهم مشغولون الآن بحصد مزروعاتهم ولذلك بدأت بوادر [العمار] تظهر فى هذه الجهات كما كانت . وإنما ذهاب ثلاثة طوابير السابق ذهابها إلى شمنى إلى ذاك الطرف وإن كان جعل سراً مكتوماً وإن الأهالى فهموا هنا وهناك ما الخبر كأنه اعتراهم ذهول وعلاوة على ذلك فإن الأهالى لما علموا بخبر استدعاء الآلاى سالف الذكر من هنا بناء على أمركم الوارد هذه المرة هاجت أفكارهم هياجاً شديداً وظنوا

أن فى الأمر شىء ولا شك فى أن عدم اطمئنان الأهالى سيكون فى المستقبل باعثاً لتشتتهم وهجرتهم – كما أن حالة العدو الواقف أمامنا ليست على حالة واحدة بل هى فى تغيير دائم ولا يخلو أيضاً من الجواسيس وفضلا عن ذلك فلا يخفى على دولتكم أن هذه الجهة فى الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لورنة وبالأخص لا ينقطع إرسال أرزاق ومهمات وغيرها إلى سلسترة كما أنه بالنسبة لوجود مخازن الطوابير الموجودة فى سلسترة فهى طريق المرور والعبور وخصوصاً أننا أرسلنا فى يوم السبت عربات لجلب خيم للطوابير المذكورة وغنى عن البيان أن طريق سلسترة أصبح والحالة هذه فى مأمن نوعاً ما – ومما تجب ملاحظته أن الطوابير كلما تنقلت من هنا من وقت لآخر وعلم العدو لذلك يستولى عليه حماس الغرور والغيرة ومن جهة أخرى يكون ذلك سبباً لجهة الأهالى مرة أخرى وربما أدى الأمر إلى سد طريق سلسترة . فلأجل توقى الضرر فى المستقبل قد عرضنا لدولتكم المحذورات المحتمل وقوعها ومع ذلك فإن الآلاى السالف الذكر على استعداد وجاهز للسفر طبقاً لأمر دولتكم وقيامه رهن إشارتكم وحيث أن الأمر منوط بما تبدونه دولتكم من الملاحظات على المحظورات المفروضة فإنى فى انتظار أمر دولتكم فيما ترونه موافقاً . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٤٧

فى ١٧ أغسطس (١٨٧٧ م)

بالشفرة إلى قيادة وارنة العليا

رداً لما ورد فى ١٦ أغسطس (١٨٧٧ م) أعرض أنه بناء على أمركم العالى قد قام اليوم فى الساعة الحادية عشرة ونصف صباحاً ثلاثة طوابير بيادة وبطريتين من الطوبجية برفاقة سعادة على رضا باشا على أن يذهبوا إلى شمنى . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٥٢

فى ١٦ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) .

إلى عثمان نجيب باشا اللواء المصرى بروسجق

بما أنه لم يرد من طرفكم العالى منذ مدة تقرير عن الأحوال . فنرجو

موافاتنا تلغرافياً عن محل وجودكم اليوم وعن صحة العساكر والضباط وإرسال تقرير بالبوسطة .

برقية رقم ٢٥٤

فى ١٩ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى القول أغاسى رمزى أفندى بباالحق

قد أرسل اليوم قاسم أفندى يوزباشى عساكر المعاونة مع بلوكه إلى ذلك الطرف فبعد وصوله واستراحة يوماً واحداً تستصحبون بلوك السوارى النظامى الموجود بمعيتكم وأن يذهب البلوكان معاً إلى الجهات اللازم الذهاب إليها وإجراء الاستكشاف اللازم حسب التعليمات الشفوية المعطاة لقاسم أفندى وأن تكونوا فى غاية التبصر والحذر فى جميع حركاتكم وأن تحرروا تقارير يومية وترسلوها عند الاقتضاء وبعد استكشافكم مدة أربعة أو خمسة أيام وعودتكم يجب أن تعودوا مع بلوككم إلى باالحق ويعود المذكور أيضاً مع بلوكه إلى قرية [خرمان قيو] .

برقية رقم ٢٥٥

فى ١٩ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى سعادة طلعت باشا بميركون (بالاستانة)

أعرض أن عثمان نجيب باشا ومن بمعيته من العساكر موجودين الآن بجهة روسجق وأن سوارى غارديا الأول وآلايات البيادة الأول من العساكر المصرية الشاهانية مع عساكر الطوبجية والبيادة الشاهانية من باقى قوة الفرقة الخاصة بالمشار إليه موجودون فى بازارجق وأن الجميع بتمام الصحة وأنهم يقدمون إلى ذاتكم العلية مزيد السلام والإخلاص — والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٣١

فى ١٩ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة العلية

أقدم مع هذا إلى مقام دولتكم العالى الثلاثة تقارير المحررة من سعادة

المير اللواء هدايت باشا قائد عساكر المعاونة وصاحب العزة محمود فهمى بك رئيس أركان الحرب وصاحب الرفعة فرهاد مهيب أفندى البكباشى الرابع لآلاى غارديا السوارى بخصوص الاستكشافات التى عملت بمعرفتهم هذه المرة . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٥٦

فى ١٩ أغسطس (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه امتثالا لأمر دولتكم التحريرى المؤرخ ٢٣ تيموز سنة ٩٣ ٤ أغسطس ١٨٧٧ م وأمركم التلغرافى المؤرخ ١٧ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧م) قد أجريت الاستكشافات اللازمة وسأقدم إلى أعتاب دولتكم غداً الأوراق المشتملة على تفصيلات ذلك . والأمر مفوض .

برقية (بدون رقم)

إلى قيادة وارنة

بما أنه قد أرسل قاسم أفندى يوزباشى عساكر المعاونة السوارى إلى بالجق لأجل الاستكشافات فى الجهات اللازم عمل الاستكشاف فيها مدة أربعة أو خمسة أيام وأعطيت إليه التعليمات اللازمة بأن يتحد مع يوزباشى السوارى الموجود ببالجق وأن يستصحبا بلوكيهم وأن يكونا فى حركاتهم متبصرين وأن يعود بعد ذلك بلوك بالجق إلى بالجق ويعود قاسم أفندى مع بلوكه إلى قرية [خومان قيو] . فعند ورود تقارير الاستكشافات سأقدمها إلى أعتاب دولتكم . والأمر مفوض .

برقية رقم ٥٠٢١

فى ٢٠ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

سيرسل غداً الثلاث أورطتان من آلاى غارديا البيادة الأول على أن يذهبا إلى بازارجق والآلاى المصرى الثالث وأورطة السوارى اللذان طلبنا

إليكم إعدادهما هناك وجعلهما فى حالة سفر . نأمل إخراجهما إلى الطريق مع مهماتهما وأدواتهما وجبخانتهما وإرسالهما إلى هنا والتكرم بإخبارنا عن ترحيلهما .

برقية رقم ٥٠٢٢

فى ٢٠ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إننا وإن كنا طلبنا بالتلغراف المرسل إليكم قبل الآن أن ترسلوا إلى هنا أورطة السوارى مع الآلاى المصرى الثالث ، ولكن نظراً لضرورة إرسال الآلاى المذكور إلى وارنة وإرسال أورطة السوارى رأساً إلى شمنى — نأمل إجراء ذلك .

برقية رقم ٥٠٢٩

فى ٢١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

الأمل سرعة إفادتنا عما إذا كان الآلاى المصرى الثالث الذى طلبنا إليكم تلغرافياً ليلة أمس إرساله إلى هنا أخرج إلى الطريق أم لا .

برقية رقم ٥٠٣٧

فى ٢١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

إن لم تكن أورطة السوارى قد قامت من هناك وقت وصول هذا التلغراف فابقوها فى بازارجق لحين صدور أمر آخر . وإذا كانت قد قامت فارسلوا وراءها مخصوص وأرجعوها إلى بازارجق وأخرجوا الآلاى المصرى فى الحال إلى الطريق وأرسلوه إلى هنا .

برقية (بدون رقم)

إلى ميرالاى سوارى غارديا الأول

بناء على الأمر التلغرافى الوارد بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ٩٣ من حضرتى

صاحبى الدولة ناظر الجهادية وقائد وارنة بإرسال الأورطة المجهزة من آلاى حضرتكم إلى شمنى اليوم . وبما أن ال ١٥ عربة اللازمة للحملة لم ترد بعد من وارنة فقد أخطرنا فى تاريخه ميرالاى البيادة الثالث لأجل إعطائكم تلك العربات . قد حررنا هذا إليكم لأخذ العربات المذكورة وتحميلها المهمات والأدوات والجبخانة الخاصة بالأورطة المجهزة وقيامكم مع الأورطة إلى شمنى رأساً من أقرب طريق .

برقية رقم ٢٣٤

فى ٢١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى حضرة صاحب العزة خورشيد نعمان بك ميرالاى البيادة الثالث للفرقة الأولى قد ورد أمر تلغرافى بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ٩٣ من حضرتى صاحبى الدولة ناظر الجهادية وقائد وارنة بقيام الآلاى الثالث الموجود تحت قيادتكم إلى وارنة وقيام أورطة من آلاى سوارى غارديا الأول إلى جهة شمنى اليوم . وحيث أنه طلب تلغرافياً إلى دولة القائد المشار إليه إرسال الخمس عشرة عربة اللازمة لحملته أورطة السوارى المذكورة ولم ترد بعد فلعدم تأخير سفر الأورطة المذكورة اليوم كمنطوق الأمر العالى قد بادرت بتحرير هذا إلى حضرتكم لأجل أن تعطوا عدد ١٥ عربة من العربات الموجودة فى آلاياكم وأما العربات التى تلزم لحملة آلايكم فجار إعدادها بمعرفة الحكومة . فعند ورودها يصير تحميل المهمات والأدوات والجبخانة الخاصة بالآلاى وقيامكم حالا مع الآلاى مساء اليوم إلى وارنة .

برقية رقم ٢٦٢

فى ٢١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة

رداً لما ورد فى ٢١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) أعرض بأنه وإن كان عرض تلغرافياً مرتين بخصوص إرسال ال ١٥ عربة اللازمة لحملة الأورطة التى ستقوم من السوارى إلا أنه نظراً لعدم ورودها إلى الآن وتعذر إيجاد عربات هنا قد أعطيت ال ١٥ عربة اللازمة للأورطة المذكورة من آلاى

البيادة الثالث . وأما العربات اللازمة للآلاى فقد طلبت من الحكومة وجار إعدادها فلدى ورودها سيصير إخراج الآلاى المذكور أيضاً إلى الطريق مساء كالمعتاد والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٦٣

فى ٢١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة

رداً لما ورد فى ٢١ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧ م) أفيد بأن أورطة السوارى قد أوقف قيامها لحين صدور أوامر أخرى . وأن آلاى البيادة الثالث على وشك القيام . ولكن نظراً لعدم ورود العربات التى سبق طلبها مرتين للأورطة التى أوقف قيامها قد أعطيت لها العربات من الآلاى المذكور كما سبق العرض عن ذلك . وبما أن إيجاد العربات هنا متعذر وأن الجبخان والأشياء التى كان أحضرها الآلاى المذكور معه والتى أحضرت فيما بعد تدريجياً لايمكنه أخذها معه الآن دفعة واحدة . فبناء عليه أفوض لدولتكم الأمر فى إعادة العربات السابق أخذها منه إليه ثانياً لأجل نقل المهمات معه . والأمر مفوض .

برقية رقم ٥٠٧٨

فى ٢٢ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

بما أن الميرآلاى شوقى بك وصل إلى طرفكم العالى مع أورطتين وأنه يوجد معه مقدار كاف من العربات — ٦٤٣ ، ٣٥٩ ، ٦٩٨ ، ٤٣٥ ، ٣٢٥ ، ٧٢٤ ، ٧٠٠ ، وأخذوا اللازم من العربات المذكورة — ٥٦٩ ، ٥٤٣ ، ١٢٧ ، ٥٢٤ ، ١٤٤ ، ٨١٢ ، ٧٨٠ رأساً ٤٤٩ ، ٩٤١ ، ١٤٠ وإجراء العمل. ونوصيكم بإفادة هذا الطرف بنتيجة الخبر .

برقية رقم ٥٦٦

فى ٢٢ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قائمقامية بالجق

إذا كان بلوك السوارى النظامى الموجود فى بالجق وبلوك قاسم أفندى

يوزباشى المعاونة الذى ذهب من هنا لم يقوما بعد إلى الأمام لأجل الاستكشافات فيجب إرسالهاحالا أىأن يذهبا إلى [متقالية] تدريجياً متبصرين وأن يستكشفوا أطراف طوزله وأنهم فىحالة عدم أخذ أخبار عن الروس أن يتوجهوا إلىطوزله ومنها يستكشفوا أحوال كوستنجة إذا تبين أن الروس انسحبوامن كوستنجة فيذهبون إلى كوستنجة وأن لا يدخلوها بل يبقوا فى خارجها . وأنهم إذا أرادوا الذهاب إلى قرية أنطولى لجلب المياه نبهوا على ضباطهم بأن يستصحبوا عدداً كبيراً من الأهالى معهم وأن يكونوا على حذر من الألغام وما شابهها . وبما أن هدايت باشا سيكون موجوداً بجهات (ترويان) من الجهة اليسرى فبلغوه بالمخابرة ما يتبين من الاستكشافات وأما فى حالة قيام البلوكين فيرسل هذا التلغراف سريعاً مع رجال مخصوصين من سوارى الضبطية لغاية الجهة الموجودون بها وتسليمه إليهم لإجراء مقتضاه ونوصيكم بأن يكون ذلك بطريقة سرية .

برقية رقم ٢٦٧

فى ٢٢ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة العلية

جواباً على ما ورد فى ٢٢ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧ م) أعرض أن شوقى بك وصل مع العساكر (١ جى بيادة غارديا) سالماً وأن محمود سامى بك (١ جى سوارى غارديا) قد سافر مع الأورطة سريعاً طبقاً لإرادتكم العلية . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٦٨

فى ٢٢ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

بالشفرة إلى قيادة وارنة

جواباً على ما ورد فى ٢٢ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧ م) أعرض أنه لا توجد هنا أخبار قط تدل على مرور جيش العدو من [ايرائيل] وفقط يؤخذ من الحوادث هنا أن العدو جار إنزال مدافعه الكبيرة ثانية فى المحل الذى أخرجت منه بكوستينجة وأنه وضع فى بعض طرقها ألغاماً كما وضع فى البحر طوربيد وأن الموجود لديه طابور واحد تقريباً من عساكر البيادة ولا يعلم مقدار

الطوبجية ومع ذلك فقد أخرج فى يوم ١٩ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) يوزباشيان مع بلوكين من النظامية والمعاونة من بالحق إلى الأمام للاستكشاف كما أن اليوزباشى أرسلان أفندى ذهب مع فصيلة من المعاونة من ثلاثة أيام إلى [ملجوه ورسوه] منجهة الشمال وأن هدايت باشا قام اليومأيضاً من الوسط مع فصيلة من المعاونة وكل تقرير يرد من الموما إليهما سأعرضه على دولتكم . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٦٩

فى ٢٢ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة

بما أن عدم وجود عربات فى طوابير غارديا التى حضرت اليوم سيكون سبباً لتأخيرها حين الحاجة إليها . وأن العربات التى أخذها آلاى البيادة الثالث (١ جى فرقة) معه البالغ مقدارها عدد ٥٨ عربة منها عدد ٢٨ من ذات الحصانين وعدد ٣٠ من التى تجر بثورين هى ملك الفرقة فألتمس صدور أمركم العالى بسرعة إعادة هذه العربات إلى هذا الطرف لشدة اللزوم إليها وفى حالة عدم إمكان ذلك إرسال بدلها من وارنة والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٧٠

فى ٢٣ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة

بما أن ال ٢٢٣ صندوق من الجبخانة التى تركتها الأورطة الثالثة لآلاى البيادة الثالث (١ جى فرقة) هنا على أن ترسل إليها تقضى الضرورة بإبقائها هنا بمثابة احتياطى لأورطة غارديا . فقد استصوب إبقاء الصناديق المذكورة هنا على أن يستعاض عنها بغيرها من وارنة . فاقتضى عرضه على دولتكم برجاء الإحاطة .

برقية رقم ٢٧١

فى ٢٣ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

بالشفرة إلى قيادة وارنة

جواباً على ما ورد فى ٢٢ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) أعرض أنه مع علم دولتكم بأهمية هذه الجهة فإنه أرسل إلى شمنى جميع الطوابير النظامية الموجودة ولم يبق هنا إلا الأربعة بلوكات المطلوبة . وأما الطوابير الباقية هنا فكلها من الرديف ومشتتة وسيعلم لدولتكم مقدارهم من التقارير الجارى تقديمها يومياً وعلاوة على ذلك فإن البلوكات المذكورة موجودة فى مأموريتها بالجهات الأمامية كما اقتضت بذلك الإرادة السنية الصادرة وبناء عليه فلا يمكن إرسالها والحالة هذه فمع الموافقة أرجو إرسال الأربعة باوكات كمالة الطابور الموجود بوارنة إلى هنا .

برقية رقم ٢٧٣

فى ٢٤ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

بالشفرة إلى قيادة وارنة

جوابا على ما ورد فى ٢٤ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) أعرض أن التأخير الذى حصل فى إرسال الأربعة بلوكات لم يكن من قبيل التردد فى إرسالها وفقط أنى مدين على كل حال لأن أعرض لدولتكم أهمية موقع هذه الجهة وأحوالها . ومع ذلك من حيث أنه سبق أن أرسل مقدار من عساكر البلوكات الأربعة المذكورة لحراسة مدفع الكروب الذى أخرج مع فصيلة الاستكشاف الموجودة بمعية هدايت باشا اتباعاً للإرادة السنية الصادرة من رياسة كتاب المابين الهمايونى المبلغة لنا من دولتكم قبل ورود أمركم السامى وعليه فسيرسل الباقى من البلوكات المذكورة غداً إلى وارنة وعند عودة الموجودين فى المأمورية سيرسلون أيضاً حسب الأمر . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٧٤

فى ٢٤ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

أعرض لدولتكم أن اليوزباشى أرسلان أفندى الذى كان أرسل إلى جهات [ملجوة] للاستكشاف قد عاد اليوم وقدم تقريراً فسنرسله غداً مع الورقة الواردة من هدايت باشا . وأنه لم ترد إلى الآن معلومات من بالحق من فصائل

الاستكشاف الموجودة هنا مع يوزباشية السوارى فعند ورودها سأقدمها إلى أعتاب دولتكم . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٧٣

فى ٢٥ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة وارنة

بما أن عبدكم اليوزباشى أرسلان أفندى الذى كان أرسل للاستكشاف بجهات ملجوة قد حضر لمركز الفرقة فى يوم الجمعة الموافق للخامس عشر من الشهر العربى الحالى وقدم تقريراً ، فأتشرف بأن أرفعه إلى مقام دولتكم مع الورقة الواردة من عبدكم سعادة هدايت باشا للاطلاع عليها والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٨١

فى ٢٦ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قائمقامية بالجق

جواباً على ما ورد فى ٢٦ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧ م) نفيد بأن العدو الذى قيل إنه قادم إلى بالجق وبازارجق بقوة كبيرة هو عبارة عن فصيلة واحدة وأنها صادفت إحدى فصائلنا الصغيرة بقرية جركس واشتبكت معها فى القتال فتكبد العدو نحو ثلاثين قتيلا وكانت خسارتنا شهيداً واحداً وثلاثة جرحى . وقد أخبرنا بذلك فصائلنا الكبيرة الأخرى المخصصة للاستكشاف . وحيث أنه سبق أن عمل استكشاف عن فصيلة العدو من الجهات التى ستمر منها مع اتخاذ التدابير اللازمة لذلك فبإذن الله تعالى عند التقائها بفصيلتنا الأخرى سنقضى عليها القضاء المبرم كما هو أملنا القوى فى قدرة الله تعالى . فنوصيكم بأن تفهموا الأهالى بأن لا يضطربوا قطعاً وأن لا يوجدوا معهم أحداً من عيالهم وأولادهم عند خروجهم لحصد مزروعاتهم وأن يكونوا مسلحين دائماً عند حصاد مزروعاتهم بالقرية وأن يكونوا شديدى الحذر متبصرين فى حركاتهم وأن لا يوقعوا الاضطراب بين الأهالى بمجرد رؤيتهم بضعة أشخاص من العدو قائلين إن العدو قادم بعدد عظيم . وكما أن الأهالى عند التقائهم بفصائل

صغيرة كهذه من العدو يجب عليهم أن يحاربوهم وأن ينكلوا بهم بقدر الإمكان وأنه عند استكشافهم حقيقة مقدار العدو والوقوف على حركاته حينذاك يجب عليهم أن يعطوا أخباراً صحيحة بدون إحداث جلبة إلى الحكومة المحلية أو إلى فصائل الاستكشاف الموجودة فى أقرب جهة .

برقية رقم ٢٨٢

٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى متصرفية وارنة

جواباً على ما ورد فى ٢٦ أغسطس سنة ٩٣ أعرض أن العدو الذى قيل أنه قادم إلى بالجق وبازارجق بعدد كبير هو عبارة عن مفرزة واحدة وأنها صادفت إحدى فصائلنا الصغيرة بقرية جركس واشتبكت معها فى القتال فتكبد العدو نحو ثلاثين قتيلا وكانت خسارتنا شهيد واحد وثلاثة جرحى . وحيث أنه سبق أن عمل استكشاف عن فصيلة العدو من الجهات التى ستمر منها مع اتخاذ التدابير اللازمة لذلك فبإذن الله تعالى عند التقائها بفصيلتنا الأخرى ستوقع بها فصيلتنا خسائر جسيمة كما هو أملنا القوى فى قدرة الله تعالى هذا مع الإحاطة بأن مفرزة العدو قد تقهقرت وعادت من قرية جركس وأننا أبلغنا ذلك إلى قائمقامية بالجق وأصدرنا التعليمات اللازمة تلغرافياً .

برقية رقم ٢٩١

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة طونه العامة

بموجب الإرادة السنية والأوامر العلية الصادرة قد أرسل حسب المعتاد فى يوم الأربعاء الموافق ٢٢ أغسطس سنة ٩٣ بمعية المير اللواء هدايت قائد عساكر المعاونة فصيلة مكونة من عدد ٢٤ سوارى مصرى والباقى من عساكر المعاونة لأجل الاستكشاف وقد عاد سعادته ليلة أمس إلى مركز الفرقة . وقدم تقريراً يتضمن أنه أرسل فى يوم السبت إلى جهة قره ياتى عدد ١٩ نفراً من التاتار ومن أفراد نوغاى وأنه فى أثناء الاستكشاف الذى أجروه صادفوا بلوكاً من الروس فاشتبكوا معه فى القتال مدة ساعتين وصدوه . وبعد أن

عادت الفصيلة المذكورة علم من الأخبار الواردة أنه وصل إلى قرية بيرام داده عدد كبير من بلوكات الروس وأنهم أرسلوا من هناك كشافة منهم إلى قرية جالحارجة . فلأجل التحقيق أرسل فى الليلة المذكورة بضعة أنفار للاستطلاع فأخبروا بأنهم شاهدوا نحو ١٢ نفراً من العدو بجهات طقوز أغاج وأنهم أمضوا تلك الليلة بغاية اليقظة كأنهم فى حالة حرب وبعد إجراء الاستكشافات اللازمة فى مطلع الفجر واصلوا السير حتى وصلوا قبل طلوع الشمس إلى قرية جالحارجه الواقعة على مسافة ساعتين من قرية جركس الموجود بها العدو وشتتوا أفراد العدو الموجودين هناك وغنموا منهم الأشياء التى تركوها مثل قبعات وغيرها وقتلوا حصاناً من خيولهم وطاردوهم لغاية الجهة الغربية من بيرام دده — وفى اليوم المذكور حوالى الساعة ١٢ ، أخبرت فصيلة الاستكشافات بأن العدو أحضر حوالى الساعة الواحدة قوة تزيد على ألف من عساكر السوارى والبيادة وكمن بها فى طريق ترديانلى وفى الحال وزع عساكر نشانجية من رماتنا وتقدموا إليهم وأن تيمور جان وأحمد أغا القزاق ورجال فصيلتنا قد هجما وحدهما على عشرين قوزاقاً من سوارى العدو كانوا يسعون فى أخذ الأهالى من القرى وأجبروهم على ترك الأهالى الذين أخذوهم من قرية مهموزلى بدون أن يصاب أحد من الأهالى بأذى ثم طاردوا هؤلاء القوزاق لغاية الجهة الغربية من مقر قوتهم وأنه بدئ فى القتال على مسافة تتجاوز نصف ساعة من خط امتداد قوة الرماة التى أخرجها الروس حينذاك سحب الروس جناحهم الأيسر إلى الوراء وبدأوا فى إطلاق نار مدافعهم . وفى هذه الحالة اضطررنا على إجراء حركة تقهقر للرجوع إلى الوراء واحتلال النقط المهمة وقد تم ذلك وشرع فى الدفاع ودام القتال مدة ساعتين . وأنه لما علم أن الجبخانة التى يتجاوز مقدارها عن المائة الموجودة بيد الأنفار على وشك الانتهاء . وأن العدو آخذ فى تقديم جناحى [رمان] وأجرى حركة التفاف على جناحنا الأيمن وهجم عليهم وإن كان ترك نحو ٢٥ قتيلا إلا أنه نظراً لقلة الجبخانة ولأن عدد العساكر المعاونة المدافعين عبارة عن ٢٠٠ من التاتار قد أخذوا فى الرجوع إلى القرية وأن العدو أيضاً استمر يتعقبهم وفى الحال أرسل عليهم بلوك مكون من نحو أربعين نفراً من سوارى العساكر المصرية الشاهانية لمقاومة العدو والدفاع عن الفصيلة ففر العدو بعد أن ترك نحو عشرين قتيلا ولكن نظراً لأن العدو أجرى حركة

التفاف على جناح المعاونة الأيسر بجهة طهوزاغاج قد انسحبوا أيضاً من هناك ورجعوا إلى قرية قره أغاج وفى هذه المعركة خسرنا نحو ١٥ شهيداً ونحو ثمانية جرحى بجروح خفيفة وقتل بضعة خيول وخسر العدو على وجه التحقيق مقدار ستين قتيلا وعدداً غير معلوم من الجرحى وأن عبد الوهاب أفندى ملازم سوارى العساكر المصرية الشاهانية والعساكر بالأخص عثمان بك يوزباشى ضبطية طوبلجة وتيمورجان أغا والقزاق أحمد وقاسم أفندى يوزباشى المعاونة والحاج أحمد توغاى الذى جرح من ذراعه الأيمن وبشير توغاى وساهندى حامل العلم الذى جرح والحاج يوسف أفندى توغاى والجاويش على الكردى قد أبرزوا شجاعة فوق العادة فى هذه المعركة فأعرض لدولتكم ذلك برجاء إحاطتكم علماً به والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٩٢

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى رئاسة مجلس إدارة وارنة

إنى سررت جداً من التلغراف الوارد لى من عساكر المعاونة الشاهانية ومن مساعيكم الجليلة . وبما أن أشغال الاستحكامات قد انتهت فأهدى سلامى إلى بكباشية طوابير المستحفظة والرديف وإلى إخواننا الموجودين تحت السلاح صغيراً كان أو كبيراً وبما أنهم مستعدون لتضحية أرواحهم فى سبيل الملة والوطن والدولة ، فأوصيكم بتعليمهم استعمال الأسلحة المعطاة إليهم وأيضاً تعاليم الجرخجية[1] علاوة تعاليم البلوك والطوابير وكذلك تعليمهم المناورات الحربية وسرعة الحركات العسكرية فى الميدان وتدريبهم يومياً بطريق التناوب تعاليم الضرب على الهدف وبعد ذلك يصير توزيع خمسة خراطيش على كل منهم لأجل إظهار استعدادهم ومعلوماتهم بالفعل فى سبيل الميدان وتكليفهم إصابة الهدف على مسافات مختلفة ليكون ذلك موجباً لمفخرتهم وعند ذهابهم بهيئة جرخجية إلى الأمام علموهم أيضاً أن يطلقوا رصاصتين على الهدف الذى هو عبارة عن عرض أربعة ألواح من الخشب وإنى منتظر منكم إفادتى عن مقدار الموجودين من السوارى النظامى وغير النظامى .

---

(١) الرماة المهرة .

برقية رقم ٢٩٣

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قائمقامية بالجق

هل العمل جار على حسب ما أوصيتكم به فى التلغراف السابق ؟ وما أخبار العدو فى ذلك الطرف وهل فصيلتكم المخصصة للاستكشاف مستمرة فى طوافها وإذا كانت مستمرة فى طوافها فلغاية أية قرية تصل ؟ وما هى المعلومات التى تعطيها عند عودتها ؟ فأخبرونا ما هى الأحوال الحاضرة هناك وبما أننا سمعنا أن مأمور فصيلة الاستكشاف التى أخرجت هو من العساكر المصرية الشاهانية فما هو اسمه فأخبرونا به وبأى خبر يؤخذ عن هذه الفصيلة وأخبرونا أيضاً عن السبب فى عدم حضور قسطندى الجوربه جى الينجه لى من أعضاء قضاء مجيدية سابقاً إلى الآن . وإنى فى انتظار الجواب منكم .

برقية رقم ٢٩٤

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

بالشفرة إلى قيادة طونة العامة

جواباً على ما ورد فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) أعرض أن العدو لما اتصل بعلمه أن الفصيلة التى أرسلت للاستكشاف بمعية هدايت باشا وعادت ليلة أمس صغيرة أرسل فصيلة مؤلفة من عدد كبير من السوارى والبيادة والطوبجية . وأنه مما لا شك فيه أن الفصيلة المذكورة هى نفس الفصيلة التى انسحبت من [ملجورة] كما سبق أن عرضنا لكم اليوم . وعليه رتبنا فصيلة من ثلاثة مدافع شاهانية من عيار أربعة قندلق . و ٢٨٢ سوارى من العساكر المصرية الشاهانية ومن طابورى أرمناك وقطمون الثالث وأخرجت فى المساء إلى الطريق بمعية الباشا المشار إليه ومحمود بك فهمى رئيس أركان حرب العساكر المصرية الشاهانية لإعادة الاستكشاف وتعقب العدو والتجول والطواف فى الجهات اللازمة . فعند عودة الباشا المومى إليه سنعرض لدولتكم مايتبين من الاستكشاف وأن المخلص لكم موجود الآن ببازارجق وسأتوجه إلى وارنة عند حضور زكريا باشا والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٩٥

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة طونة العامة .

أعرض لدولتكم أنه بعد أن حضر هدايت باشا مع فصيلته ليلة أمس إلى المركز ، أخرج فى الحال مع فصيلة مؤلفة من السوارى من العساكر المصرية الشاهانية ومن جماعة جعفر بك [الابارة] واسماعيل بك الجركسى من المعاونة لتعقب العدو والوقوف على أحواله مرة أخرى وقد وصلوا صباحاً إلى قرية جركس الموجود بها العدو . وإننا وإن كنا بيّنا لكم فى التلغراف المرسل اليوم أن العدو أصيب بخسارة ستين قتيلا إلا أنه لما عاد رجال الفصيلة أفادوا بأنهم عند وصولهم إلى تلك الجهة شاهدوا أن العدو نقل جرحاه الكثيرين وأنه ينسحب متجهاً إلى قرية تردبانلى وأن خسارته تتجاوز المائة ومع ذلك فإن مقاومة فصيلتنا الصغيرة لفصيلة العدو التى يتجاوز عدد أفرادها الألف وإجبارها على الانسحاب مع تكبد مقدار كهذا من القتلى والجرحى كل ذلك من ألطاف الله ومما أظهرته العساكر المنصورة الشاهانية من الشجاعة كما سبق العرض . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٩٦

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة طونة العامة .

● جوابا على ما ورد فى ٢٧ أغسطس سنة ٩٣ أن المعركة التى حصلت بقرية جركس الواقعة على مسافة سبع ساعات من بازارجق بين فصيلتنا الصغيرة وبين فصيلة العدو الكبيرة قد خسر فيها العدو ولله الحمد قتلى يزيد عددهم على المائة وجرحى كثيرين وخسرنا ما يقرب من ١٥ شهيداً ونحو ثمانية جرحى كما بينا تفصيلات ذلك فى التلغراف السابق إرساله إليكم والأمر مفوض

برقية رقم ٥٣٠٤

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من قيادة عموم طونة

بما أن المير اللواء هدايت باشا قد بقى وحده فى بازارجق وحيث أنه قد استنسب بعد المذاكرة مع دولة حسن باشا تعيين المير اللواء زكريا باشا لقيادة بازارجق . فالمرجو التكرم بإجراء المقتضى لذلك .

برقية بدون رقم

فى ٢٧ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

أعرض أنه كما يعلم من الاطلاع على التلغراف الوارد من القيادة العامة لفيالق طونة والمسطرة صورته أعلاه أنى سأسافر غداً بمشيئة الله تعالى إلى بازارجق .

برقية رقم ٢٩٩

فى ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى المير اللواء زكريا باشا بوارنة

جوابا على ما ورد فى ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ أفيد أنه ورد لى تلغرافكم العالى بأنكم ستقومون غداً من وارنة إلى بازارجق ولعدم ذكركم فيه طلب الإذن للترخيص لكم اكتفينا بعدم الرد . وعليه فلا مانع من تشريفكم بدون حاجة إلى الترخيص .

برقية رقم ٣٠٥

فى ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى المير اللواء زاهد باشا بشمنى

جواباً على ما ورد فى ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ نفيد بأنه موجود ببازارجق من عساكر الطوبجبة المصرية الشاهانية بطرية كروب واحدة من عيار ستة (قندلق) وأما مقدار البطريات الموجودة بوارنة يعلم لكم من التقرير المعتاد تقديمه إلى معسكر شمنى فى كل خمسة عشر يوماً .

برقية رقم ٣٠٧

فى ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى حضرة صاحب الدولة رءوف باشا بشمنى

جواباً على ما ورد فى ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ أعرض أنه جاء فى التلغراف الوارد إلى عبدكم من متصرفية وارنة فى ٢٧ أغسطس سنة ٩٣ أن سوارى العدو موجود بقرية يعقوبلر وأنه جاء فى التلغراف الوارد لفخامتكم أنه موجود بقرية جوبان ولكن تبين من التلغرافين الواردين لى على التعاقب من قائمقامية بالحق جواباً على تلغراف المرسل إليها أنه لم يحصل هناك أى حادث ساعة ولغاية قرية دعوالى وقرية سليمانلق وفقط أن الأهالى عند ما رأوا فصيلة الاستكشاف التى أخرجت أول مرة من بالحق أوهموا بأن العدو قادم وتسببوا فى اضطراب العموم ولكن تبين أخيراً من التحقيقات بالحق ومتصرفية وارنة بمنع مثل هذه الأراجيف الكاذبة المسببة لاضطراب الجمهور وبالقبض على كل مستمر فى الذهاب على التوالى لأجل الوقوف على أحوال العدو وحركاته ومع أننا عرضنا مع العدو هذه المرة فقد أرسلنا فى الحال فصيلة استكشاف مؤلفة من مقدار كاف من العساكر بمعية هدايت باشا قائد العساكر المعاونة ومحمود فهمى بك رئيس أركان حرب العساكر المصرية الشاهانية(١). ويؤخذ من إفادة الخبر الذى جاء فى الصباح من اليوم نفسه أنه حضر إلى الباشا المشار إليه شخص من جهة متقالية وأخبره بأنه لم يحصل هناك أى حادث. كما أنه لم يرد أى أثر للعدو لغاية قرية قره أغاج الموجودون بها وكذلك جاء فى الخطاب الوارد فى هذه الساعة من الباشا المؤما إليه أنه خرج بطريق بالحق واكتشف جهات كوستليجه وقاسم كورى وقوب حرمان وحصارلق ولم ير أى أثر للعدو ولم نتهاون قط فى استطلاع أحوال العدو وأننا مداومون على إخراج فصائل استكشاف متعددة طبقاً للقاعدة الحربية وقد أرسل نوزى بك مع جماعته إلى جهة ملجورة على أن يكونوا جناحاً أيسر وسنعرض على دولتكم أيضاً كل ما يرد منهم من الأخبار على حدة وإذا بدرت من العدو أى حركة اعتداء مثل هذه فعلى كل حال سأخبر بها فخامتكم كما هو المفروض على ذمتى . والأمر مفوض .

---

(١) هو اللواء محمود فهمى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى عام ١٨٨٢ .

برقية رقم ٣٤٥

في ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من المير اللواء المصرى زكريا باشا بوارنة . قد كنت عرضت لكم بالأمس تلغرافاً أنى سأسافر من هنا إلى ذاك الطرف . وأنى منتظر لما سيصدر رداً لتلغرافى ومهيأ للقيام فأرجو التكرم بالإفادة .

برقية رقم ٣٠٨

في ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى حضرة صاحب الدولة رءوف باشا بشمنى

جواباً على أمر دولتكم التلغرافى المؤرخ ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ أعرض أن زكريا باشا مير لواء العساكر المصرية الشاهانية قد حضر إلى هنا مساء اليوم وأن المخلص لكم موجود ببازارجق انتظاراً لأوامر دولتكم الأخرى والأمر مفوض .

برقية رقم ٥٣٦٢

في ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من المير اللواء زكريا باشا بوارنة أعرض أنى سأسافر إلى طرفكم العالى حوالى الساعة السادسة من يوم الثلاثاء هذا .

برقية رقم ٥٣٦٥

في ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من رئيس مجلس الإدارة العسكرية بوارنة .

أعرض أنه قد صار تبليغ مضمون تلغرافكم المؤرخ ٢٧ أغسطس سنة ٩٣ (١٨٧٧ م) إلى الطوابير بمعرفة أركان الحرب . وأنه يوجد هنا عدد ١٣٠

نفراً من سوارى العساكر المصرية الشاهانية والموجود منهم عدد ٨٨ نفراً عدا الموزعين هنا وهناك وأن ال ٧٨٠ نفراً من المائة نفر من السوارى النظامى يتجولون ويطوفون فى القرى لأجل تأمين الأهالى وإسكان المهاجرين وجار استخدامهم بصفة أنفار منهم فى الأمور العسكرية المهمة .

برقية رقم ٥٣٧٦

فى ٢٨ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من جميل بك رئيس الإدارة العسكرية بوارنة .

أعرض أن سعادة المير اللواء زكريا باشا قد قام اليوم فى الساعة السادسة متوجهاً إلى بازارجق .

برقية رقم ٣١٣

فى ٢٩ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى قيادة سلسترة

جواباً على تلغرافاتكم العلية فى ٢٥ ، ٢٩ أغسطس سنة ٩٣ أعرض أنه فى يوم الأربعاء الموافق للعاشر من الشهر الرومى كانت أخرجت من هنا مفرزة العدو التى انسحبت من [ملجورة] على ما أظن والتى يتجاوز عدد أفرادها عن ألف نفر من عساكر السوارى والبيادة والطوبجية وأن العدو اضطر إلى التقهقر بعد أن خسر ما يزيد عن المائة من القتلى عدا الجرحى وخسرنا ما يقرب من خمسة عشر شهيداً وثمانية جرحى وأن مفرزتنا عادت منصورة إلى المعسكر . وبناء عليه ولأجل تعقب العدو قد أخرج ثانياً مع الباشا المومى إليه طابوران من البيادة وعدد ٢٨٢ من السوارى وثلاثة مدافع كروب وقد علم من الخطاب الوارد من سعادته بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ بأنه اكتشف جهات كوستليجه وقاسم كوى وقيو حرمان وحصارلق ولم ير أثر للعدو وأنه بات فى قرية قره أغاج . ولنا أمل فى أن يكون قد تقدم إلى الأمام اليوم . وبما أن نورى بك وطونلستان بك قد أرسلا مع جماعتهما على أن يكونوا جناحاً أيسر فعند علم دولتكم بذلك

أن تتكرموا بإعطاء معلومات كهذه إلى فصائل الاستكشاف التى ستخرج من قبلكم لتكون هذه الفصائل متيقظة فى حركاتها والأمر مفوض .

برقية رقم ٣١٩

فى ٣٠ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

بالشفرة إلى قيادة طونة العامة ودولة رءوف باشا وقيادة سلسترة

قد كنا عرضنا التقرير السابق وروده من هدايت باشا إلى مقام دولتكم والآن نعرض التقرير المقدم من الباشا المشار إليه اليوم إلى مقامكم السامى وهو يتضمن أنه فى فجر ليلة الأربعاء التى استراح فيها بقره أغاج جعل فصائل الاستكشاف يتجولون ويطوفون بجهات اليمين واليسار من مركز المعسكر مع بعد المسافة بين كل جهة وأخرى من تلك الجهات نحو ثلاث ساعات وأنه بعد ذلك بساعة توجه سعادته وبمعيته نحو مائتين من السوارى والمعاونة ومعهم البكباشى المصرى فرهاد مهيب أفندى إلى قريتى جركسلر ومهموزلى الواقعتين على بعد ثلاث ساعات من قره أغاج فأجرى هناك الاستكشاف ودفن أيضاً الشهداء وذهب من هناك إلى مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات فى الجهة الأمامية أى لغاية بيرام دده ونرديانلى بتار ولم يشاهد أى أثر للعدو . ثم عاد فى المساء إلى المركز بقره أغاج وقد ظهر له مما أجراه من التحقيقات ومما شاهده أن الروس قد قتلوا وجرحوا نحو خمسة عشر نفساً من المسلمين والمسيحيين من أهالى القرى وبالأخص أنهم جرحوا امرأتين من ذراعيهما وقطعوا جثث الشهداء إرباً إرباً وسلخوا جلود وجوه بعضهم كما تبين له أيضاً من التحقيقات التى أجراها مع الاسراء الذين أخذهم الروس معهم من أهالى القرى وأحضروهم إلى قرية بليلار مقر معسكرهم ثم أخلوا سبيلهم أن بعض بلغاريى بازارجق يشتغلون بالتجسس للعدو فى ذهابهم وإيابهم وأن سعادته علم أيضاً أن قوة سوارى العدو الموجودة بجهة بليلار تتجاوز الألف نفر وأنه يوجد بجهتى محمود قيو وملجوه آلاى سوارى . وإن كان يقال بين أفراد الروس أن مشاتهم موجودة بجهتى مجيدية وكوستنجية إلا أنه لم يمكن التحقق من عددهم وأنه اتصل بسمع سعادته أن الروس عازمين أيضاً على إخراج كشافة قوية من السوارى بعد بضعة أيام وأن قوتهم الموجودة فى هذه الحرب هى مدفعان وما ينيف عن الألف سوارى

وأن سعادته أخرج فصائل للاستكشاف طبقاً للأصول وأنه بعد عودة هذه الفصائل سيعود سعادته مع قوة المفرزة إلى مركزه فيبلغ لدولتكم ذلك ونحيط علمكم بأننا قد أصدرنا التعليمات اللازمة لمن يلزم بالقبض على الجواسيس السابق ذكرهم والأمر مفوض .

برقية رقم ٣٢٠

فى ٣٠ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

إلى حضرة صاحب الدولة حسن باشا بجهة إسكى . جواباً على تلغراف دولتكم المؤرخ ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ أعرض بأنى تسلمت أمر دولتكم التلغرافى المؤرخ ٢٨ أغسطس سنة ٩٣ الخاص بطلب اليوزباشى أرسلان صدقى أفندى فى الساعة الخامسة من ليلة ١٩ الشهر المذكور (هكذا التاريخ فى الأصل) وبما أن الأفندى المذكور موجود الآن فى الاستكشاف فقد طلبنا إلى المير اللواء زكريا باشا أن يرسله بمجرد حضوره إلى المعسكر وإنى وإن كنت موجود الآن ببازارجق إلا أنى سأسافر غداً إلى وارنة . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢١٧

فى ٣١ أغسطس سنة (١٨٧٧ م)

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من قيادة بازارجق

كما هو معلوم لسعادتكم أن طابورين فقط من آلاى غارديا البيادة الثانى موجودان بوارنة مع البكوات الأميرالاى والقائمقام ويمكن إدارة الطابورين المذكورين الآن بواسطة الميرالاى . وحيث أنه غير خاف على سعادتكم درجة أهمية أعمال هذا الطرف وضرورة وجود القائمقام خورشيد بك هنا فمع الموافقة ألتمس إرساله إلى هنا غداً والأمر مفوض .

برقية رقم ٧٠

فى ٢٠ أغسطس سنة (١٨٧٧ م) أول سبتمبر سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من صاحب الدولة حسن باشا بمرتفع عشقلر . فقد جاء فى التلغراف الوارد من سعادة عثمان نجيب باشا أن السبعة

طوابير من العساكر الشاهانية والمصرية الشاهانية التى قامت من روسجق قد حاربت العدو بجهة جعلك ديوان قاض كوى أمس من الصباح لغاية الساعة الثانية . فأجبرته على الفرار منهزماً . ودخلت قاضى كوى منصورة . وأن العدو خسر أكثر من مائتى قتيل ومثليها من الجرحى وغنم منه أكثر من مائتى بندقية وأشياء أخرى . هذا وأن فيلقنا قد حاز نصراً مبيناً فى الحرب العظيمة التى دارت يوم الخميس فى قرى [صيرر] وقره حسنلر وسادينه . وأجبر العدو على الفرار منهزماً من هناك وغنم منه عدد ١٨٠٠ بندقية ومثلها معاطف مطر ومدفعاً وثلاث عربات محملة مهمات وأشياء أخرى فقياساً على ذلك تكون خسارة العدو كبيرة لا تحصى . فأبشركم بذلك .

برقية رقم ٧٣

أول سبتمبر ١٨٧٧ م .

صورة تلغراف وارد إلى سعادة الفريق راشد باشا بوارنة من صاحب الدولة حسن باشا القائد المصرى بقرية عشقلر

إذا كانت وردت خطابات أو جرائد باسمنا أو بأسماء الضباط الموجودين بمعيتنا فالأمل إرسالها مع ياورنا مسيو سورمانى القادم إلى هذا الطرف .

برقية رقم ٢٩٦

أول سبتمبر سنة ١٨٧٧ .

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من قيادة بازارجق .

نظراً لشدة الحاجة هنا إلى مدفعين من المدافع الجبلية من البطرية المصرية الشاهانية الموجودة فى ذلك الطرف . نرجو صدور الأمر لمن يلزم بإرسالها لأجل إيجادهما مع طابورى البيادة المصرية الموجودين هنا واستعمالها عند اللزوم والتكرم بالإفادة . والأمر مفوض .

برقية رقم ٣٩٣

فى ١٤ أيلول سنة ٩٣ (الموافق ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٧) .

صورة تلغراف وارد إلى سعادة راشد حسنى باشا بوارنة من صاحب

الدولة حسن باشا بمعسكر جمعه .

يلزم حضور الميرالاى خورشيد عا كف بلك إلى يكى كوى ومنها إلى هذا الطرف .

برقية رقم ١٣٣٤

١٥ أيلول سنة ٩٣ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من طرف مأمور الإدارة فى هزار غراد

جواباً على أمركم التلغرافى المؤرخ ١٤ أيلول سنة ٩٣ الموافق ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٧ م أعرض أن خورشيد عا كف بك توجه إلى جهة يكى كوى الموجود بها حضرة صاحب الدولة حسن باشا .

برقية رقم ٤٤٠

فى ١٧ أيلول سنة ٩٣ الموافق ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧ م

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من المير اللواء المصرى بازارجق

أعرض أنه قد وصل اليوم فى الساعة الرابعة إلى مركز الفرقة المدفعان الواردان من القائمقام خورشيد بك وكذلك الخمسة عشر نفرا من السوارى مع ملازم السوارى الشاهانى .

برقية رقم ٤٩٣

فى ٢٤ أيلول سنة ٩٣ الموافق ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٧ م

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من المير اللواء المصرى قائد بازارجق

أعرض أن فصائل الاستكشاف التى أخرجت من الجناحين الأيمن والأيسر ومن الأمام إلى مجيدية قد عادت مساء اليوم وأخبرت بأنها لم تر أى أثر للعدو والأمر مفوض .

برقية بدون رقم وبدون تاريخ

صورة تلغراف وارد إلى راشد باشا من قيادة وارنة .

سيخرج اليوم من هنا إلى الطريق خمسة طوابير عساكر وبطارية ونصف بطارية مدافع برفقة المير اللواء يوسف شهدى باشا[1] وسيبقى نصف بطارية من ذلك فى دربند كوى والثلاثة طوابير والبطرية الأخرى ستسير إلى الأمام وفقط آمركم أمراً قاطعاً بأن لاتمكنوا العدو فى أى وقت من الأوقات من أخذكم تحت الحصار . حتى إذا أعلمتم بأن العدو القادم هو ثلاث أمثال قوتكم . فاعملوا كل ما فى وسعكم عمله لئلا تقعوا تحت الحصار وانسحبوا إلى الوراء تدريجاً حسب أصول الحرب واحضروا إلى دربندكوى واثبتوا هناك وانتظروا أوامرنا . وإنما يجب أن تخطرونا فى أثناء انسحابكم من بازارجق إلى الوراء .

برقية بدون رقم وبدون تاريخ

صورة تلغراف وارد إلى الفريق راشد باشا من قيادة وارنة

إن الجبخانة التى طلبتموها سترسل إليكم على دفعتين وأن يوسف شهدى باشا سيبيت الليلة فى دربند كوى مع الخمسة طوابير والنصف بطرية مدافع التى ستقوم وسيبقى هناك . وأن السوارى المرسل إلى برادادى لن يمكن إعادته إلى طرفكم لأنه قد ورد خبر بأن العدو سيقوم بحركة هجوم من جهات إيدوس ونظراً لعدم وجود سوارى هنا فإن السوارى المذكور سيحافظ على منافذ نهر قامجى .

برقية رقم ٧٨٦

فى ٣٠ تشرين الأول سنة ٩٣ الموافق ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من المير اللواء قائد بازارجق

بما أن المدعو إبراهيم حسن من أفراد الطابور الثانى من السوارى الأول من العساكر المصرية الشاهانية الموجودة بفرقة بازارجق قد ارتكب عار الفرار لابساً ملابسه العسكرية وحاملا مسدسه . وقد أرسل تلغراف إلى كل من قائمقاميات بالجق وبازارجق وبرادادى وسلسترة بالبحث عنه فالأمل إصدار الأمر لمن يلزم بالتحرى عنه أيضاً فى ذاك الطرف .

---

(١) وزير الحربية المصرية فيما بعد – توفى عام ١٨٩٩ .

برقية رقم ٨١٩

فى ١ تشرين الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٨٧٧ م

صورة تلغراف وارد إلى قيادة وارنة من قيادة بازارجق

أعرض أن المدعو إبراهيم حسن من السوارى الأول المصرى الشاهانى الذى ارتكب الفرار قد حضر اليوم إلى آلايه من تلقاء نفسه . والأمر مفوض .

برقية رقم ٣

فى ٢٣ تشرين الثانى سنة ٩٣ الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٨٧٧

تلغراف إلى قيادة وارنة السامية

بما أنه لا يوجد طبيب فى البطريتين المصريتين الموجودتين هنا وأن الأطباء الموجودين من الأصل غير كاف . فألتمس التنبيه بإرسال طبيب مع الأجزاخانة اللازمة لأجل العساكر الموجودين فى البطريتين المذكورتين والأمر مفوض .

برقية رقم ٨

فى ٢٩ تشرين الثانى سنة ٩٣ الموافق ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٧

تلغراف إلى قيادة وارنة

نظراً لاجتماع طوابير غارديا الثلاثة للبيادة الأول فى بازارجق . فألتمس صدور الأمر بإرسال رضوان أفندى رئيس أطبائها الذى أبقى فى وارنة . وطبيب الطوبجية السابق العرض عنه إلى هنا فى أقرب وقت لشدة الحاجة ولزومهما والأمر مفوض .

برقية رقم ١٢

١ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٣ ديسمبر سنة ١٨٧٧

تلغراف إلى قيادة بالجق

بما أن حضرة صاحب الدولة حسن باشا قائد وارنة قد أمر بتلغراف الوارد لنا فى ٣٠ تشرين الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٣ ديسمبر سنة ١٨٧٧ بمشترى الأغنام اللازمة لجنود الحضرة الملوكية الموجودة بفرقة بازارجق على أن تذبح

فى يوم العيد وتصرف لهم كمرتب لحوم عن يوم واحد وتسوية أثمانها من طرف الحضرة الفخيمة الخديوية حسب المعتاد إجراؤه بمصر . فلدى إحالة الموضوع على مجلس الإدارة أوضح بإعلانه الوارد أنه باعتبار ثمانين درهماً لكل نفر من الأربعمائة والأربعة والستين نفراً من العساكر الشاهانية الموجودين بباجق يكون مجموع مقدار ذلك ثلاثة وتسعون أقة وأن هذا المقدار يعادل ما يتحصل من تسعة أغنام . فبناء عليه يلزم شراء ذلك القدر من الأغنام وذبحها وإعطائها إلى العساكر الشاهانية فى يوم العيد والإفادة بأثمانها مهما بلغ قيمتها على أن ترسل إليكم فيما بعد . وبما أن اللحوم المذكورة معطاة من جانب الحضرة الفخيمة الخديوية بطريق الهدية فيلزم تحرير مضبطها وإرسالها .

برقية بدون رقم

فى ٦ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من صاحب الدولة حسن باشا بوارنة

بما أن العساكر المصرية الموجودة فى روسجق ستجلب إلى هنا . فالأمل التكرم ببذل الهمة فى إخراج ثلاثة طوابير بمهماتها وجبخانتها من طرفكم العالى إلى الطريق فى الحال اعتباراً من الغد وإرسالها إلى هنا فى أقرب وقت ممكن . على أن يرسل بدلا عنها ثلاثة طوابير من العساكر الشاهانية من الفرقة الموجودة فى بازارجق إلى روسجق بطريق وارنة .

برقية رقم ٢٣

فى كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٩ ديسمبر سنة ١٨٧٧

كتاب إلى وكالة اللواء الأول لفرقة بازارجق

بما أن الأمر التلغرافى الوارد من قيادة وارنة العلية بتاريخ ٦ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١٨٧٧ يقضى بجلب العساكر المصرية الموجودة فى روسجق إلى وارنة وبأن يرسل ثلاثة طوابير من العساكر الشاهانية الموجودين بفرقة بازارجق مع سائر مهماتهم وجبخاناتهم إلى روسجق بطريق وارنة بدلا من العساكر المصرية المذكورة تنفيذاً لمقتضى الأمر المشار إليه قد استصوب إرسال طوابير إلى خاصكوى وأزمير وأسكيشهر من لوائكم . وعليه قد

بادرنا إلى تحرير هذا إليكم لتتكرموا بالتنبيه على بكباشية الطوابير المذكورة بإعداد مهماتهم وجبخاناتها من الآن وبإخلاء طرفها من كل ما يتعلق بجهة الإدارة على أن يسافروا غداً الخميس وأن ترحلوها فى صباح الغد مبكراً وسريعاً وإخطارنا بذلك أفندم

حاشية : لأجل أن ترسل الطوابير المذكورة غداً صباحاً على التوالى، يلزم ترحيل طابور خاصكوى أولا ثم طابور أزمير، وبعده طابور اسكيشهر وقد تحررت هذه الحاشية للعلم .

برقية بدون رقم

فى ٧ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٩ ديسمبر سنة ١٨٧٧ م

بدون عنوان

قد كنت أرسلت إلى ذاتكم العلية تلغرافاً بالشفرة أمس لأجل إخراج ثلاثة طوابير من العساكر الشاهانية إلى الطريق وإرسالها إلى هنا لأجل ذهابها إلى روسجق فالأمل سرعة الإفادة عما إذا كان عمل بمقتضاه أم لا وإذا كانت أخرجت إلى الطريق ففى أى وقت أخرجت

برقية رقم ٢٥

فى ١٠ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧

كتاب إلى وكالة اللواء الأول بفرقة بازارجق

حيث أنه علم بأن المحلات المخصصة لإقامة العساكر وكذلك أكشاك الحراس الموجودة فى النقط قد تراكمت بداخلها الأوحال من مياه الأمطار التى هطلت بكثرة . وأن العساكر بسبب ذلك متألمون من شدة الرطوبة فقد حررنا إلى أركان الحرب بمعاينة المحلات المذكورة بمعرفتها وإجراء التحفظات اللازمة لذلك لكل محل تدخل فيه مياه الأمطار وفرش سبلة بداخل الأكشاك المذكورة بمقدار ارتفاع مترين ووضع أغصان من الشجر عليها لمنع الرطوبة مع أركان الحرب وتتكرموا ببذل همتكم العلية فى إصلاح المحلات المحتاجة للإصطلاح حسب المواصفة والتعليمات التى تعطى من أركان الحرب وسرعة العمل على الوجه المذكور بالنسبة للاكشاك لأجل المحافظة على صحة العساكر .

برقية رقم ٢٧

فى ١٠ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧ م

صورة مكاتبة عربية صادرة إلى أركان الحرب

حيث علم بأن الأوحال تراكمت بوارديات العساكر الديدبانية[1] الموجودين بالنقط من كثرة الأمطار ويحدث من ذلك رطوبة مضرة بصحة العساكر فيصير فرش سبلة خيول مقدار مترين داخل أرضية الورديات وتدق دقاً جيداً ويوضع فوق السبلة أيضاً شجر لمنع الرطوبة وإذا كان يوجد أوحال ورطوبة أيضاً داخل الزمالك[2] لسكن العساكر فمن بعد المعاينة تعمل الوسائط اللازمة لمنع ذلك وقاية لصحة العساكر ولزم تحريره على موجب ما ذكرتم وبتاريخه تحرر لكل من حضرات محمد لطفى بك ومحمد شوقى بك للاجرى على حسب التعريفات التى تعطى من طرفكم يكون معلوم .

برقية رقم ٩٦٣٨

فى ١١ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٧

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من صاحب الدولة حسن باشا بوارنة

قد أبلغتنا القيادة العامة أنه عند صدور الأمر بالتقهقر من جانبنا معاذ الله يجب إحراق وتخريب جميع الأماكن الموجودة فى الجهات الموجودون بها مثل الكبارى والطواحين والمحلات التى يستفيد منها العدو فى حركاته ومعيشته وكذلك إحراق الدفاتر الموجودة فى حالة عدم إمكان نقلها وسحب الأهالى المسلمين والمسيحيين أيضاً إلى الوراء إما مع العساكر أو قبلهم . والذين لايرغبون فى الانسحاب يجب إجبارهم على ذلك . فيلزم العمل بمقتضى ما ذكر عند اللازم وإبلاغ ذلك أيضاً من طرفكم إلى القائمقام عبد الرحمن بك الموجود فى بالجق .

البرقية رقم ١٠٠٨٧

فى ٢٤ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٥ يناير سنة ١٨٧٨

---

(١) الحراس (٢) الأكواخ .

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بالجق من دولة حسن باشا بوارنة

بما أنه قد رؤى لزوم جلب القائمقام عبد الرحمن بك الموجود بباجق إلى هنا وتقدمه إلى الديوان الحربى بسبب الورقة التى حررها إلى متصرف وارنة بعبارة باردة من قبيل الإهانة . فالأمل إرسال فرهاد مهيب أفندى البكباشى السوارى الموجود هناك إلى بالجق وإعطائه التعليمات الكافية بموجب التلغراف الشفوى السابق إرساله إلى ذاتكم العلية مشتملا على إجراءاته فى المدة التى سيوجد بها هناك وهى ٨٢٤ ، ٦٣٥ ، ١٧٨ ، ٢٤٢ ، ٤٢٢ ، ٨٩٨ ، ٩٢١ ، ٩١١ ، ٣١٨ ، ٣٥٠ ، وإن كان ٥٣١ ، ١٤٤ ، ٤١٢ ، ٣٤٢ ، ١٨٨ ، ٤٧٣ ، ١٢١ ، ٣١٠ ، ولم يمكنه ولم يمكن نقله ٣٥٩ ، ٩٤١ ، ٦٣٢ ، ٧١٤ ، ٩١٤ ، ٤١٣ ، ٣٩٢ ، ٣٥٢ ، ٣٢٩ ، ٦٨٠ ، ٦٢٤ ، ٥١١ ، ٦٨٣ ، ٣١٤ ، ٢٢٤ ، ٢١٢ ، ٣٥٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥١ ، ٨٣٥ ، ٨١١ ، وإرسال الشعير اللازم لبازارجق والتأكيد عليه بأن يلاحظ كيله لئلا يكون ناقصاً وبعد الوصول إلى هناك ترسلون عبد الرحمن بك إلى هذا الطرف

برقية رقم ١٣٤٥

فى ٢٧ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٨ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد من قيادة هزار جراد إلى فضلى باشا ومنه إلى قيادة بازارجق .

قد صدرت الإرادة السنية الشاهانية بخصوص تنفيذ الهدنة التى تقرر عملها مع دولة الروسيا . أى ترك المخاصمة فى الحال بين قواد الطرفين المحاربين . وأبلغ ذلك أيضاً من قبل الدولة المشار إليها إلى قوادها . وبما أن أسماء المندوبين الذين سيعينون ويرسلون من قبل هؤلاء القواد ونوع مأموريتهم سيبلغ على حدة إلى قيادتنا . فيلزم أن تتصلوا أنتم أيضاً بقواد الروس طبقاً للاصول حسبما تقتضيه الظروف . ولأجل الاتصال بهم والمحادثة معهم فى هذا الخصوص يلزم رفع راية بيضاء وإرسال نفس بروجى وآخر ملم باللغات وبناء عليه نأمل إجراء اللازم لذلك على وجه ما ذكر . وبما أن الشروط اللازمة لذلك ستبلغ إليكم بتلغراف آخر فيلزم أن يقف عساكر الطرفين المحاربين فى المواقع الموجودين بها الآن وأن يكفوا عن الحرب فقط .

برقية رقم ٤٦٨٦

فى ٢٨ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد من قيادة هزار جراد إلى فضلى باشا ومنه إلى قيادة بازارجق

كان توضح تفصيلا فى التلغراف المؤرخ فى ٢٧ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٨ يناير سنة ١٨٧٨ طريقة إجراءات الهدنة . فأخبركم بأن الصرب والجبل الأسود داخلان فى هذه الهدنة .

قد اقتضى تحرير هذا الذيل لإحاطة دولتكم علماً بتلغراف دولة السرعسكر المسطرة صورته أعلاه .

برقية رقم ٤٦٩٧

فى كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة هزار غراد

إن منطوق التلغراف المرسل إليكم بتاريخ ٥ محرم سنة ٩٥ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٨ يأذن لكم بالاتصال بقواد الروس لأجل الهدنة ، هو عبارة عن الترخيص إليكم بالمحادثة فى أول الأمر فى طريقة إجراء الهدنة . وبما أنه من الطبيعى دوام المخاصمة لحين وصول اتفاق على ترك المخاصمة بين الطرفين . فقد بادرنا إلى إخطاركم بذلك لعدم حصول خطأ فى فهم ذلك .

برقية بدون رقم

فى ٢٨ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة حاجى أوغلى بازارجق من قيادة روم إيلى العامة فى قلبه بازارجق . إنه وإن كان حصل ترك المخاصمة بإرادة سنية إلا أنه نظراً لأن ترك الخصومة معناه عدم استعمال السلاح من أحد الطرفين ضد الآخر فممنوع قطعاً مكالمة الأنفار مع بعضهم واختلاطهم بالبعض فى محلات الحراسة وغيرها . وبناء عليه نأمل إعطاء الأوامر والتنبيهات اللازمة فى هذا الخصوص وأن يتخذ خط هدنة وعدم تجاوزه والمحافظة على المواقع الموجودة تحت اليد باعتناء تام والدفاع عنها كما فى السابق .

برقية رقم ٥٠

تلغراف بالشفرة فى ٢٨ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٨
إلى مقام قيادة وارنة الفخيمة

أحيط علمكم السامى بأن التلغراف المرسل من مقام السر عسكرية الجليلة بتاريخ ٢٧ كانون الأول – ٩٣ الموافق ٨ يناير سنة ١٨٧٨ قد ورد اليوم مذيلا من طرف عموم ذاتها العلية وهو يتضمن أن الإرادة السنية الشاهانية قد اقتضت إيقاف الحرب فقط مع دولة الروسيا فى الهدنة التى تقرر عملها أى الكف عن الخصومة معها بأن تبقى عساكر الطرفين المتحاربين فى مواقعها وأن الدولة المشار إليها أيضا أخطرت قواتها بذلك وأنه لأجل الاتصال بقواد الروس يلزم رفع راية بيضاء وإرسال نفر من النافخين فى البوق وضابط ملم باللغات إليهم طبقاً للاصول وأن الشرائط الأخرى ستبلغ لنا بتلغراف آخر . . وورد الليلة أيضاً من المشار إليه تلغراف آخر يستعلم به عما إذا كان أرسل إلى الروس مندوب أم لا – وإذا كان أرسل فبأى شكل جرت المذاكرة . فأبلغناه تلغرافياً بأننا جارين النظر فى ترتيب القره قولات الخارجية وعمل تسهيلات لتدارك لوازم الفرقة لئلا تتكبد الضيق فى المستقبل فى البحث عن شخص ملم باللغات وأنه نظراً لكون المسافة من بازارجق إلى هناك عبارة عن ستة عشر ساعة فبإذنه تعالى عند العثور عن الشخص المطلوب يرسل برفقة أحد ضباط أركان الحرب وأن المذاكرة المعلومة لنا فإن موادها تتلخص فى عدم استعمال أحد الطرفين السلاح ضد الآخر ومنع الحراس من المحادثة والاختلاط مع بعضهم البعض فى أمكنة الحراسة وغيرها منعاً كلياً وتحديد خط للهدنة يكون مصوناً من الاعتداء عليه وتحديد الخط المذكور لغاية جهتى صارى طويراق وبليلار لأجل تمتع الأهالى بأخذ تبن وحطب وأشياء من هاتين الجهتين واستفادتهم بها وإذا أمكن تحديده إلى أبعد من ذلك وإنه سيصير تفهيم المندوب الذى سيعين تلك المواد وتوصيته بها وأنه إذا كان يوجد لدى المشار إليه أى ملحوظات فانى فى انتظار ما يرد منه لإضافتها على المواد المذكورة .

هذا وقد ورد لنا فى أثناء ذلك تلغراف آخر منها بناء علىماورد لها من المقام المشار إليه بأنالصرب والجبل الأسود داخلان أيضاً فى هذه الهدنة . وهذا للمعلومية والأمر مفوض .

برقية رقم ١٠٢٠٧

فى ٢٩ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق عشرة ١٠ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من دولة حسن باشا قائد وارنة —

يفهم من تلغرافكم العالى المؤرخ ٢٨ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٨ إنكم حررتم إلى وكالة القيادة العامة بأنكم جارين البحث عن شخص ملم باللغات لأجل المكالمة وأن لدى العثور عليه سيرسل برفاقة أحد ضباط أركان الحرب فهل وجد هذا الشخص وأرسل . وإذا كان وجد فمن هو . وهل أرفق معه أحد من أركان الحرب . نأمل إفادتنا عن ذلك . وإذا كان لم يوجد الشخص المطلوب للآن . فمن الذى سيرسل . وبما أنه سيرسل أحد من أركان الحرب فنأمل الإفادة عنه أيضاً . وحيث أنه فى حالة إرساله طبعاً سيرسل معه بعض أفراد من عساكر السوارى فيلزم أن يكون هؤلاء السوارى من أحسن المنتخبين بالنسبة للقامة والقيافة وأن يكونوا بهيئة منتظمة .

برقية رقم ١٣٥٩

فى ٢٩ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٠ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة هزار غراد

بناء على الأمر الوارد من مقام السرعسكرية . أعرض أنه إذا حصل من العدو أى اعتداء فيجب مقابلته بالمثل كما كان سابقا طالما لم يتم إقرار الهدنة وإنما عند ما تشاهدوا العدو أنه ينوى القيام بحركة هجوم فيلزم أن ترسلوا فى الحال ضابطاً وبروجياً براية بيضاء إلى قره قولات الروس بموجب التعليمات الصادرة وتبلغوهم بأنكم تلقيتم أمراً لأجل الهدنة وأنه وإن كان لنا رغبة فى ترك المخاصمة إلا أنه يجب الاستعلام من قواد الروس عن الوجه الذى حصل بموجبه ترك المخاصمة وتخطرونا بالنتيجة . وسيرسل اليوم مندوب من قبل فيلق عموم شرقى طونة إلى القيادة الروسية فاصرفوا النظر عن إرسال مندوب من طرفكم رأساً وعن التعرض للعدو ما لم تحدث حالة من الأحوال المذكورة أعلاه وإذا لم يراعوا تعليمات مراجعهم أكثر من قبل ففى هذه الحالة يجب اتخاذ الإجراءات اللازمة لمقاومتهم بشدة .

برقية رقم ٥٨

فى ٣١ كانون الأول سنة ٩٣ الموافق ١٢ يناير سنة ١٨٧٨
كتاب إلى قائمقامية بازارجق

بما أنه علم من المذكرة الواردة من صاحب العزة مير ألاى آلاى البيادة الغارديا الأول للعساكر المصرية الشاهانية بتاريخ ٣٠ كانون الأول سنة ٩٣ ١١ يناير نمرة ١ بأن المدعو عبد المسيح يوسف أحد أفراد طابور غارديا الثانى للآلاى المذكور قد ارتكب عار الفرار وحيث أن النفر المذكور لن يمكنه الاختفاء فى أى قرية أو فضاء يحل فيه نظراً لعدم معرفته اللغة التركية . فبناء عليه قد بادرنا بتحرير هذا إليكم لإعطاء التنبيهات الأكيدة لمن يلزم بالقبض عليه فى القرى الواقعة بالفضاء الموجود تحت إدارتكم .

برقية رقم ٤٨٩٣

فى ٣ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٥ يناير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة هزار غراد

أخطركم بأن العدو إذا خابركم بخصوص الهدنة فأوقفوا جميع العساكر على قدم الاستعداد فى مسافة بعيدة جداً ولا ترسلوا غير ضابط واحد وبروجى واحد وأن لاتقعوا فى شرك العدو كما اتصل بنا حصول ذلك فى بعض الجهات بسبب الهدنة التى لم تقرر بعد — وإذا خابركم الأعداء فى أى وقت، فاطلب إليهم أن يجيبوا على المحرر السابق إرساله من قائدنا من روسجق مع ضابط إلى قائدهم : وأن ترسلوا جوابهم إلى روسجق . وأنه غير مخول لكم بالدخول معهم فى مذاكرة فى هذا الخصوص . وأحيطكم علماً بأنه قد أطلق مدافعه اليوم على روسجق . وأطلب إليكم أيها الأخوان أن تكونوا فى هذه الأيام بغاية التيقظ والتبصر وأن لا تحيدوا نظركم عن حركات العدو .

برقية رقم ١٠٤٥٩

فى ٥ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة جواباً على التلغراف

الوارد منكم أفيد بأن المائة عسكرى سوارى المقتضى إرسالهم برفاقة البكباشى أحمد حسنى أفندى إلى بردادى لم يكن بصفة دائمة بل لمأمورية موافاته . فيلزم ترحيلهم من يوم الأحد على أن يعادوا ثانياً بعد أداء مأموريتهم .

برقية رقم ١٠٤٨٥

فى ٦ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

قد تسلمت تلغراف سعادتكم المفصل المرسل بالشفرة وقد أكدت على متصرفية وارنة بجمع عساكر المعاونة وإرسالهم وإنى بناء على تلغرافكم سأرسل إليكم بطريق البريد تعليمات مفصلة وإنما نظراً لهجرة أهالى سنجق (إسلامية) وعدم وجود سوارى هنا لاستكشاف تلك الجهة من وقت لآخر فإن المائة سوارى الذين أخطرتكم أمس بإرسالهم إلى برانادى سيجلبون من برانادى إلى هنا بعد انتهاء مأموريتهم فإذا كانوا لم يرسلوا بعد إلى برانادى فالأمل التكرم ببذل الهمة فى سرعة إرسالهم إلى برانادى .

برقية رقم ١٤٣٦٧

فى ٦ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة شمنى

قد تسلمت تلغرافاتكم التى تكرمتم بإرسالها على التعاقب بخصوص الأخبار المنبئة بأنه يشاهد على العدو بعض أحوال وحركات تشير إلى أنه ينوى الهجوم على بازارجق فى هذه الأيام وجوابا على ذلك أعرض أنه وإن كان لا يمكن أن يقال أن حدوث مثل هذه الحركة بعيد جداً إلا أنه جار الوقوع مثل ذلك فى هذه الجهات وإنما ظهر أخيراً أن معظمها لا أصل لها وإنها عبارة عن دسيسة من دسائس العدو الكثيرة وبناء عليه يلزم الاستماع إلى مثل هذه الأخبار والأنباء والعمل بغاية التيقظ والتبصر فى أمر المحافظة على النقط والمواقع وبذل الهمة فى تحقيق حقيقة مقدار العدو .

برقية رقم ٧٩

برقية بالشفرة فى ٦ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٧٨
إلى قيادة وارنة وقيادة سلسترا والوكالة العامة

أعرض أن تيمورجان بك بكباشى سوارى التاتار من عساكر المعاونة الموجودين بالقرى الأمامية قد أخبرنا بخطاب منه بناء على ما أخبره به شخص معروف من أهالى قرية عادل بقضاء متقالية بأنه ينتظر قدوم العدو إلى القرية المذكورة اليوم وعلاوة على ذلك فإن شخصين قد حضرا إلى طرفنا بإعانة إلى الفرقة من قبل التاتار المقيمين بالقرى الأمامية وعلمنا منهما أنه فى أثناء بياتهما بقاضى كوى حضر شخص من قرية عادل ليلا وأخبرهم بأن العدو قام هذه الليلة من كوستينجه ومجيدية قاصداً بازارجق فأرسلهما صاحب المنزل الذى باتا فيه فى الحال إلى طرفى ليخبرانى بذلك وبناء عليه قد أرسلنا من يلزم من المخصوصين لأجل تحقيق الكيفية فعند عودتهما نخطركم بما يتبين . والأمر مفوض .

برقية رقم ٨٠

فى ٧ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف للوكالة العامة لوارنة وسلسترا

بناء على الخبر فى هذه الساعة من بكباشى سوارى التاتار الموجود فى الجهة الأمامية من أن العدو قدم إلى قرية اليبه أى إلى مسافة ساعة من قرية الياس قد أرسلنا القوة العسكرية اللازمة مع المير اللواء زكريا باشا هذه الليلة إلى قرية قرة الياس لأجل المدافعة ونعرض لكم نتيجة ذلك فيما بعد. والأمر مفوض .

برقية رقم ٨١

فى ٧ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف إلى قيادة وارنة .

بما أنه نظراً لقدوم العدو إلى هذه الجهة يلزم حضور عساكر السوارى

التى ذهبت إلى برادادى وبضعة طوابير من وارنة فأرجو اخراجها إلى الطريق غداً وإرسالها إلى هنا بالسير السريع . والأمر مفوض .

برقية رقم ٨٢

فى ٧ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى قيادة بالجق

بما أنه يستفاد من الأخبار أن العدو قدم إلى قرية اليليه وأن مجيئه إلى ذاك الطرف أيضاً ليس ببعيد الاحتمال فأوصيكم بإعطاء التنبيهات الأكيدة إلى فصائل الاستطلاع الموجودة فى الجهات الأمامية بأن تكونوا متبصرين فى حركاتهم وأن تكونوا أنتم أيضاً متبصرين فى حركتكم وأن تتخذوا التدابير اللازمة لعدم إيقاع الاضطراب بين الأهالى وإذا ظهر العدو فيجب مقاومته بشجاعة والتنكيل به .

برقية رقم ٨٣

فى ٧ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى قيادة سلسترا

بما أنه قد صار إرسال القوة العسكرية اللازمة برفقة المير اللواء زكريا باشا إلى قرية قرة الياس لطرد العدو والتنكيل به حسب الأخطار السالفة ولذلك أرسل رجال مخصوصين للوقوف على حقيقة قوة العدو وأوصى الباشا المومى إليه بشدة تعقب العدو على حسب المعلومات التى تؤخذ فإذا أرسل العدو حملة عسكرية أو عصابة بلغارية بهيئة رجل إلى سلسترا كما حصل فى المرة الأولى فلعدم تهييج أهالى القرى المجاورة نرجو اخراج فصائل استطلاع من طرفكم العالى أيضاً . والأمر مفوض .

برقية رقم ٨٤

فى ٧ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف الساعة التاسعة مساء إلى قيادة وارنة السامية

بما أنه قد علم من الإفادة الواردة الآن من المير اللواء زكريا باشا بأنه تبين

من التحقيقات التى عملت أن القوة التى قدمت إلى قريتى موسى [والبليه] وجوارهما هى أربعة آلاف سوارى وأربعة آلاف بيادة واثنى عشر مدفعاً وأنه موجود لها احتياطى أيضاً فأرجو غاية الرجا أن تجهزوا ثلاثة طوابير مع ما يكفيها من الجبخانة وإخراجها للطرفين فى هذه الليلة وأن ترسلوا معها عدد ١٥٠ صندوق من الجبخانة لأجل آلاى البيادة الأول وعدد ٢٠٠ صندوق لأجل آلاى غارديا البيادة على وجه السرعة كما سبق العرض عن ذلك. والأمر مفوض.

برقية رقم ١٤٣٢٩

فى ٧ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة شمنى

إنى أشكركم شكراً خاصاً على الترتيبات العسكرية التى عملت بسبب حركات العدو.

برقية رقم ٨٧

فى ٨ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٠ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى قيادة وارنة

يتضمن أنه بعد محادثة اليوم بالتلغراف قد سمعنا صوت إطلاق مدافع فى الساعة السابعة والنصف فتوجهت فى الحال إلى طابية راشد حسنى على القمة الواقعة فى طريق مجيديه وبموجب الترتيبات التى أجريت قد أخذ جميع العساكر أمكنتهم فى الاستحكامات. وبعد ساعتين انقطعت أصوات المدافع وبعد ذلك ورد خبر من طرف زكريا باشا يفيد أن الحرب جارية مع العدو من جناحين وأن الحاجة ماسة إلى مدفعين آخرين. ولما أرسل المدفعان فى الحال من الطابية المذكورة حصل الاشتباك فى حرب المدافع مرة أخرى فى الساعة العاشرة ثم انقطعت وبمناسبة دخول الليل أوقفت الحرب وقد نزل ثلج بكثرة ليلة أمس واليوم هبت رياح شمالية شديدة ويؤخذ من الأخبار الواردة أنه بفضل الغيرة والبسالة التى أظهرتها العساكر المنصورة وبالأخص عساكر الجراكسة المعاونة كان النصر لله الحمد فى جانبنا وأنه من المظنون

أن يكون قد رجع العدو هذه الليلة مقهوراً وبما أنه لم يرد بعد من الباشا المومى إليه تقرير عن المعركة وعن عدد الشهداء والمجروحين فعند وروده سنبلغكم تفصيلات الواقعة ونبشركم بالنصر والظفر إن شاء الله .

برقية رقم ٨٨

فى ٨ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٠ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى قيادة وارنة وقيادة سلسترة ووكالتها العامة وقيادة بالجق

وصلنى الآن من الأمير اللواء زكريا باشا قائد المفرزة تقرير يتضمن أنه قد دار قتال اليوم بينه وبين جناحى العدو والمهاجمين أثناء قدومهما من قريتى قورى أورمان وعلى بك إلى قرية قره الياس واستمر القتال من الساعة السابعة إلى الحادية عشرة وأننا خسرنا فى هذه المعركة خمسة شهداء وتسعة جرحى من سوارى الجراكسة وخمسة شهداء وجريحين من سوارى المعاونة وبلغ ما هلك وجرح من الخيول ثلاثة عشر وأما خسارة العدو من القتلى فى الهجوم الذى حصل من الجناحين تزيد على الستين ومثلها من الجرحى . وإن العدو قد أجبر الآن على التقهقر إلى قريتى إيدين بك وقصابلى وإن الشجاعة التى أظهرها جميع صفوف العساكر الشاهانية فى هذه الحرب كانت فوق العادة وإن قوة العدو كانت مؤلفة من آلايات كاملة من السوارى وبطريتين مكونتين من اثنى عشر مدفعاً ولأجل تبشيركم بذلك قد أرسلنا هذا للمعلومية والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

علاوة لقيادة سلسترة

نرجو إعطاء الأوامر اللازمة من قبلكم لمن يلزم بأن تكون فصائل الاستكشاف فى قيتارجة والقرى المجاورة مستمرة على الدوام وأن تكون متيقظة فى حركاتها والأمر مفوض .

برقية رقم ٨٩

فى ٩ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى مقام قيادة وارنة السامى

سبق أن عرضنا على دولتكم أنه لم ترد بعد أخبار عن حوادث من الدوريات الموجودة بالأطراف وأنه قد أخرجت مفرزتان على الصباح وأنه عند عودتهما ستعطى المعلومات وأن الثلج جار نزوله من وقت لآخر بدون انقطاع . وأيضاً الحوادث الخاصة بالحرب التى وقعت أمس وقد علمت الآن من التقرير الوارد من زكريا باشا بناء على التقرير الوارد إليه اليوم أنه قد اغتنم من العدو عدد ٣ (قطانه) وأنه قتل فى أول يوم حصان واحد من خيول السوارى المصرى وأن قذيفة من قذائف العدو سقطت أمس فوق (أول قبور) — هكذا فى الأصل — وانفجرت ولكن لله الحمد لم يصب أى إنسان أو حيوان بضرر . والأمر مفوض .

برقية رقم ٩٠

فى ٩ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف إلى قيادة وارنة وقيادة سلسترة ووكالتها العامة

أعرض أنه قد وصلنى الآن من زكريا باشا تقرير يتضمن أن قره قولات العدو التى كانت معسكرة بالجناح الأيسر ابتداء من فوق قرية البيه بلك لغاية قرية إيدين قد انسحبت منذ أمس من المواقع المذكورة إلى الوراء وأنه لا يعلم سبب انسحابها إلى الوراء وانتظارها فى المؤخرة . هل هو لقدوم قوة آتية إليه أم خلافه وحاصل الكلام أن جناح العدو القادم أمس من قره أغاج قد اتصل بجناحه الآخر القادم من جهة من موسى بلك وأنه موجود أمامنا على الوجه المذكور أعلاه وأنه بناء عليه قد عملت مناورة حربية من طرفنا لمعرفة قوة حركة العدو الدفاعية . وأنه سنجرى مناوشة من الآن وسنخطركم بنتيجة ما سيحدث فيما بعد . وأن الثلج لا زال مستمر فى النزول بشدة . والأمر مفوض .

برقية رقم ٩١

فى ٩ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف بالشفرة إلى قيادة وارنة وسلسترة ووكالتها العامة .

أعرض أنه قد حضر اليوم من قرية غرايلر أحد جواسيس هذا الطرف

وقدم تقريراً جاء فيه أنه يؤخذ من المعلومات التى حصل عليها من اثنين من بكباشية العدو أثناء بيات الإثنى عشر ألف بيادة والستين سوارى التى أخرجت من كوستينجة فى القرية المذكورة مع جيش العدو أن العدو ينوى الهجوم على بازارجق فى هذه الليلة وأنه يوجد معهم مائة وخمسين عربة من البكسماد والشعير وستة عشر مدفعاً وأنه خرج من مجيديه عدد ٣٢ ألف عسكرى وأن ما ذهب منهم من بوغاز كوى إلى جهة سلسترة هو عدد ١٦ ألف وأنه أرسل إلى جهة بالجق عدد غير معلوم المقدار من البيادة والسوارى وأنه صدرت إليهم أوامر بأن يستولوا على بالجق وبازارجق ووارنة فى ظرف خمسة عشر يوماً . وبما أنه بعض أقوال الجواسيس لا يوثق بها كما هو معلوم لكم فقد حجزوا المذكور هنا لحين التحقيق من هذه المسألة على أن يكافأ أو يجازى بعد ذلك . والأمر مفوض .

برقية رقم ٩٣

تلغراف إلى قيادة وارنة

فى ٩ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٧٨

إنه قد كان حصل الاتفاق فى المخابرة التى جرت بيننا أمس بالتلغراف على أن ترسل ثلاثة طوابير وبطرية واحدة إلى بازارجق وطابور واحد ونصف بطرية إلى دربندكوى وطابور واحد إلى باالليجة وصدرت إرادتكم السنية بذلك . واليوم حضر محمود فهمى بك رئيس أركان الحرب إلى هنا وأخبرنا بأنه قد ترتب ووضع فى دريندكوى طابوران مع بطارية بيادة . وفى صارى كوى ثلاثة طوابير مع بطرية سوارى وساروخ وفى ياالليجة أيضاً طابور واحد وبناء عليه أرجو سرعة إرسال ثلاثة طوابير منها اثنان من العساكر المصرية وواحد من العساكر الشاهانية مع بطرية سوارى وساروخ برفقة الميرآلاى طه لطفى بك إلى هنا لشدة لزومها كما سبق العرض عن ذلك . مع الإحاطة بأنى قد حررت هذا المساء أمراً وأرسلته مع مخصوص إلى يوسف شهدى باشا بأن يترك فى دريندكوى مع القاءمقام محمود فؤاد طابورين مع بطرية بيادة وفى باالليجة طابورا واحداً وأن يكون هو نفسه موجوداً فى دريندكوى . فأعرض لكم ذلك . والأمر مفوض .

برقية رقم ٩٥

فى ٩ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف إلى الوكالة العامة لوارنة وسلسترة

أعرض أنه قد وصلنى الآن من زكريا باشا تقرير يتضمن أنه تقدم اليوم إلى الأمام بعمل مناورة حربية متجهاً من الجناحين إلى قريتى قره أورمان واليبيه مع الطوبجية والسوارى . وأنه لأجل الوقوف على مقدار قوة العدو والمحتمل وجودها بجهة قره أورمان قد أطلق بعض طلقات من المدافع ولكن العدو لأجل أن يعرف وجوده بقرية بير نق الواقعة على يمين قره أورمان قد أظهر بضع نقط من نقط القره قولات . وأنه وإن كان يظهر من القرائن رجوعه من هناك . إلا أنه لا يمكن الجزم به . وإن نقطنا الواقعة أمام العدو بقرية جاير أورمان قد أبلغت إلى بلوكين وتركا هناك لأجل الوقوف على حركات العدو . وأنه عاد من جهة قره أورمان إلى قرة الياس . وأنه نظراً لهذه الأحوال يحتمل انسحاب العدو إلى جهة مجيدية لإجراء مناورة لجهة بالحق .

وإنه لذلك سيصير إخراج فصائل غدا على الصباح لأجل استكشاف طريق بالحق . والأمر مفوض .

برقية رقم ٩٧

فى ١٠ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف إلى قيادة وارنة

نظراً لقدوم العدو مصحوباً بقوة كبيرة قد عاد زكريا باشا تدريجياً مع المفرزة الموجودة بمعيته إلى الطابية الواقعة على طريق مجيديه كما أن عبدكم موجود الآن فى الطابية الواقعة بجهة بالحق . وبسبب رداءة الجو وكثرة الثلوج النازلة وشدة الرياح والضباب لم يمكن الوقوف على حقيقة قوة العدو فعند اعتدال الجو نوعاً ما سيصير اكتشاف ذلك لمعرفة قوته الموجودة وعندئذ نعرض لكم ما يتبين والأمر مفوض .

برقية رقم ٩٨

فى ١٠ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى قيادة وارنة

بناء على ما سبق عرضه ، أفيد بأنه قد بدئ فى الحرب مع قوة العدو القادمة من طريق مجيدية من الاستحكامات الواقعة على طريق مجيدية وسنعرض لكم النتيجة فيما بعد . والأمر مفوض .

برقية رقم ٩٩

فى ١٠ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى الوكالة العامة لوارنة وسلسترة

أعرض أنه فى حالة وجودى فى طابية بالجق ووجود زكريا باشا فى الطابية الواقعة فى جهة طريق مجيدية قد صار تعبئة العساكر فى الاستحكامات مع الاحتياط بنسبة القوة الموجودة . وأنه بناء على المقذوفات التى أطلقت من طرفنا والهجوم الذى حصل من بعض بلوكات سوارى النظامية المصرية والجراكسة والمعاونة فى القتال الذى وقع مع العدو القادم ، قد رؤى أن العدو خسر من سواريه عشرين قتيلا وترك مثل هذا المقدار أيضاً فى المستنقعات . وأربعة أمثال ذلك من الجرحى . والمقتول من خيول السوارى أكثر من أربعين والمجروح منها ثلاثة أمثال ذلك . وأن خسارتنا ولله الحمد لم تزد عن شهيدين من الطوبجية وشهيدين من المعاونة الجراكسة وعن خمسة جرحى بجروح خفيفة وقتل اثنان وجرح ستة من الخيول كما تبين ذلك من التقارير الواردة . وإنه بعون الله تعالى وبغيرة وشجاعة العساكر المنصورة قد أجبر العدو على التقهقر فى وقت المساء إلى قرية الياس منهزماً . وأخيراً علمنا من تقرير الحوادث الوارد من زكريا باشا أنه فى أثناء عودته صباحاً من قورى أورمان إلى الأمام ومن هناك إلى قره الياس قد خسر العدو ثمانية من القتلى ومثيلها من الجرحى . وكانت خسارتنا ثلاثين بين شهيد وجريح بينهم قول أغاس . وإنه بناء على الأمر الصادر إلى قائمقامية بازارجق سيجتمع من الأهالى ذوى الحمية أكثر من ألف نفس بعضهم من الفرسان وبعضهم من المشاة للمعاونة . والأمر مفوض .

برقية رقم ١٠٦٣٠

فى ١٠ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

اطلعت على تلغرافكم الوارد . وعلم بأن تقهقر زكريا باشا نشأ من كثرة قوى العدو فلا بد من أنه قدر قوة العدو قبل تقهقره وبناء عليه يلزم موافاتنا بمقدار المفرزة التى كانت مع زكريا باشا . وكذلك مقدار قوة العدو التى هجمت عليه بوجه التقريب . ويلزم أيضاً إيجاد سوارى لأجل الطواف فى الجناحين الأيمن والأيسر على الدوام واستطلاع أحوال العدو فى كل وقت لئلا تحيط بكم قوة العدو من الخلف .

برقية رقم ١٠٦٣١

فى ١٠ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

بما أنه نظراً لأهمية نقطة قوزليجه قد تحرر إلى المير اللواء يوسف شهدى باشا بأن يذهب إلى تلك الجهة طابور من الطابورين الموجودين بقرية دريند وبطرية طوبجى البيادة للاستيلاء عليها . فلأجل تقويتها أيضاً من قرية بازارجق نوصيكم توصية فوق العادة بأن ترسلوا الليلة أورطة إلى نقطة قوزليجة المذكورة للاستيلاء عليها .

برقية رقم ١٠٠

فى ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف بالشفرة إلى قيادة وارنة .

بما أن الموقع الذى نحن موجودون به مكشوف للعدو من جميع جهاته نظراً لحالته الطبيعية وأن قوة العدو آخذة فى الزيادة وأنه جار استكشاف واستطلاع جميع جهاتنا بفصائل الكشافة لكثرة سواريه وأنه اتخذ قرية الياس مركزا له . وأنه يومىء إلى عزمه محاصرة موقعنا . فبناء عليه قد قرر المجلس بمضبطة حررها أن يحافظ على خط المواصلة والمخابرة الواقع بين بازارجق ووارنة بأرسال قوة مخصوصة من هناك وإلا فإن الحالة ستضطرنا إلى التقهقر . ولذلك فإنى فى انتظار أمركم بما ترجحونه من الحالتين . والأمر مفوض .

برقية رقم ١٠١

في ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف بالشفرة إلى قيادة سلسترة

جوابا على ما ورد فى ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨ أفيد بأن قوتنا الموجودة هى عبارة عن سبعة طوابير ونصف طابور من البيادة وبلوكين من السوارى النظامى وخمس بطاريات مدفعية وطابورين من التاتار البيادة وخمسمائة نفر من المعاونة الجراكسة والتاتار وبما أن قوة العدو آخذة فى الزيادة من وقت لآخر ، وأنه نظراً لكثرة سواريه فإن فصائله الكشافة جارية استطلاع واستكشاف كل الجهات جيداً وإنه اتخذ قرية الياس مركزاً له ، وأنه ينوى وضع موقع بازارجق تحت الحصار . فلأجل استكشاف جهات قيتارحه ولينجه وراصوت جيداً والتحقق من قوة العدو وتهديد مؤخرته إن كانت له مؤخرة وقطع خط الرجعة عليها بقدر الإمكان ، فيكون من المناسب لو اتخذتم تدابيركم الصائبة للاستفادة منها استفادة كلية . وبناء عليه أرجو إجراء ما ترونه موافقاً وإفادتنا به مع تعيين فصائل الاستكشاف اللازمة للمحافظة على خط مواصلة هذا الطرف وإعطاء أوامر إلى البكباشى سليمان أفندى بإخراجها للطواف والتجول على الدوام وموافاتنا بالأحوال على الدوام أفندم .

برقية رقم ١٠٢

في ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨

تذكرة إلى قائمقامية بازارجق

بما أن موقع بازارجق سيكون مركزا حربياً فيما بعد لكثرة اعتداء العدو وقضت الضرورة أيضاً بتزييد القوة العسكرية ، وأن العساكر لا تزال ترد ، وأنه لن يمكنها البيات فى الخلاء نظراً لموسم الشتاء . وكذلك لن يمكن الآن إنشاء أماكن أرضية تسعها وحيث إنه لا يخفى أن وجود أهالى فى موقع له مثل هذه الأهمية من الوجهة الحربية يكون موجباً لإشغال الهيئتين العسكرية والملكية وكذلك هيجان الأولاد والعيال فلأجل تجنب غائلة الأهالى وهيجانهم ووضع العساكر أيضاً فى المنازل قد تقرر إخراج جميع الأهالى . وبناء عليه قد فوضنا الأمر لرأيكم ودرايتكم المسلم بهما فى ترحيل جميع الأهالى مسلمين ومسيحيين إلى وارنة

غداً صباحاً بدون إبقاء أى فرد منهم مع استصحاب أشياء وموظفى الحكومة ومسجونيها أيضاً وحيث أنه نظراً لما هو ملحوظ أيضاً وجود أشخاص تسول لهم أنفسهم غصب ونهب أموال وأشياء الأهالى فى هذه الأثناء قد أرسل أيضاً بلوكان من العساكر النظامية لمنع وقوع فساد مثل هذا والخضوع لأوامر الحكومة . فيصير الاعتناء بالمحافظة على الأهالى . وإعلانهم بأن كل من يظهر من أمثال هؤلاء المجرمين سيعدم فى الحال رمياً بالرصاص وإذا وجد من يتجرأ على ذلك فيصير إجراء هذه المعاملة فى الحال عند الاقتضاء .

برقية رقم ١٤٤٥

فى ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة شمنى

إنى أشكر ذاتكم العلية كما أشكر أخينا زكريا باشا اهلاك العدو وسحقه وأهدى أيضاً سلامى إلى جميع إخواننا . وحيث أنه لم يرد فى تلغراف سعادتكم أى بيان عن القوة التى رتبها العدو فإنى أنتظر بفروغ الصبر موافاتى بمعلوماتكم عن ذلك .

برقية رقم ١٠٦٥١

فى ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

قد استعلمنا عن مقدار العساكر التى تتألف المفرزة التى انضمت إلى معية زكريا باشا ولم يرد جواب عليه . فيلزم إخبارنا عن ذلك . ويلزم أيضاً حضور أورطتى العساكر الشاهانية الموجودين بمعية طه لطفى بك إلى قرية دريند والإقامة بها مع بطارية الطوبجية الموجودة هناك والاستيلاء على ذلك الموقع والبقاء مع بطارية السوارى الطوبجى فى بازارجق وإعادة الأربعة طوابير الشاهانية التى قامت من هناك مع يوسف شهدى باشا إلى هنا فالأمل الإجراء على الوجه المذكور وبما أنه لن يقبل أى يصير إبداؤه فى ذلك فنأمل الاهتمام بإجراء ما ذكر بلا تردد .

برقية رقم ١٠٦٧٢

فى ١١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

قد اطلعنا على تلغراف سعادتكم الوارد لنا اليوم ومعلوم لسعادتكم أنه لا توجد هنا قوة كافية للمحافظة على خط المواصلة والمخابرة بين بازارجق ووارنة وإن كان توضح فى تلغرافكم الوارد أن قوة العدو آخذة فى الزيادة إلا أن المفهوم أنه لم يمكن الوقوف بعد على مقدار الزيادة وبناء عليه إذا رأيتم سعادتكم من الموافق أن تخرجوا قوة لمناوشة العدو تكون مؤلفة من الطوبجى والسوارى والبيادة وأن تناوش العدو فإذا تحقق أن قوة العدو هى ثلاثة أضعاف قوتكم وأن ليس فى استطاعتكم مواجهته ففى هذه الحالة تنسحبون إلى الوراء تدريجيا طبقاً للتعليمات الصادرة من قبل ثم تقسمون قوتكم إلى قسمين أحدهما يجب عليه احتلال موقع قوزليجية والآخر احتلال موقع درينكوى ومع ذلك يلزم إخبارنا قبل البدء فى الانسحاب لأجل جلب العساكر الموجودة فى بلجق إلى هناك .

برقية رقم ١٠٤

فى ١٢ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى وارنة سلسترة ووكالتها العامة وقيادة بلجق

سبق أن عرضنا أننا رتبنا رماة من عساكرنا مع احتياطيهم أمام رماة العدو الممتدة على خط العدو الموجود فوق القمتين الواقعتين فى جناحينا الأيمن والأيسر على بعد ألفى متر من استحكاماتنا لمقابلتهم بالمثل وهجمنا على العدو واستولينا على القمتين ونكلنا به وأجبرناه على التقهقر وعندئذ أرسل العدو أربعة مدافع وأطلق النار على رماتنا وفى الحال قوبل بالمثل من هنا ومن استحكامات مجيدية ومن الجهات التابعة لها ومن طرفنا أيضاً وفى هذه الأثناء أصيب العدو بخسارة كبيرة من نيران مدافعنا وخصوصاً أن قنبلة من قنابل مدافع العساكر المصرية الشاهانية أصابت أحد مدافع العدو فأهلكت أربعة من خيوله وأتلفت مدفعه تماماً — وبناء على ذلك قد تقهقر العدو بلا وقوف وأنه فى أثناء هجوم السوارى المصرى الشاهانى فى حرب الرماة والمدافع التى استمرت من الساعة الخامسة لغاية الساعة التاسعة قد جرح سبعة أنفار وستة خيول وقتل حصانان وكذلك استشهد نفران من سوارى المعاونة وجرح أربعة أنفار وقتل ستة خيول وجرح حصان وفى هذه الحرب ترك العدو بالميدان ضعفى ذلك من القتلى وأن السوارى

الذى أظهره العدو من الجناحين اليوم فى هذه الحرب هو آلاى واحد من السوارى مؤلف من ستة بلوكات كالمعتاد ولم يظهر مشاته الأخرى وباقى سواريه وإن قصد العدو أيضاً توالى استكشافاته حوالينا هو أن يخرج قواتنا إلى الميدان ليعرف مقدارها على كل حال وأنه لم يطلق النار من عساكره البيادة الموجودين بالاستحكام (من صبر ظفر) وأعرض أن هذه الحرب وقعت فى أثناء المكالمة وانتهت فى وقت المساء كما جاء ذلك فى تقرير الحوادث الوارد من المير اللواء زكريا باشا .

برقية بدون رقم

فى ١٢ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة .

إن الحركات الحربية لم تكن فى وقت ما مرهونة لانسحاب الأهالى أو عدم انسحابهم وعلى كل حال يجب علينا أن نراعى حركاتنا الحربية وجهتنا الحربية وأرجحيتنا وعدم تعطيل أعمالنا ويلزم إخراج خمسة طوابير بيادة على أقل تقدير ومقدار كاف من السوارى وبطاريتى طوبجية غداً كما قلنا واشتكشاف قوة العدو حرباً حتى يمكن الوقوف على مقدارها وحتى نتخلص نحن وأنتم من انشغال الفكر هذا .

برقية رقم ١٠٦٩٥

كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

بناء على الإخطار المرسل أمس إلى ذاتكم العلية يلزم على كل حال إخراج بطاريتى طوبجية ومقدار من السوارى وخمس طوابير بيادة وإرسال مقدار منهم إلى قره اليأس ومقدار آخر إلى جابر أورمان بطريق كلنجك لأجل استطلاع قوة العدو حرباً أولا والتحقيق منها فالأمل التكرم بإجراء اللازم لذلك .

برقية رقم ٣

فى ١٣ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

على الوجه المحرر لسعادتكم اليوم بلزم على كل حال إخراج مفرزة مؤلفة من خمسة طوابير بيادة وبطارتين طوبجية وإرسال قسم منها إلى قره الياس وقسم آخر إلى جاير أورمان بطريق كلنلج وذلك لأجل إخراج قوة العدو إلى الخارج والوقوف عليها وأن يعمل هذا الاستكشاف حالا اعتباراً من باكر وأن تكون هذه المفرزة تحت قيادة سعادة زكريا باشا وإذا اتضح عند إجراء الاستكشاف أن قوة العدو كغيره فالأمر مفوض لكم فى إجراء اللازم بحسب التدابير التى تتخذونها فى المركز الذى تكونون موجودون به فى أثناء ذلك وإلا يكون الاستكشاف المراد إجراؤه مرهوناً بهجرة الأهالى أو عدم هجرتهم فالأمر إجراؤه على كل حال غداً .

برقية رقم ١٠٥

فى ١٣ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف إلى قيادة سلسترة

جواباً على ما ورد فى ١٣ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٨٧٨ أعرض أن قوة العدو عند تقهقر مفرزتنا كانت بالتحقيق ٦ ستة طوابير من البيادة واثنا عشر مدفعاً وأربعة آلايات من السوارى ويستفاد من الأخبار الواردة بعد ذلك أن مؤخرة العدو أخذت فى الوصول من يوم السبت إلى الآن ولكن لم يعلم حقيقة مقدارهم . وقد علم من إفادة فصائل الاستكشاف أن العدو استولى على قرية قرة الياس وأن له عساكر من البيادة فى أعالى قرية جاير أورمان وورائها وأنه نظراً لكون أراضى تلك الجهات مستنقعات لم يمكن تقدير مقدارها على حسب روايتهم وأنه يوجد مع العدو كثير من البلغار وأنهم ينهبون مواشى القرى فى الأكناف والأطراف وهذا للمعلومية والأمر مفوض .

برقية رقم ١٠٦

فى ١٣ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٨٧٨

تلغراف بالشفرة إلى قيادة وارنة

إن التلغراف المسطرة صورته أعلاه ورد من متصرفية وارنة إلى قائمقامية بلجق وأرسل إلينا بتذكرة من القائمقامية المومى إليها طالبة إفادتها بما يلزم اتخاذه

من الإجراءات ومع أننا سنبدأ إلى تنفيذ أمر دولتكم الصادر تلغرافياً بالتأكيد باستطلاع مقـدار قوة العـدو غداً السبت بإذن الله تعالى فإن إبقاء الأهالى هنا كطلب المتصرف المومى إليه لا شك فى أنه سيؤدى إلى عاقبة وخيمة نظراً لحالة الموقع وسيكون شاغلا لأذهاننا بالنسبة لحركاتنا الحربية وبما أننا لا نعلم على أى أساس بنيت ملحوظات المومى إليه فى هذا الموضوع فإذا جرى العمل على حسب طلبه واضطررنا معاذ الله إلى التقهقر عند ظهور حقيقة قوة العدو فلن يمكن نقل الأهالى وسيكون ذلك سبباً لسوء حالهم بالكلية . وبناء عليه فإنى فى انتظار أمركم بإبقاء الأهالى أو نقلهم والأمر مفوض .

برقية رقم ١٠٧

فى ١٣ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٨٧٨
مذكرة إلى قائمقامية بلجق

قد علمت بمضمون التلغراف الوارد إليكم من قيادة وارنة بخصوص انتقال الأهالى وقد بادرت إلى تحرير هذا إليكم بأمل العلم بأنى قد خابرت قيادة وارنة فى هذا الشأن وسأخطركم فيما بعد بما يرد منها من الأوامر .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨
تلغراف من قيادة بازارجق إلى قيادة وارنة

أعرض أننا قد شرعنا فى هذه الساعة فى مناوشة العدو بكشافاتنا متوكلين على الله وأن السوارى والبيادة الجرخجية قد بدأوا فى الحرب بقرة الياس خمسة سى وقرية جاير أورمان . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف صادر إلى قيادة وارنة

أعرض أن جناحنا الأيسر قد استولى على القمتين الواقعتين فى مواجهة قره الياس وأنه جرت هناك حرب المدافع وأن البيادة أيضا قد بدأت فى الحرب

وأن جناحنا الأيمن حافظ على جناحه الأيمن ومال إلى قرية الياس على شرط أن يؤخذ فى الجهات اليمنى بقرية كلنلج وشرع فى ضرب المدافع لبلوغه منزل مرمى المدافع . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف صادر إلى قيادة وارنة

أعرض أن فصائل الاستكشاف التى رتبت وأرسلت من جهتين لمناوشة العدو قد عادت فى الساعة الثامنة وأن قوة العدو التى استكشفت هى ثمانى بطاريات وثمانية عشر طابور من البيادة ونحو أربعة آلايات من السوارى فى خطه الأول والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

إلى قيادة وارنة

أعرض أن الحرب لا تزال مستمرة إلى الآن والأمر مفوض

برقية بدون رقم

٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أن حرب المدافع لا تزال مستمرة وأن العدو آخذ فى تقوية جناحه الأيسر والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادذة وارنة

أعرض أن جرب المدافع لا تزال مستمرة وأن العدو آخذ فى التقدم والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه نظراً لكثرة قنابل الشرابنل التى أطلقها العدو قد اضطررنا إلى سحب مدافع الطابية الواقعة فى مجيدية وأن قوة العدو تتجاوز المقدار السابق المعروض عنه حتى إنه ظهرت له قوة أخرى قبيل المساء بقرية قورجة الواقعة فى طريق بلجق .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أن الاستكشافات التى أجريت اليوم لمناوشة العدو انقلبت فعلا إلى حرب ميدان وأن قوة العدو التى ظهرت أول الأمر هى عبارة عن ثمانية عشر طابوراً وثمانية عشر مدفعاً وأربعة آلايات من السوارى وأن الإمداد الذى ورد إليه بعد ذلك هو ثمانية طوابير من الجناح الأيمن وأربعة طوابير من الجناح الأيسر وستة مدافع ومجموع ذلك بدون علاوة هو ثلاثون طابوراً وثلاثون مدفعاً وأنه أطلق فى بيوك جاى مدافع من عيار ١٢ سنتيمتر من أحد البطاريات المذكورة وأن أكثر القنابل التى أطلقها كانت من نوع الشرابنل وأن الحرب استمرت من الساعة الخامسة إلى العاشرة وانقطع عندئذ إطلاق النار من طرفه وبما أنه لم يرد بعد تقرير من الطوابير فسأعرض فيما بعد مقدار الشهداء والجرحى ولما كان معظم الحرب فى جناحنا الأيسر هو ضرب المدافع والبيادة قد شاهدنا أن العدو أصيب بخسارة كبيرة وأن جرخجيتنا لا يزالون ينقلون إلى الآن حيث العدو من المحل الذى استولوا عليه وعادوا منه والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أرجو أن ترسلوا فى الحال ١٦٨ / ٤٤١ / ٣٥٠ / ٧١١ لأجل نقل جرحانا فى الحرب التى وقعت اليوم للأهمية . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أرجو أن ترسلوا فى الحال ألف وخمسمائة طلقة من القنابل وخمسمائة طلقة من الشرابنل لأجل المدافع التى من عيار أربعة (فوندلق) والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

إن خطوط التلغراف قد قطعت حوالى الساعة الثامنة والنصف وانقطعت مخابراتنا كما أنه يؤخذ من الأخبار الموثوق بها التى وردت أن مقدارا من قافلة مؤونتنا العسكرية القادمة إلى هذا الطرف قد وقع تحت يد العدو فى الجهة المسماة أبى أورمان وأن بعض أفراد القافلة أيضاً قد قتلوا وبما أنه علم من الاستكشافات التى جرت اليوم أن المناورات والحركات التى يظهرها العدو فى الوقت الحاضر معتمداً على قوته الجسيمة تدل على أنه ينوى الهجوم من جهته ومحاصرة فرقتنا من جهة أخرى لذلك قد عزمنا حسب اقتضا الحال على الانسحاب غداً بانتظام بطريق وارنة ويهاجر أيضاً الأهالى القادرون على الهجرة من طريق برادادى والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

بناء على المعلومات التى وصلتنى الآن أعرض أن القول أغاسى مصطفى أفندى والقائمقام خورشيد بك من ضباط أركان الحرب قد أصيبا بجروح بسيطة فى أثناء الحرب كما أن الميراللواء زكريا باشا قد أصيب بجرح بليغ وأنه وإن كان أرسل إلى ذاك الطرف إلا أن حالته تنذر بالخطر . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه نظراً لأن عساكر المعاونة الجراكسة قد ضحوا بأنفسهم كثيراً فقد كان عدد الشهداء والجرحى منهم كبيراً ولكون القرى المقيمون بها هى قرى مسيحية ولأنهم غير مطمئنين على عائلاتهم قد عادوا لترحيل عائلاتهم والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه وإن كان لم يصلنا بعد تقرير عن الجرحى إلا أن عددهم يتجاوز المائتين حسبما هو مقدر وأنه إذا أضيف عليهم المرضى الموجودون هنا فيبلغ مجموعهم ثلاثمائة نفر وأنه نظراً لفقدان وسائل النقل سنضطر إلى تركهم مع المأمورين الصحيين والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه سيعرض عليكم فيما بعد مقدار الموجود من الشهداء والجرحى وكذلك سنحرر دفاتر بأمراء وضباط العساكر الذين أبرزوا البسالة والشجاعة فى ميدان الحرب ويقدم إليكم والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

بما أن حوادثنا التى وقعت اليوم كنا سنبلغها إلى قيادة فيلق جناح هزار غراد

وقيادة سلسترة إلا أنه نظراً لانقطاع خط المخابرة نرجو إبلاغ ذلك من طرف دولتكم إلى القيادتين المشار إليهما . والأمر مفوض

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه وإن كان من اللازم إحراق وتخريب الموقع الذى نحن موجودين به عند انسحابنا لئلا يستفيد منه العدو حسب إرادتكم العلية التى سبق أن أخذنا على عهدتنا تنفيذها إلا أنه نظراً لعدم هجرة معظم الأهالى لأسباب قهرية لم نر من الجائز إحراق وتخريب الموقع المذكور . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

أعرض أنه يستفاد من المعلومات التى وصلتنى الآن أن العدو قدم إلى جهة أبى أورمان مع مقدار ثلاثمائة سوارى ومدفع واتلف خط التلغراف وأنه جار إرسال قوته إلى تلك الجهة وأننا بعد إجراء ما يمكن إجراؤه من جهتنا سننسحب فى الحال بقدر الإمكان . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

قد أرسل هذا التلغراف ليلا إلى سعادة المير اللواء يوسف شهدى باشا فى دريندكوى تسليما إلى على الدركلى بن حسين ومصطفى الثاثار بن على وحسين الأرنؤوطى بن عبد الله من عساكر ضبطية بازارجق . والأمر مفوض

برقية بدون رقم

فى ١٤ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة شمنى

إننا مع كوننا فى حالة حرب مع العدو الآن فإن بعض أمراء الفرقة وضباطها وأفرادها اعتماداً على ما دار من الحديث على الهدنة بصفة غير رسمية من قبل . كما شاهدوا الحالة هذه راية المخابرة من جانب العدو ، فقد بادروا إلى الدخول معه فى المصاحبة فوقعوا فى شراكه وأصيبوا بمصائب جمة ، كما اتصل بنا ذلك بكل أسف . فيلزم من الآن فصاعداً عدم الاغترار بدسائس العدو . وكلما شوهد فى جهة يجب إطلاق النار عليه . وإذا تقرر لدى الدولة شيء سنخطركم به فى الحال .

برقية بدون رقم

فى ١٥ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

ألتمس التكرم بإصدار أمركم الأكيد إلى من يلزم بإسعافنا فى الحال بخمسة آلاف أقة شعير لأجل إدارة خيول الفرقة هنا . والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٥ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

نرجو التكرم بإفادتنا عما إذا كان رئيس إدارة فرقة بازارجق وهيئتها خطّ إلى ذاك الطرف أم لا .

برقية بدون رقم

فى ١٥ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة

بما أنه يلزم على كل حال ثلاثون عربة لركوب العساكر المتجمعين بمواقع استراحة صارىكوى من العساكر المرضى الذين لم يستطيعوا السير على الأقدام . فأرجو إصدار أمر دولتكم إلى من يلزم بإخراجها هذه الليلة على أن تكون هنا على الصباح والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٣

فى ١٥ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

إنى أشكركم على وصولكم مع العساكر الموجودين بمعيتكم إلى دريندكوى والله يعينكم وأهدى سلامى إلى الضباط والعساكر الموجودين معكم وإذا لزم للعساكر أى شيء تكرموا بطلبه من هنا لأجل إرساله . وقد كان نبه على يوسف شهدى باشا بأن يخبركم لترسلوا مقدارا من السوارى إلى قوزليجه فإذا كان هؤلاء السوارى لم يرسلوا بعد إلى تلك الجهة فأرسلوا أورطة واحدة من السوارى ليخبروكم على الأقل بأحوال العدو أولا بأول . ولا تؤخروا أخباركم عنا .

برقية بدون رقم

فى ١٥ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

هل شعر العدو برجوعكم من بازارجق ؟ وإذا كان شعر بذلك فهل ظهر سواريه أمامكم ؟ فالأمل الإفادة عن ذلك .

برقية بدون رقم

فى ١٦ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٨ يناير سنة ١٨٧٨

إلى قيادة وارنة .

عند ما كنا فى بازارجق قد سافر عساكر سوارى الضبطية وسوارى النظامية الشاهانية لتسجق طوجلى بالفرقة إلى جهة وارنة . وحيث أن الباقى من خيول السوارى المصرى بعد الذى هلك منها فى الحرب وبالأمراض لا يكفى للاستكشافات والخدمات الأخرى اللازمة لقوزيلجة وهنا كما هو معلوم لدولتكم . فألتمس التكرم بإصدار الأمر لمن يلزم بسرعة إرسال هؤلاء العساكر اليوم إلى هذا الطرف والأمر مفوض .

برقية بدون رقم

فى ١٦ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٨ يناير سنة ١٨٧٨
إلى قيادة وارنة .

بما أن عند هجرة أهالى بازارجق قد أرسل معهم طابور البشقان إلى حكومة وارنة قافلة قافلة للمحافظة عليهم فى الطرق . فالتمس التكرم باصدار الأمر لمن يلزم بسرعة إعادة الطابور المذكور إلى هنا . والأمر مفوض .

برقية رقم ٢٥

فى ١٦ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢٨ يناير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف وارد إلى قيادة بازارجق من قيادة وارنة

يدعو الحال إلى إبقاء ستة طوابير بيادة وبطاريتى طوبجية إحداهما من السوارى المصرى والأخرى من السوارى الشاهانى من القوة العسكرية الموجودة بمعية سعادتكم تحت قيادة المير اللواء يوسف شهدى باشا فى دريندكوى والتكرم بالحضور إلى هنا مستصحبا ما بقى زيادة من طوابير البيادة وبطاريات الطوبجية ونظراً لإرسالكم مقدار من السوارى إلى قوزليجة كما علم من الاخطار الوارد منكم اليوم ، فيلزم أن يوضع مقدار من السوارى الذى بقى فى قرية صارى كوى الواقعة فى طريق بازارجق ومقدار آخر منه أيضاً فى محل مناسب على الطريق الواقع فى الجانب الأيسر من الطريق المذكور . فالأمل الإجراء بمقتضاه

برقية رقم ٥١

فى ٢١ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٢ فبراير سنة ١٨٧٨
صورة تلغراف وارد إلى الفريق راشد باشا بوارنة من المير اللواء عثمان نجيب باشا بجهة عجملر .

إن الجواسيس الذين صدر الأمر بإرسالهم منذ بضعة أيام لم يحضروا بعد إلى هنا فإذا كانوا موجودين هناك فأرجو إرسالهم مساء اليوم .

برقية رقم ٢٨

فى ٢٢ كانون الثانى سنة ٩٣ الموافق ٣ فبراير سنة ١٨٧٨

تلغراف وارد إلى الفريق راشد حسنى باشا الموجود بوارنة من راشد كمال باشا الموجود باستحكام [فرانقة]

أعرض أنه لم يقع أى حادث بجهات [فرانقة] فى ظرف أربع وعشرون ساعة .

عبد الرحمن زكى

الدراسات المتعلقه
بتاريخ العصور الوسطى للغرب

جرى العرف بين قدامى المؤرخين من كتاب المدرسة البائدة على اعتبار العصور الوسطى فترة خالية من نور المدنية الحقة كان الفكر البشرى خلالها فى حالة ركود لا خير فيه .

ويتضح للقارئ من تصفح جمهرة هذه التآليف العتيقة أن كاتبيها إنما كانوا ينظرون إلى تلك القرون العشرة الواقعة بين القرنين الخامس والخامس عشر كما لو كانت قنطرة تصل بين المدنية الرومانية الباهرة وعصر النهضة الزاهر فوق وادى الظلمات السحيق وهو العالم الوسيط .

وقد كان لهذا الاعتبار الغريب أخطر الآثار فى توجيه البحث التاريخى الذى اقتصر على التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وظلت الكتابة فى تاريخ العصور الوسطى خاملة ذابلة فى مجملها ، ولم تنهض إلا فى مغرب القرن التاسع عشر أو فجر القرن العشرين عند ما أخذ البعض فى نشر طائفة من وثائق العصور الوسطى نشراً علمياً ظهر منه بوضوح تام خطأ النظرية القديمة ، حتى إنه لم يمض وقت طويل إلا وتنبه الوعى التاريخى تنبهاً كاملا إلى أن العصور الوسطى لم تكن غارقة فى بحار الظلام ، وأنها كانت مرحلة لازمة من مراحل الحضارة ، قد تركت طابعها الخالد على تقدم العقل الإنسانى وتطور الأنظمة الدستورية ونهضة الفنون والمعمار والأدب والفلسفة وغير ذلك من ضروب النشاط ، فهى إذن جديرة كل الجدارة بعناية الكتاب والباحثين لذاتها ، وهم كلما أوغلوا فى دراستها كلما تفتحت أمامهم بين ظهرانيها آفاق جديدة فى البحث لا يكاد النظر يحيط بمداها .

على ذلك أخذت الدراسات الوسيطة المكانة اللائقة بها فى عالم البحوث التاريخية العامة وفى جامعات أوروبا ، فأنشئت بها الكراسى لتاريخ العصور الوسطى بعد أن كانت خلواً منها . وكانت النتيجة المباشرة لكل هذا فيضاناً جارفاً من مختلف الكتابات فى التاريخ الوسيط يتيه عقل الطالب فيها . وإزاء

تلك الحركة الواسعة النطاق لم يجد البعض بداً من العمل على حصر هذه المراجع الوفيرة وترتيبها ترتيباً أبجدياً وموضوعياً لهداية الطالب إلى بغيته كما يتضح ذلك من مجموعات شفالييه[١] وپوتهاست[٢] ومولينييه[٣] وجروس[٤] وطومسون[٥] وغيرهم كثير . ونظراً لتراكم هذه المادة الواسعة عاماً بعد عام قام المؤرخ بيتوف[٦] بتأليف مجلد خاص اضطلع فيه بعمل دراسة تحليلية لأمهات مراجع التاريخ الوسيط المبعثرة فى مختلف الفهارس المذكورة ، وبهذا يسهل على الطالب مهمة البحث والعثور على بغيته . وعند نفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب ألفت الأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى لجنة خاصة من أعضائها فأصدرت الطبعة الثانية منه بعد مراجعتها وتنقيحها وتزويدها بما ظهر من الكتب الجديدة إلى سنة ١٩٣١ ، فكان هذا اعترافاً ضمنياً بقيمة ذلك المؤلف ، وهى الآن فى صدد إعداد طبعة ثالثة منه تحتوى على الأبحاث الحديثة التى جدّت منذ ١٩٣١ إلى الآن .

خلاصة القول أن الدراسات الوسيطة نشطت نشاطاً يفوق حد الحسبان ، حتى إنه لم يمر عام إلا وظهر منها فيه العدد الوفير من الأصول المنشورة والبحوث

---

(١) Chevalier, U. Répertoire des sources historiques du Moyen Age.
a) Bio-Bibliographie. 2 vols. Paris 1877-86. Supplément 1888. 2nd. edition, Paris 1905-7.
b) Topo-Bibliographie. 2 vols. Paris 1894-1903.
ويستعرض الأول الأصول مرتبة حسب حياة الأشخاص ، والثانى حسب الأماكن والبقاع .

(٢) Potthast, A. Bibliotheca Historica Medii Aevi. 2nd. ed. 2 vols. Berlin 1896.
ويشتمل على أصول العصور الوسطى لغاية سنة ١٥٠٠ م

(٣) Molinier, A. Les sources de l'histoire de France. Paris 1901-6.
ويتكون الجزء الخاص بالعصور الوسطى فى هذه المجموعة من الستة المجلدات الأولى .

(٤) Gross, C. The Sources and Literature of English History from the Earliest Times to about 1485. 2nd. ed. London 1915.
وتعد الأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى طبعة جديدة منقحة من هذا الكتاب فى الوقت الحاضر .

(٥) Thompson, J.W. Reference Studies in Medieval History. 3 vols. Revised edition, Chicago 1923-24.
فيه بعض قصور فى التفصيلات ولكن له قيمته الخاصة لحداثته النسبية .

(٦) Paetow, L.J. A Guide to the Study of Medieval History. Revised ed. London 1931.

والعجالات المتفرقة موزعة بين الدول الغربية وفى مختلف لغاتها . وإن سنة ١٩٥٠ لم تشذ عما سبقها من السنين فى هذا الميدان ، على أنها بحق كانت عامرة بفيض من التآليف التى شملت الكثير من الوثائق الأصلية ، والأعمال العلمية الكبرى والصغرى ، والبحوث الفردية فى موضوعات خاصة محدودة ، مما ألقى ضوءاً وهاجاً على نواح عدّة ومتباينة من تاريخ القرون الوسطى فى الغرب .

وإنه لمن العبث أو اللغو أن يدّعى كاتب هذه السطور أو غيره أنه يزمع الإحاطة بحذافير هذا الفصل من الأدب التاريخى لعام ١٩٥٠ فى مقال ، وإنما الغرض الذى نرمى إليه — وقد نوفق بعض التوفيق فى أدائه — بتلك الإلمامة السريعة ذو شعبتين : الأولى إرشاد القارئ إلى الأمكنة التى يستطيع الرجوع إليها فى البحث عما يهمه من المؤلفات التى اختصت بإحصاء كل ما يظهر من المؤلفات الجديدة فنشرتها تباعاً عاماً بعد عام . والثانية هى أن نردف ذلك بثبت مختصر ننتخب فيه أهم الكتب التى ظهرت عن العصر الوسيط فى تلك السنة لكى يكون فى متناول الكثيرين ممن لا حاجة لهم بتفصيل هذا الأدب الواسع الأطراف .

* * *

إن هناك فى نظرنا مصدرين رئيسيين لا بد لطالب العصور الوسطى من الرجوع إليهما للاهتداء إلى كل ما ظهر فى سنة ١٩٥٠ من الكتب والبحوث سواء أكان ذلك فى مجلدات مستقلة أم ضمن مجموعات متنوعة ومجلات مختلفة : المصدر الأول أوربى ، والثانى أمريكى .

أما الأول فهو : Revue d'Histoire Ecclésiastique وعلى وجه أخص العددان الأول والثانى من المجلد السادس والأربعين الصادر فى لوڤان (بلچيكا) سنة ١٩٥١ . ويقوم بالإشراف على نشر تلك المجلة عدد من كبار أساتذة الجامعة الكاثوليكية بالمدينة المذكورة ، وقد يتبادر للذهن أنها مجلة دينية فى طابعها العام ، غير أن اهتمامها الخاص بمصادر التاريخ الكنسى لم يحل ألبتة دون الإلمام بكل ما ظهر فى ميدان الدراسات الوسيطة الغربية دون التقيد بالمنحى الدينى البحت الذى يوحى به عنوان المجلة . ومجموع صفحات العدد المذكور ٧٤٨ صفحة موزعة على أربعة أقسام رئيسيه كما يلى :

(١) سلسلة من البحوث فى موضوعات متباينة أغلبها يتصل بالتاريخ

الوسيط (ص ص ٥ – ٢٠١)

(٢) نقد لعدد كبير من الكتب الهامة التى ظهرت خاصة فى سنة ١٩٥٠ (ص ص ٢٠٢ – ٣١٢) .

(٣) استعراض للنشاط التاريخى والمشروعات التى تتصل بالتاريخ الكنسى أو الدينى فى مختلف الدول مرتبة ترتيباً أبجدياً (ص ص ٣١٣ – ٥٢٠)

(٤) أما بقية العدد فثبت واسع بالكتب والبحوث التى ظهرت فى تلك السنة ، وهى مرتبة ترتيباً موضوعياً حسب الفنون والعلوم التى تعالجها ، ويلحق بها تحليل عام للمقالات التى نشرت فى مختلف المجلات .

أما المصدر الثانى وهو الأمريكى فهو : Speculum: A Journal of Mediaeval Studies. وهذه هى المجلة التى تصدرها الأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى فى أربعة أعداد سنوية منها عدد كل ثلاثة أشهر . وفى أعداد المجلد السادس والعشرين الصادر فى سنة ١٩٥١ ثبت آخر اختص فى هذه الحالة بمراجع التاريخ الوسيط فحسب مما ظهر فى أثناء سنة ١٩٥٠ على وجه أخص .

ومع أن الأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى هيئة حديثة العهد ، جاء تأسيسها فى سنة ١٩٢٥ ، فإنها كادت تبلغ مركز الصدارة من حيث الإنتاج العلمى الجدّى المضطرد الزيادة . فإلى جانب المجلدات الست والعشرين من مجلتها قد نشرت سلسلة من الكتب والبحوث المستقلة من أقلام أساتذة العصور الوسطى الأمريكيين بلغ عددها الآن نحو ستين مجلداً ورسالة ، نبين فيما يلى المجلدات الخمسة الأخيرة من بينها :

1. Emily L. Shields & Harry Blumberg (edd.) Averrois Cordubensis Compendia Librorum Aristotelis Qui Parva Naturalia Vocantur. (Vol. VII — Corpus Commentariorum Averrois in Aristotelem) Pp. XXIV, 276.

وهو المجلد السابع من شروح ابن رشد على أرسطاليس منقولا إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى :

2. Willi Apel, — French Secular Music of the Late Fourteenth Century. Pp. 133 & Plates.
3. W.A. Morris & W.H. Dunham, — The English Government at Work 1327-36. (Vol. III, Local Administration and Justice.) Pp. XVIII, 285.

4. J. Hammer. — Geoffrey of Monmouth : Historia Regum Britanniae. Pp. X, 292.
5. Roy J. Deferrari, — Hugh of St. Vic or : On the Sacraments of the Christian Faith (De Sacramentis). Pp. XX, 486.

أما المجلة فلا تتناول غير التاريخ الوسيط وعلومه المساعدة ، ويفتتح كل جزء من أجزائها بعدد من البحوث والمقالات يتلوها قسم واسع يختص بنقد عدد عديد من الكتب التي ظهرت فى هذه المادة ، ويختتم بقائمتين : إحداهما ثبت بأسماء الكتب الجديدة فى التاريخ الوسيط ، والأخرى تحليل عام للبحوث الفردية الصغرى التى ظهرت فى مختلف المسجلات العالمية بموضوعات متصلة بذلك التاريخ .

* * *

ومع أن هاتين المجلتين فيهما من المادة ما يكفى لتقدير الموقف العام لدراسة تاريخ العصور الوسطى فى الغرب ، ولهداية الباحث إلى المنابع الخاصة لأى موضوع معين من هذا التاريخ ، إلا أن ذلك لا يحول دون تسجيل بعض المجلات الأخرى وبعض الهيئات التى قد يكون فى نشاطها نفع إضافى للمشتغل أو المتخصص فى الثقافة الوسيطة وأدبها التاريخى . ونذكر فيما يلى الأمثلة البارزة من بينها دون تفصيل محتوياتها المتشعبة مما تضيق عنه هذه الصفحات :

1. The Progerss of Mediaeval and Renaissance Studies in the United States and Canada. (University of Colorado.)
2. Medievalia et Humanistica. (Boulder, Colorado, U.S.A.)
3. Dumbarton Oaks Papers. (Washington. U.S.A.)
4. Byzantina — Metabyzantina. (New York Society for the Promotion of Byzantine and New Greek Studies.)
5. Medium Aevum. (Oxford.)
6. Camden Series, Transactions and Publications of the Royal Historical Society. (London.)
7. English Historical Review. (London.)
8. Mediaeval Studies. (Pontifical Institute of Ottawa, Canada.)
9. Bibliothèque de l'Ecole des Chartes. (Paris).
10. Le Moyen Age. (Paris.)

* * *

والآن نختم هذا المقال بثبت لأهم الكتب والأبحاث فى تاريخ العصور الوسطى الغربية مما ظهر فى أثناء سنة ١٩٥٠ بأوربا وأمريكا ، وكل مرجع

منها مشفوع بمكان الطبع وعدد صفحاته فقط .

Halphen L. — A travers l'histoire du moyen âge. (Paris.) Pp. XI 352.
Beck, M. — Finsteres oder romantisches Mittelalter ? Aspekte der modernen Mediaevistik. (Zurich) Pp. 32.
Neues, W. — Die Kirche des Mittelaters. (Die katholische Kiıche im Wandel der Zeiten und der Volker, T. II.) 2nd. ed (Bonn) Pp. 440.
Daniel-Rops, H. — L'Eglise des temps barbares. (Les grandes études historiques. Histoire de l'Eglise du Christ, T. II.) New edition. (Paris.) Pp. 776.
Deansly, M. — A History of the Mediaeval Church 590-1500 A.D. New edition. (London.) Pp. 292.
Berardis, V. — Italy and Ireland in the Middle Ages. (London.) Pp. 227.
Lagier, C. — L'Orient Chrétien. T. II : De Photius à l'empire latin de Constantinople. (Paris.) Pp. XII, 610.
Hampe, K. — Das Hochmittelalter : Geschichte des Abendlandes von 900 bis 1250. New edition. (Munich.) Pp. 439.
Powicke, F.M. — Ways of Mediaeval Life and Thought. (London.) Pp. 255
Cam, Helen. — England before Elizabeth. (London.) Pp. XII 184.
Coghill, N. — Visions from Piers Plowman. (Oxford.) Pp. 143.
Hay. D. (ed.) — The "Anglica Historia" of Polydore Vergil, A.D. 1485-1537. (Camden Series LXXIV, Royal Historical Society, London.) Pp. XIII, 373.
Kelly, Amy. — Eleanor of Aquitaine and the Four Kings. (Harvad University Press.) Pp. XII, 431.
Walker, Curtis H. — Eleanor of Aquitaine. (University of North Carolina Press.) Pp. XIV, 274.
Lawrence, Wm. W. — Chaucer and the Canterbury Tales. (Columbia University Press.) Pp. IX, 184.
Mayer, Th. — Fursten und Staat. Studien zur Verfassungsgeschichte des deutschen Mittelaters. (Weimar.) Pp. IX, 327.
Boutière, J. et Schutz, A.H. — Biographies des troubadurs : Textes provençaux. (Paris.) Pp. XXXII, 451.
Bukofzer, Manfred F. — Studies in Mediaeval and Renaissance Music. (New York.) Pp. 324.
Chadwick, O. — John Cassian : A Study in Primitive Monasticism. (Cambridge University Press.) Pp. XI. 213.
Durant, Will. — The Age of Faith : History of Mediaeval Civilization — Christian, Islamic and Judaic — from Constantine to Dante A.D.

325-1300. (Vol. IV of the Story of Civilization. New York.) Pp. XVIII, 1196.

Grand, R. — L'agriculture au moyen âge. (Paris.) Pp. 740.

Jacopo di Verona. — Liber Peregrinationis. (Rome.) Pp.XXXI,240.

Kampf, H. — Das Reich im Mittelalter. (Stuttgart.) Pp. 150.

Sellery, George C. — The Renaissance : Its Nature and Origins. (University of Wisconsin Press.) Pp. 296.

Thomas, Mary E. — Mediaeval Skepticism and Chaucer. (New York.) Pp. 184.

Vasiliev, A.A. — Buyzance et les arabes. T. II : La Dynastie Macédonienne (867-959) — (Paris.) Pp. X, 440.

Bréhier, L. — Le Monde byzantin. T. III : La civilization byzantine. (Paris.) Pp. XXV, 627.

Carlyle, R.W. & A.J. — The History of Mediaeval Political Thought. Vol. V : The Political Theory of the Thirteenth Century. (London.) Pp. XX, 494.

Folz, R. — Le souvenir et la légende de Charlemagne dans l'empire germanique médiéval. (Paris.) Pp. 624.

Hoyt, Robert S. — The Royal Demesne in English Constitutional History. (Cornell University Press.) Pp. XII, 253.

Hunt, R. and Kilbansky, R. (edd.) — Mediaeval and Renaissance Studies. (Warburg Institute, London.) Pp. 189.

Liebeschutz, H. — Mediaeval Humanism in the Life and Writings of John of Salisbury. (Warburg Institute, London.) Pp. 126.

Coptic Studies in Honour of Walter Ewing Crum. (The Byzantine Institute, Boston.) Pp. XI, 572.

Hadjinicolaou, A. — Recherches sur la vie des esclaves dans le monde byzantin. (Institut Français d'Athênes.) Pp. 134.

Smallgrove, Harold S. — The Lusignans in England, 1247-1258. (University of New Mexico Publications in History II.) Pp. 96.

Jones, Charles W. (ed.) — Mediaeval Literature in Translation. (New-York.) Pp. XX, 1004.

عزيز سوريال عطيه
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة فاروق الأول

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف رنسيان

RUNCIMAN : *A History of the Crusades*
(Cambridge University Press, 1951)

هذا هو الجزء الأول من تأليف كبير فى موضوع ضخم ، وهو الحروب الصليبية ، ويبدو واضحاً من قراءة هذا الجزء أن الأستاذ رنسيان عكف على دراسة هذا الموضوع فى صبر علمى خارق منذ سنين ، وله عداه مؤلفات ممتازة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها .

وفى نقد الأستاذ توينبى لهذا الجزء الأول شرح لمسألتين هامتين للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى خاصة ، وللمشتغلين بالتاريخ عامة ، وهما : أولاً أن معظم مؤرخى الحروب الصليبية أوربيون غربيون ، بدأوا حياتهم العلمية فى ميدان التاريخ الأوربى الغربى ، واعتبروا الحروب الصليبية جزءاً من هذا الميدان ، أى أن بلاد المسيحية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) ، وبلاد المسلمين كذلك ، ليست سوى مسرح لأعمال الصليبيين ، وأن أهل هذه البلاد — مسيحيين شرقيين ومسلمين سنيين وشيعة — ليسوا سوى كتل بشرية وظيفتها الانهزام والخضوع والتبعية أو الفناء أمام الحملات الصليبية . والواقع أنه منذ أيام المؤرخ فيلكن الألمانى ، والمؤرخ الفرنسى ميشو ، لم يشذ عن هذه القواعد الصليبية العامة من المؤرخين الأوربيين الغربيين إلا القليل ، أمثال ستيفنسن وشالاندون وبرهييه ورنسيان مؤلف الكتاب موضوع هذا النقد .

أما المسألة الثانية التى شرحها توينبى ، فهى أن الموضوع التاريخى الواحد يمكن دراسته علمياً من عدة زوايا مختلفة ، فتخرج الصورة فى جميع الأحوال واحدة ، من حيث الموضوعية والسلامة التاريخية ، ولكنها تتراءى مختلفة فى عرضها لا جوهرها ، من حيث المنظور التاريخى ، وهو ما لا بد منه قطعاً ، كما تتراءى المجسمات من القدور والآنية فوق الكراسى مختلفة المنظور والظل من

مختلف المواقف والمقاعد فى حجرة الرسم .

والقارئ لهذا الكتاب لا ينبغى له أن ينتظر جديداً من الحقائق إلا فى التفاصيل ، فأجيال المؤرخين الأوربيين الغربيين لم تترك من موضوع الحروب الصليبية ناحية أو مرحلة إلا درستها أكثر من مرة . على أن هذا الكتاب بالذات يمتاز بأنواع من الجدة والابتكار ، أولها استطاعة المؤلف أن يعتصر مجهودات هذه الأجيال كلها اعتصارا علمياً ، على اختلاف لغاتها ، وأن يخرج من هذه العملية الجهيدة بمادة نهائية شاملة جامعة لتاريخ الحروب الصليبية .

واستقامت للمؤلف فرصة مزدوجة نادرة ، وهى أنه تعلم فى غرب أوربا ، وانصرف إلى دراسة التاريخ البيزنطى ، وعاش فى إستانبول عيشة الباحث المنصرف إلى البحث الهادئ عدة سنين ، فاستطاع بذلك أن يطل على موضوع الحروب الصليبية من « شباك » مشرف تاريخياً وجغرافياً على الجهات الأصلية الأربع لموضوعه ، إن صح هذا التعبير هنا . ولذا جاء منهجه فى الحروب الصليبية غير مسبوق إليه ، وهذا هو النوع الثانى من الجدة التى يمتاز بها هذا الكتاب ، إذ بدأه المؤلف من استيلاء المسلمين على فلسطين والشام أيام الخلفاء الراشدين ، وامتداد الدولة الإسلامية إلى معظم غرب آسيا ومصر وشمال إفريقية ، مما غير الموازين السياسية والتوزيع الدينى منتصف القرن السابع الميلادى . ثم تتبع المؤلف حوادث التصادم السياسى والحضارى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى تفصيل تاريخى محمود ، ووقف وقفة وصفية طويلة عند حركة الحجيج التى أتت بأفراد وجماعات من المسيحيين من كل فج أوربى غربى عميق لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة بالشرق ، وللتبرك بمخلفات المسيح والقديسين بأشتات المدن الشرقية . جاء أولئك الأفراد والجماعات منذ القرن السابع الميلادى من فرنسا الميروفنجية ، وإنجلترا السكسونية ، وألمانيا الإمبراطورية ، وإيطاليا مركز البابوية الناشئة ، حتى إذا كان القرن العاشر الميلادى ازدادت هذه الحركة حتى بلغت بعض جماعات الحاج آلافاً مؤلفة من رجال ونساء وأطفال من جميع طبقات المجتمع الأوربى الغربى ، وظلت هذه الحركة تسير سيرها الدافق إلى أغراضها التبركية وتعود إلى مستقراتها وأوطانها الأوربية الغربية فى رضى وأمن وطمأنينة ، بفضل ما ساد الدولتين الفاطمية فى مصر والشام والدولة البيزنطية فى البلقان وآسيا الصغرى وقيليقية من علاقات حسن الجوار والتسامح

الناشىء من مبادلة المنافع الاقتصادية .

ثم هبط السلاجقة الأتراك إلى أقاليم غرب آسيا ، وأعقبهم أتباعهم من أصناف التركمان ، فاستولى هؤلاء وأولئك على كثير من أقاليم الدولة البيزنطية ومدنها ومعاقلها فى آسيا الصغرى ، مثل قونية ودوراليوم ونيقية ، كما استولوا على كثير من أقاليم الدولة الفاطمية ومعاقلها الحصينة بالشام ، مثل حلب وحمص وحماه ودمشق وبيت المقدس . وبسبب ما طرأ على الأوضاع السياسية من تغير وقلق نتيجة انتزاع الدولة السلجوقية هذه الأجزاء الهامة من أطراف هاتين الدولتين غدا الحج المسيحى من أوربا عبر آسيا الصغرى والشام مركباً صعباً لا لقيام الدولة السلجوقية الموحدة المهيبة المتحمسة لحرفية شرائعها الدينية ، بل لذهاب الوحدة السياسية عن هذه الدولة وتفككها واضطراب منابع السلطة والنفوذ فى دويلاتها فضلا عما طرأ على الدولة الفاطمية من تفكك من نوع آخر . ومع هذا لم ينقطع تيار الحج من أوربا ، وفى هذا دلالة لا على دوام روح التقوى بين الناس فى غرب أوربا فحسب ، ولا على خطأ القول بأن تعصب الدولة السلجوقية الموحدة أو دويلاتها المفككة منعت الحج المسيحى إلى فلسطين منعاً باتاً ، بل على دوام إمداد المجتمع الأوربى الغربى بقصص حقيقى عن الشدائد والتضييقات التى وقعت لكثير من الحجاج المسيحيين ، وخلقت فى أوساطهم تفكيراً فى تخليص الأماكن المسيحية المقدسة والطرق والمسالك المؤدية إليها من أيدى المسلمين .

ونوع ثالث من الجدة فى هذا الكتاب : تحوّل المؤلف من موضوع الحج المسيحى وأثره فى تطور الفكرة الصليبية إلى ميدان الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا ، وتطور الحوادث فى هذا الميدان من حركة مقاومة مسيحية ضد سيادة إسلامية إلى حركة صليبية عامة تزعمتها البابوية والديرية الكلونية ، وأسهمت فيها جماعات كبيرة من الفروسية الأوربية ، على رأسها زعامات مشهورة من شمال إيطاليا وبرجندية وجنوب فرنسا . وتشجيعاً لهذه الحركة أفتى البابا جريجورى السابع (هلدبراند) بأن البلاد التى يستولى عليها فرسان غرب أوربا من المسلمين حلال لهم يتملكونها وأبناؤهم من بعدهم ، كما دعا البابا أربان الثانى جميع الراغبين فى الحج إلى الأماكن المسيحية بالشرق أن يحجوا حجيجاً عسكرياً بسيوفهم إلى إسبانيا ، أو أن يوفروا ما يتطلبه السفر

إلى فلسطين من المال لإعادة بناء المدن التى خربتها الحروب الإسبانية ضد المسلمين . (انظر ص ٩٠ – ٩٢ من الكتاب) .

يتضح من ذلك أن الحروب الصليبية بمبناها ومعناها فى المصطلح التاريخى بدأت فعلا فى أوربا قبل موعدها فى كتب البعض من المؤرخين السالفين ، وأن الفروسية الأوربية اشتركت فى هذه الحروب ، وأن البابوية تزعمت الدعوة إليها قبل خطبة أربان الثانى فى المجمع الدينى بمدينة كليرمنت بفرنسا سنة ١٠٩٧م. وهى الخطبة التى يصرّ أولئك البعض من المؤرخين وأشباههم أن يجعلوا منها سبباً وفاتحة لعصور الحروب الصليبية . والواقع أن البابا جريجورى السابع فكر تفكيراً جدياً فى توسيع هذه الحروب التى أشعلتها الدول الإسبانية المسيحية واشتركت فيها الفروسية الأوربية الغربية بنصيب متصل ، كما دعا دعاية جدية لامتداد هذه الحروب بحيث تشمل الأناضول ، وذلك بعد أن غدا تفكك الدولة السلجوقية خطراً أكبر على الحجاج المسيحيين وفرصة أعظم للنصر فى آن واحد . وشجع البابا على المضى فى هذا التفكير وهذه الدعاية مدة ما بدا من أمل فى قبول البيزنطيين توحيد الكنيسة البابوية (الكاثوليكية) والكنيسة البيزنطية (الأرثوذكسية) تحت التاج البابوى . غير أن توحيداً لم يحدث ، وجاء البابا أربان الثانى فاهتم لهذا الأمل بالذات ، وفاوض بشأنه الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كرمنين ، واستقبل سفراءه ووعدهم بدعوة الفروسية الأوربية الغربية إلى الدخول فى جيوش الإمبراطورية البيزنطية لدفع أمراء السلاجقة عن آسيا الصغرى وغيرهم من أعداء الإمبراطورية فى البلقان : وفى مقابل ذلك وعد السفراء بقيام الإمبراطور على إزالة ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من أسباب التباعد والكراهية . وبينما البابا فى طريقه من بياتشنزا بإيطاليا إلى كليرمنت بفرنسا لأمور تتعلق بالتاج الفرنسى والشئون الكنسية الفرنسية نبتت فى رأسه ونضجت فكرة إثارة أوربا كلها لحرب صليبية جامعة ، ضد المسلمين فى الشرق ، لا لمساعدة الدولة البيزنطية فقط . وفى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ م خطب أربان خطبته المشهورة فى مجلس كليرمنت ، ولقيت دعوته إلى حرب صليبية جامعة من الحماسة أكثر مما انتظر لأنها فكرة طالما جالت برءوس زعامات سابقة ، حتى إذا انفض المجلس انتشر الأساقفة فى غرب أوربا يدعون دعوة البابا ، كما انتشر المتطوعة من الرهبان فى جوف المجتمع

الأوربى يريدون خدمة هذه الدعوة ، ومن أولئك كيوكيو — أى بطرس الصغير الذى اشتهر باسم بطرس الناسك ، وغيره من الزعماء « الشعبيين » الذى اجتذبتهم شخصية بطرس القميئة الساحرة ، أمثال والتر الفقير وجوتشوك .

وإذا كانت أبعاض من هذه الحقائق معروفة تمام المعرفة فى مختلف المؤلفات الخاصة بالحروب الصليبية ، فالجديد هنا — وهذا هو النوع الرابع من الجدة فى هذا الكتاب — أن هذه الحقائق المبعثرة فى عدد من الكتب صارت معروضة عرضاً نهائياً فى كتاب واحد ، مع استناد المؤلف لا إلى المراجع الأصلية الغربية فحسب ، بل إلى المراجع الأصلية البيزنطية كذلك ، وهو ما يمتاز به هذا الكتاب من أوله إلى آخره . ثم إن القارئ لا يكاد يصل مع المؤلف إلى حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالأولى فى آسيا الصغرى حتى يرى الحواشى مشيرة إلى مراجع تركية وأرمنية وعربية أصلية ، فضلا عن المراجع اللاتينية واليونانية التى تقدمت الإشارة إليها ، وفضلا عن المراجع الحديثة فى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية .

وتتضح الجدة فى صورة أخرى بهذا الكتاب من تتبع المؤلف أدوار الحملات الصليبية الشعبية التى سبقت الحملة المعروفة بالأولى — وهذا هو النوع الخامس من الجدة . ووصلت هذه الحملات إلى القسطنطينية بزعامة بطرس الناسك وغيره ، وأصرت على العبور إلى آسيا الصغرى استفتاحاً للحرب ضد المسلمين قبل وصول الجيوش المنظمة ، ولقيت حتفها إلا قليلا من رجالها على يد المسلمين عند الشاطئ الأسيوى لبحر مرمرة شمالى نيقية ، وبطرس الناسك غائب عنها فى القسطنطينية . على أن خاتمتها هذه لم تذهب هباء ، إذ فتحت عيون الزعماء والقادة فى الحملة الصليبية الرسمية لما سوف يلقون من المقاومة ، وما سوف يحتاجون إليه من معرفة بجغرافية آسيا الصغرى . وعاش بطرس الناسك وسار مع هذه الحملة الرسمية عبر آسيا الصغرى ، وشهد حوادث الصليبيين حول إنطاكية ، وخارت قواه واستولى عليه الخوف وفرّ هارباً من الميدان ، ثم عاد إلى الظهور مرة أخرى بعد استيلاء الصليبيين على إنطاكية ، وكفر عن خطيئة الهرب بالقيام بالسفارة بين زعماء الحملة والأتابك كربوجا أمير الموصل الذى كان أول الشخصيات الإسلامية التى وقفت للصليبيين بأطراف الشام ، وهددت زحفهم تهديداً خطيراً . (انظر ص ص ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ — ٢٤٧ من الكتاب) .

وثمة مواضع أخرى جديدة فى هذا الكتاب ، وهى النوع السادس من الجدة فى تأليفه ، ومنها شرح المفاوضات التى دارت بين الصليبيين والدولة الفاطمية حول مشروع خلاصته أن يقنع الصليبيون بما يفتحونه من البلاد الشامية الشمالية ، وأن يتركوا فلسطين لتستولى عليها الخلافة الفاطمية من أيدى السلاجقة ، وأن يساعد الفريقان بعضهما بعضاً لتحقيق ذلك على حساب الأمراء السلجوقيين المسلمين (انظر ص ٢٢٩ — ٢٣٠) . ومنها كذلك عناية المؤلف بشرح أنواع المقاومة الإسلامية ومواضعها فى تفصيل منذ عبر الصليبيون بجيوشهم إلى آسيا الصغرى . (انظر ص ص ١٧٥ — ١٩٤) ، ومن أنواع هذه المقاومة وأشباهها فى الشام وفلسطين يتضح بعض السر فى سهولة الانتصارات الصليبية .

يتبقى بعد هذا كله نوع آخر من الجدة ، وهو الملحق رقم ١ (ص ٣٢٧ — ٣٣٥) حيث تناول المؤلف مراجع الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ومؤلفيها بالنقد والتحليل على طريقة الجرح والتعديل ، ثم الملحق رقم ٢ (ص ٣٢٦ — ٣٤١) حيث حلل المؤلف أعداد الجيوش فى هذه الحملة ، وبين أن هذه الجيوش التى لم تبلغ إعدادها فى الواقع ما بلغته فى حوليات المؤرخين المعاصرين احتوت على كثير من غير المحاربين ، وأن كثيرين من قادتها جاءوا إلى الشرق بزوجاتهم وأخواتهم وأولادهم ، مما يدل على أن بعض أولئك القادة الذين أسهموا فى الحروب الصليبية عامة بالمجىء إلى الشرق لم يريدوا لأنفسهم الثواب والتقوى وحسن المآب فحسب ، بل المكافأة الدنيوية والمجد ، وحسن العقبى السياسية بالإقامة فى إمارة أو مملكة شرقية بعيدة عن صخب المنافسة والتزاحم والتخاصم فيما بين الملكية والإقطاعية فى غرب أوربا . على أن هذه الدعوى لا تستند إلى الاستنتاج فحسب ، بل إلى حقائق استمدها رنسيمان من مواضى أولئك القادة فى أوربا ، قبل أن يتزعموا الحروب الصليبية فى الشرق .

محمد مصطفى زيادة

نقد الحروب الصليبية

تأليف پالمر ا . ثروپ

THROOP (PALMER A.) : *Criticism of the Crusades*
(Swets & Zeitlinger, Amsterdam, 1940).

يحضرنى خلال قراءتى هذا الكتاب شعور وضح لى حين غادرت إستانبول صيف سنة ١٩٣٦ م ، إذ رتبت رجوعى إلى القاهرة عن طريق إكسبريس الشرق الذى يخترق آسيا الصغرى إلى الشام وفلسطين ومصر . وفى صباح باكر عبرتُ البوسفور من الشاطئ الأوربى إلى الشاطئ الأسيوى ، وتحرك القطار والساعة لم تبلغ الثامنة ، حتى إذا اكتمل حركته ملء البخار أخذ ينهب طريقه فى لهث ، صاخبا مخترقاً أرضاً جبلية معظم الأحيان ، سهلية أقل الأحيان ، وهى أرض تربط مناظرها المسافر العابر إلى شباك مقعده برباط وثيق ، وتفتح عينيه فتحة الإعجاب والإمتاع والمؤانسة ، ولا سيما حين تنفرج الجبال والتلال المارة فى سرعة عن أمواه بحر مرمرة وزرقتها الصافية بعض المواضع ، ثم خضرتها الصافية كذلك بعض المواضع الأخرى . وطوى القطار هذا الطريق الساحلى السحرى — وهو طريق القوافل والمتاجر بين آسيا وأوربا منذ القديم ، تولاه الرومانيون بالتعبيد ، شأنهم بجميع الطرق الواصلة بين ممتلكاتهم ، ثم اقتفت السكة الحديدية والبخار تعبيدهم ، كما هو الحال فى معظم الطرق التى تجرى عليها السكك الحديدية بالبلاد التى امتدت إليها الدولة الرومانية القديمة . وعبر القطار على سكودار (خلقدونية) ، وإزميت (نيقوميديا) ، دون أن يتمهل أو يتوقف ؛ ثم عرج نحو إسنك (نيقية) ، دون أن يقترب منها ؛ ثم لم يلبث أن صار فى جوف آسيا الصغرى ، وصارت مناظر الطريق رتيبة كالحة ، مما يسمح للمسافر أن يتلهى عنها وعن المحطات المتعاقبة بطعام أو غفوة منام ، أو صفحات من كتاب . وفى عصر ذاك اليوم حول الساعة الرابعة وقف القطار وقفة طويلة عند محطة إسكى شهر ، وهى دوراليوم ذات الشهرة فى أخبار الحملة الصليبية المعروفة بالأولى . ومرّ بخاطرى

وقتذاك ما يتواتر فى الكتب العامة بشأن هذه الحملة التى عبرت البوسفور أوائل إبريل سنة ١٠٩٧ م ، واخترقت هذا الطريق إلى دوراليوم حتى وصلتها أوائل يولية من السنة نفسها – لا بإكسبريس الشرق السريع ، بل بجيش إقطاعى وئيد الحركة ، ثقيل العدة والمؤونة ، مختلف القيادات والطاعات ، قليل المعرفة بالجغرافيا ، وذكرت نص هذا المتواتر فى الكتب عن هذه الحملة ، وهو « ثم رحل الصليبيون عن القسطنطينية ، واخترقوا آسيا الصغرى إلى دوراليوم ، فاستولوا عليها عنوة من سلطان السلاجقة بالروم ، وأخذوا طريقهم منها إلى الشام » .

وهنا كشفت لنفسى – وليس لأول مرة – سعة الهوة بين بعض المتواتر من الحقائق فى كتب التاريخ وبين الحقيقة ، ولا سيما حين يكون بعض ذلك المتواتر خلواً من طعم الجغرافيا ، وعرفت أن الأسطر القليلة التى يقرأها القارئ فى التاريخ تنطوى أحياناً على ما يملأ مجلداً من الحوادث المنسية ، وربما يكون بعض هذه الحوادث مما يشرح ظاهرة من الظواهر التاريخية اللاحقة . ومصداق ذلك أن استيلاء البيزنطيين المرافقين للحملة الصليبية المعروفة بالأولى على نيقية من سلطنة السلاجقة بالروم صلحاً ، وهى من أوائل المدن التى وقفت عندها الجيوش الصليبية والبيزنطية قبل دوراليوم ، كان بذرة من بذور العداوة الصليبية والبغض نحو البيزنطيين – أى البذرة التى أثمرت ما هو معروف فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م ، حين هدم الصليبيون بناء الإمبراطورية البيزنطية هدماً أكد ضعفها وانحلالها وسهولة زوالها على أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ م .

يحضرنى ذلك كله فى نقد هذا الكتاب لأنه أثار فى نفسى شعورا مشابها ، إذ موضوع الكتاب بحث فى فشل الحروب الصليبية ما تقدم منها وما تأخر ، وهو فشل يرجع معظمه فى نظر المؤرخين إلى انصراف ملوك غرب أوربا إلى شئون ممالكهم وغيره من الأسباب المتواترة ، حتى إذا انتهيت من قراءة هذا الكتاب ألفيت أسباباً جديدة . على أن المؤلف لم يعمد إلى حوادث الحملات الصليبية ذات الأرقام وغير ذات الأرقام ليجعل منها مادة للمضى فى بحثه ، فهذه عملية سهلة ، وما عليه إلا أن يأخذ الحملة الصليبية المعروفة بالثانية مثلا ، فيدلل على فشلها من تنكبها عن غرضها إلى مسألة دمشق ، أو يأخذ الحملة

الصليبية المعروفة بالثالثة ، فيدلل على فشلها كذلك من اختلاف ملكى إنجلترا وفرنسا على سياسة الحملة . أقول إن المؤلف لم يعمد إلى هذه الطريقة التقليدية القريبة ، لأنها ليست سبيله فى البحث ، بل اتخذ موقفاً عند سنة ١٢٧٤ م ، وهى السنة التى جمع فيها البابا جريجورى العاشر مجلساً دينياً لاستبانة الطرق والمسالك والوسائل والإمكانيات لمشروع حملة صليبية إلى الشرق ، ثم جمع المؤلف إليه المواد المكتوبة التى أنتجها هذا المشروع ، وهى مجموعة رسائل ومذكرات طويلة قدمها أصحابها بناء على أمر البابا ، أولها رسالة كتبها راهب فرنسسكانى عنوانها : Collectio de Scandalis Ecclesiae يشرح فيها سخط الناس فى مختلف الممالك الأوروبية من أساليب بعض رجال الكنيسة فى جمع الأموال من أجل الحروب الصليبية ، وثانيها رسالة كتبها أسقف أولمتز بألمانيا قال فيها إن الأقربين من الأوروبيين الوثنيين أولى بالحروب الصليبية من المسلمين البعيدين ، وثالثها رسالة كتبها راهب دومنيكانى من طرابلس بالشام ، عنوانها De Statu Saracenorum ، وخلاصتها قلة الجدوى فى الحروب الصليبية وجيوشها وسيوفها ومقاتلها ، بالقياس إلى كثرة الفائدة من التبشير بالدين المسيحى بين المسلمين ؛ مثلما قام به القديس فرنسيس لدى السلطان الكامل فى مدينة المنصورة ، لا دمياط كما قرر المؤلف .

وبالإضافة إلى هذه الرسائل والمذكرات الطويلة بضع رسائل قصيرة ذكرها المؤلف فى الفصل السادس من كتابه ، واستخدمها استخداماً تحليلياً دقيقاً فى بحثه . ولعل أعمق ما اشتملت عليه كل هذه الرسائل والمذكرات من ملاحظات أن إخفاق ملك فرنسا لويس التاسع مرتين فى حملتين صليبيتين كبيرتين — وهو التقى النقى الذى قدسته الكنيسة وحاطه المعاصرون بالجلالة الدينية والإخلاص لوجه الدين — شكك القلوب بأنحاء أوربا فى رضى الله عن الحروب الصليبية وفكرتها . ومن المعروف أن القديس برنارد أسهم بالدعوة الحارة للحروب الصليبية السابقة لأيام ملك فرنسا لويس التاسع ، وهو لا يقل عنه قداسة وجلالة ومكانة فى العقل الدينى الأوربى ، ومن المعروف كذلك أن هذه الحروب فشلت برغم القديس برنارد ، فمن باب تطبيق اللاحق على السابق نستطيع أن نقول بأن فشل هذه الحروب خلق بين الناس شيئاً من الشك فى الفكرة الصليبية كلها منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، بل نستطيع أن ندلل

من المادة التاريخية الخاصة بالحملة الصليبية المعروفة بالأولى أن كثيراً من الناس خالوا الفكرة الصليبية غروراً وفساداً ومضيعة(١) .

ولمن يريد الإلمام بأسباب أخرى من أسباب الفشل الصليبي التي استخرجها المؤلف من أحوال في جوف المجتمع الأوربي أن يرجع إلى الصفحات ١٥٣ — ١٧٤ من الكتاب.

غير أني ألاحظ على المؤلف هنا أنه لم يضف إلى هذه الأسباب سبباً خارجياً رددته المراجع التي استأداها لبحثه في كثير من المواضع ، وهو ما استولى على المسلمين من روح معنوية عظيمة منذ استطاع صلاح الدين أن يجعل من بلاد الشرق الأوسط جبهة إسلامية متحدة ، وأن يحرز انتصارات كثيرة ضد الصليبيين . وألاحظ على المؤلف كذلك إغفال الدنيوية الظاهرة والباطنة التي أفسدت على الصليبيين نياتهم وأعمالهم منذ الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وشبيه بهذه الحركة الدنيوية ما غشي نواحي المقاومة الإسلامية وشخصياتها من انفصالية وأطماع توسعية محلية غير قليل من الأحيان بعد صلاح الدين .

وثمة ملاحظة أخرى من نوع آخر ، وهي أن ليس بهذا الكتاب الممتع كشاف في آخره ، وإذا كان من حظ كاتب هذه السطور أن يقرأه وينتفع به ، فإن وجود كشاف له مما يساعد على دوام الانتفاع به لاستجلاء مسألة لا يتسع الوقت دائماً للعثور عليها في الكتب العاطلة من هذه لأداة اللازمة للباحثين . وبالكتاب أخطاء مطبعية هجائية ، (انظر مثلا ٣٩ ، ١٢٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٤) لعل مصدرها طبعه في أمستردام بهولندا والحرب العالمية الثانية على أشدها ، وربما كان هذا كذلك هو السبب في عدم استطاعة المؤلف أن يتوفر على إعداد كشاف لكتاب هو في الواقع ذخيرة فريدة في موضوعه .

محمد مصطفى زيادة

---

(١) انظر (Runciman: A History of the Crusades P.141, note 2) وما هنالك من مراجع

أصول حملة فاشودة

تأليف رينوڤان

PIÉRRE RENOUVIN : *Les Origines de l'Expédition de Fachoda*
Revue Historique (72 année - J. CC Octobre - Décembre 1948

كتب الأستاذ رينوڤان ــ أستاذ التاريخ الحديث فى السربون وعضو المجمع العلمى الفرنسى ــ عن حملة فاشودة كيف قامت ، والظروف التى مهدت لقيامها ، والمشاريع التى سبقتها ، مهتماً بوجهة النظر الفرنسية قبل كل شيء .

وهذا الموضوع له أهميته الكبيرة بلا ريب من حيث الناحية الاستعمارية العامة ، والتنافس الإمبريالى بين فرنسا وإنجلترا خلال السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر . وله قيمة كبرى من حيث ارتباطه الوثيق بالمسألة المصرية ومسألة وادى النيل . وأصبح اسم فاشودة ، هذه القرية الصغيرة على النيل الأبيض علماً بين وقائع التاريخ العالمى المعاصر ، ورمزا لمنتهى ما وصلت إليه المنافسة الاستعمارية بين إنجلترا وفرنسا ، ودليلا فى آخر الأمر على ما تستطيعه القوة البحرية من الفصل الحاسم فى الأمور والأزمات الدولية ، ونهاية عملية حقيقية لموقف المعارضة القوية الذى وقفته فرنسا بإزاء الاحتلال الانجليزى لمصر .

ولذا فالموضوع مهم من حيث التاريخ الدولى العالمى ــ ولكنه يهم المصريين بصفة خاصة لما كان له من أثر فى تحديد مصير مصر السياسى لمدة ربع قرن من الزمن تقريباً ولما كان له من أثر فى تقوية دعائم النفوذ الإنجليزى فى وادى النيل .

ولقد ظلت دراسة ذلك الموضوع من الناحية السياسية إلى السنوات القليلة الماضية قائمة على ما كتبه المعاصرون وما خلفه الذين اشتركوا فى مغامرة فاشودة من أمثال مارشاند وكتشنر ، ولذا كانت دراسة ذلك الموضوع من الناحية التاريخية العلمية دراسة مشوهة ناقصة يظهر فيها روح التحيز القومى وتمجيد الوطن سواء أكانت هذه الدراسة إنجليزية أو فرنسية ، فهى دائماً تميل ناحية معينة وإن كانت كلها لا تستطيع إخفاء النهاية التى انتهت إليها حادثة فاشودة بانتصار

السياسة الإنجليزية وإذلال فرنسا إذلالاً لا يماثله فى قسوته وعنفه إلا إذلال سيدان قبل ذلك ببضعة عشر عاماً .

ويؤكد رينوڤان فى دراسته القيمة هذه الحقيقة السالفة الذكر ، ويرى أن الدراسات لذلك الموضوع حتى سنة ١٩٣٦ غير كاملة إذ تنقصها الوثائق التى ظلت إلى هذه السنة سراً فى وزارة الخارجية الفرنسية . ويرى رينوڤان أن نشر الوثائق الفرنسية السياسية Documents Diplomatiques Francais قد ألقى ضوءاً جديداً على حملة فاشودة : كيف بدأت والظروف التى مهدت لها .

ولكننّا نستطيع هنا أن نوجه النظر إلى مسألة مهمة لم يشر إليها رينوڤان فى بداية بحثه أو لم يرد الإشارة إليها ، وهى : هل نشر فى مجموعة الوثائق السياسية هذه كل الوثائق السياسية الموجودة فى وزارة الخارجية الفرنسية ؟ إن المؤرخ المطلع على هذه المجموعة ليشعر بما لها من قيمة كبيرة بلاشك ، ولكنه يشعر فى كثير من الأحيان أن هناك وثائق قد استبعدت استبعاداً ، وأخرى قد حذفت أجزاء منها ، وأخرى قد عدلت بعض التعديل . فليس كل ما تبودل من رسائل ومذكرات وتقارير ووثائق سياسية يصح نشره أو عرضه على الجمهور ، حتى على جمهور الباحثين من رجال السياسة أو رجال التاريخ ، فهناك مسائل سياسية قومية ومجاملات شخصية وأمور سرية لا ينبغى أن يطلع عليها إلا خاصة الخاصة ولا ينبغى أن تلمحها عين الأجنبى .

وكذا لا يمكن مطلقاً الاعتماد على مجموعة واحدة من الوثائق السياسية ، فمثلا لا يمكن للباحث التاريخى الاعتماد على الوثائق الفرنسية فحسب فى أى موضوع من مواضيع السياسة الدولية قبل الحرب الأولى العالمية ، بل يجب النظر فى الوثائق التى نشرتها الحكومات الإنجليزية والألمانية والنمساوية ، بل الرجوع — إذا كان ذلك ممكناً — إلى دور الوثائق نفسها فى عواصم الدول الأوروبية الكبرى التى يعتقد الباحث التاريخى أو يظن أن لها اهتماماً بهذه المسألة بالذات .

ثم نحن نعرف بعد ذلك أن كثيراً من الوثائق ذات الأهمية فى موضوع معين قد تتلف عمداً وقد تفقد أو تضيع من دور الوثائق نفسها ومن وزارات الخارجية والمستعمرات ، وهنا يصبح إتمام الحلقات المفقودة من الأمور الشاقة التى ترهق المؤرخ ، وهنا تتدخل عناصر جديدة فى البحث فى تصوير الوقائع وتفسيرها ، عناصر لا شعورية ربما لم يستطع الباحث التخلص منها كعناصر القومية والميول الخاصة .

وعلى ذلك نستطيع إذن أن نقول إن أية دراسة تاريخية علمية حقيقية لمسألة فاشودة — مبدئها ومنتهاها — لا يمكن أن تتحقق إلا إذا فتحت دور الوثائق الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والبلچيكية والمصرية أبوابها للباحثين ووضعت تحت أيديهم كل ما لديها من وثائق ومستندات .

على أن ما ذكرنا لا يمنع من أن نكرر ونقول متفقين مع رينوڤان بأن نشر الوثائق الفرنسية السياسية قد ألقى ضوءاً جديداً وأضاف كثيراً من المعلومات ووضح كثيراً من المعالم التى كانت لا تزال غامضة أو موضع الحدس أو التخمين عن الظروف التى أدت إلى هذه البعثة ، بعثة مارشاند أوحملة مارشاند أوحملة فاشودة ، وانتهت إلى مقابلة فاشودة المشهورة بين كتشنر ومارشاند .

* * *

يرى رينوڤان أنه يجب الرجوع إلى سنة ١٨٩٣ حتى يمكن فهم الظروف التى نشأت عنها حملة فاشودة ، والواقع أنه يجب الرجوع إلى أبعد من ذلك ، إلى النزاع العنيف الذى قام بين الدولتين الكبيرتين إنجلترا وفرنسا من أجل المسألة المصرية وخاصة بعد الاحتلال الإنجليزى لوادى النيل فى سنة ١٨٨٢ ، وإلى الثورة الدرويشية فى السودان التى انتهت بزوال الحكم المصرى من هذا الجزء من وادى النيل ، وإلى فشل فرنسا فى محاولاتها إرغام الإنجليز على الجلاء عن مصر أو تعيين موعد قريب للجلاء .

فوجود الإنجليز فى مصر وحكم الدراويش فى السودان ، كل هذا أثار المطامع الفرنسية والبلچيكية فى السودان وأعالى النيل وأواسط إفريقية ، ثم إن نمو روح الأمبريالزم السياسى والاقتصادى عقب مؤتمر برلين (سنة ١٨٧٨) وجه اهتمام الدول الاستعمارية إلى إفريقية وإلى تقسيمها إلى مناطق نفوذ ، وخاصة الجهات التى لم تخضع بعد لدول متحضرة أو حكم منظم قوى . وقامت اتفاقات ومؤتمرات دولية أوربية لتحديد مناطق النفوذ للدول المختلفة المتنازعة ، وأهمها الاتفاق بين إنجلترا وألمانيا فى سنة ١٨٩٠ ، ذلك الاتفاق الذى ينص على أن تقع المناطق التى تشمل أعالى النيل — من حدود الحبشة إلى أوغندا إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو — فى دائرة النفوذ الإنجليزى .

على أن التفكير الحقيقى من ناحية فرنسا — كما يقول رينوڤان — لإرسال حملة إلى السودان المصرى كان فى سنة ١٨٩٣ ، ويرجع إلى دلكاسه Delcasse

الذى كان فى هذه السنة وكيلا لوزارة المستعمرات الفرنسية ، فهو الذى طلب من مونتيل Monteil قيادة بعثة إلى السودان المصرى ورفع العلم الفرنسى على فاشودة ، فكأن التفكير إذن فى حملة فاشودة يرجع قبل كل شيء إلى رجال الاستعمار ورجال وزارة المستعمرات الفرنسية ، فهم الذى فكروا فى ذلك المشروع — كما يؤكد رينوڤان بناء على دراسته للوثائق الفرنسية — وهم الذين أعدوا له وهم الذين أقنعوا رجال وزارة الخارجية الفرنسية بضرورة قبوله وتنفيذه ، على أننا نجد لرجال وزارة الخارجية الفرنسية أثراً كبيراً فى حث رجال وزارة المستعمرات على الاعتدال وعلى تنفيذه بطريقة تثير أقل ما يمكن من المصاعب الدولية . وبالرغم من كل ذلك فلقد أدى تنفيذ ذلك المشروع فى آخر الأمر إلى أزمة دولية كادت تنقلب إلى كارثة لولا تراجع فرنسا على أعقابها حين تأكدت أن البحرية الإنجليزية عازمة على العمل وأنها لا تقهر .

قام إذن مشروع مونتيل على أساس توسع الفرنسيين من غرب إفريقية وعلى أساس أن تقوم بتعضيد هذه المحاولة محاولة ثانية وفى نفس الوقت من الحبشة . ولكن قامت فى هذه السنة كما يرى رينوڤان صعوبات جعلت تنفيذ المحاولتين أمراً غير مستطاع ، من هذه الصعوبات ضرورة فتح الطريق بين المناطق الفرنسية فى غرب إفريقية والسودان ، وبعض هذه الطرق كان فى يد البلجيكيين .

وينتقل رينوڤان بعد ذلك إلى عهد جبرييل هانوتو فى وزارة الخارجية الفرنسية وما قام بينه وبين الانجليز من مفاوضات بشأن أعالى النيل وما كان له من أثر فى إيقاف تنفيذ مشروع مونتيل . فلقد كانت سياسة هانوتو ترمى إلى توكيد علاقات الصداقة مع إنجلترا . ولكن عدم نجاح المفاوضات بين هانوتو وإنجلترا ، وتصريحات پرشيه Percher ودى برازا Brazza التى أثارت الشكوك فى إنجلترا ثم خطبة سير إدورد جراى المشهورة[1] ، كل ذلك أدى إلى سير وزارة

(١) التى قال فيها : « لقد سئلت عما إذا كانت هناك حملة فرنسية فى طريقها من غرب افريقية ترمى إلى التوغل فى وادى النيل واحتلال بعض النقط على ذلك النهر . . . لا تعلم وزارة الخارجية رسمياً بحملة من هذا النوع . . . وأنا أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إننى لا أعتقد أن مثل هذه الشائعات تستحق التصديق لأن مسير حملة فرنسية سوف لا يكون أمراً غير متوقع فحسب . . . ولكن يجب أن تعرف الحكومة الفرنسية جيداً أن مثل هذا العمل غير الودى ستعتبره انجلترا عملا عدائياً موجها نحوها » .

المستعمرات الفرنسية فى إعداد مشروع ليوتارد Liotord وإلى موافقة هانوتو عليه . تقرر أن تقوم بعثة ليوتارد فى ٢٥ أكتوبر ١٨٩٤ وكان ينتظر أن تصل إلى أعالى النيل فى مدى عام .

ويقول رينوڤان إن بعثة ليوتارد لم تصل إلى غرضها المنشود ، فخطبة سير إدوارد جراى كان لها وقعها الفعال ، وذلك بالرغم من أن الفرنسيين أعلنوا أن مسألة أعالى النيل لم يتم فيها الفصل نهائياً ، وأن لفرنسا الحق فى إرسال بعثات إلى كل المناطق التى لم تخضع بعد لأية دولة أوربية أخرى .

وينتقل رينوڤان بعد ذلك إلى تجدد مشروع ليوتارد فى شكل مشروع لا يختلف عنه هو مشروع مارشاند ، فالمسألة ثارت من جديد فى وزارة المستعمرات الفرنسية ، ومارشاند يرى بعد أن استقرت علاقات فرنسا مع البلجيك بشأن الكنغو أن تتوسع فرنسا وأن تمد نفوذها إلى نهر النيل ، ويرى فى نفس الوقت ضرورة اشتراك وزارة الخارجية فى هذا الأمر لأن ذلك التوسع قد يؤدى إلى حادث تكون له صبغة دولية . ولم يكن غرض مارشاند كما يقول رينوڤان هو احتلال السودان المصرى وضمه إلى فرنسا ولكن :

"Prendre des gages de restitution collective à l'Egypte des territoires ayant formé le Soudan égyptien"

وكذا وضع إنجلترا فى :

"Dans la nécessité d'accepter, sinon de provoquer elle-même, la réunion d'une conférence europèenne,au sein de laquelle serait discuté et fixé le sort réservé au Soudan égyptien, c'est-à-dire à la vallée du nil."

وللوصول إلى ذلك الغرض يكفى إرسال بعثة ليس لها طابع حربى ترفع العلم الفرنسى على فاشودة ، فغرض مارشاند النهائى إذن إرغام إنجلترا على الجلاء عن مصر . ولم يبد هانوتو فى وزارة ريبو Ribot ولا خليفته فى وزارة الخارجية برتلو Berthelot ولا ليون بورچوا Leon Bourgeois ولا هانوتو نفسه فى وزارة Meline اعتراضاً على بعثة مارشاند .

ولا ريب أن لبحث رينوڤان قيمة كبيرة فى كشف اللثام عن كثير من الحقائق والظروف التى أدت إلى حملة فاشودة ، بل ويمكن اعتباره أول بحث

جدى علمى من نوعه معتمد على ما ظهر إلى الآن من وثائق سياسية فرنسية سواء أكانت هذه الوثائق خاصة بوزارة الخارجية الفرنسية أو وزارة المستعمرات .

محمد مصطفى صفوت

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة

في التاريخ الإسلامى

للمستشرق زامباور النمسوى

ترجمة الأستاذ زكى محمد حسن وآخرين

مقاس كبير ٢٠٠ صفحة . مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١

كتب الأستاذ الجليل شفيق غربال عندما قدم « قاموس السلاح فى الإسلام » — وهو الحلقة الأولى من مكتبة أدوات البحث التاريخى والوثائق والنصوص — أن كل من يشتغل بالبحث التاريخى يدرك مقدار حاجته لأدوات قريبة المنال ، سهلة الاستعمال ، تسعفه عند اللزوم . ففهم معنى اصطلاح يعترضه أثناء قراءة نص ، وتحقيق تاريخ واقعة ، وضبط اسم من الأسماء ، وما إليها ، أمور تقتضى تدبير الأدوات والوسائل لخدمة الباحث . وهذا لا شك أمر واضح للغاية .

وكما أن المشتغلين بالدراسات اللغوية يحتاجون أشد الحاجة إلى المعاجم والقواميس والمراجع الرئيسية فى فقه اللغة ، فإن المؤرخين يحتاجون إلى أنواع أخرى من المعاجم وإلى الفهارس والأطالس والقواميس واللوحات يستعينون بها فى البحث والدراسة .

إن مهمة الأخصائيين من رجال التاريخ الأوربى سهلة فى هذا الميدان ، فإن لديهم الكثير من هذه المعاجم . ومن بينها معاجم الأعلام والبلدان والأحداث التاريخية ، فضلا عن المجموعات الكبيرة من صور الأسلحة والأثاث والملابس . أما المشتغلون بالتاريخ الإسلامى فلا يجدون إلى اليوم من المعاجم وأدوات البحث ما يمكن الاطمئنان إليه . ولا بد لهم من الرجوع إلى الكتب المطولة والموسوعات الأجنبية للبحث عن كثير من الحقائق العامة وتواريخ الإسلام والأحداث التى تعرض لهم فى بحوثهم العلمية .

* * *

ومن رجال الاستشراق الذين عملوا بجد فى تيسير مهمة المشتغلين فى التاريخ الإسلامى المستشرق النمسوى « إدوارد فون زامباور » ومعجمه « الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » يعد بحق فى طليعة المراجع التى يهتدى بها المؤرخ للعصور الإسلامية .

كان زامباور من رجال السلك السياسى فى بلاده . وظل وزيراً مفوضاً للنمسا فى البلاط العثمانى من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩١٨ . وكان مولعاً بجمع النميات ودراستها حتى أصبح من أئمة هذا الميدان ، فعهد إليه المشرفون على دائرة المعارف الإسلامية بتحرير المواد المتصلة بالسكة الإسلامية . ثم عنى إلى جانب هذا كله بدراسة « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير دراسة جيدة ، ونقله إلى الفرنسية ، وكان قد فرغ من هذه الترجمة سنة ١٩٤٩ حين وافته المنية .

ويعود الفضل فى ترجمة هذا الكتاب إلى الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . فقد فطنت إلى ما لكتاب زامباور من شأن عظيم فى ميدان الدراسات التاريخية الإسلامية فاختارته بين الكتب التى رأت نقلها إلى اللغة العربية ، وتفضلت فعهدت إلى حضرة الدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) بهذه المهمة ، فوجد فى زملائه وتلاميذه خير معوان له على المضى فى هذا العمل العلمى ، وهم الأساتذة حسن أحمد محمود وحافظ حمدى وأحمد ممدوح حمدى واشترك معهم الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف. وكان لجامعة فؤاد الأول فضل إخراج المعجم فى الطبعة الأنيقة التى يحق لمطبعة جامعة فؤاد الأول أن تفخر بها ولاسيما لما فى المعجم من جداول وحواش وفهارس .

ويشتمل الجزء الأول من معجم زامباور على ستة أبواب :

الباب الأول — عهد الخلافة من بداية الخلفاء الراشدين . فالأمويون فى الشام والأندلس ، فالخلفاء العباسيون فى بغداد وفى مصر ووزراؤهم ، وأمراء هذه الحقبة .

والباب الثانى يشتمل على ولاة الأمصار فى مكة والمدينة ومصر ودمشق وحلب والموصل وما إليها .

والباب الثالث يشتمل على ولاة الأندلس ، وملوك الطوائف والموحدين .

والباب الرابع يشتمل على ولاة إفريقية فى تاهرت والادارسة وولاة صقلية والمرابطين وشرفاء مراكش . . . إلخ .

والباب الخامس — الأسر المالكة فى مصر ، من أول الطولونيين والإخشيديين إلى الأسرة المحمدية العلوية ، والمهديون فى السودان .

والباب السادس — بلاد العرب من أول الحكام الساسانيين فى اليمن ، وقرامطة البحرين ، وأئمة صنعاء ، وبنو سعود ، وسلطنة لحج .

ويجد الباحث المراجع التى رجع إليها المؤلف فى نهاية كل باب لمن أراد إيضاحاً .

ونرجو أن نرى فى القريب الجزء الثانى من هذا المعجم النفيس . كما نأمل أن يعمل القائمون على ترجمته على إضافة بعض اللوحات الجغرافية لتيسير مهمة الباحث ، كما نرجو أن تكون فهارسه الهجائية غنية بحيث يصبح معها المعجم أداة لا غنى عنها للمشتغلين بالدراسات الإسلامية عامة .

عبد الرحمن زكى

عبر البشر

فى أعيان القرن الثالث عشر

تأليف محمد عارف باشا — عضو مجلس الأحكام بمصر
فى عهد محمد على الكبير

حظى القرن التاسع عشر فى مصر بميلاد النهضة الفكرية الحديثة . وهذه النهضة التى تفتحت أزهارها الأولى على ضفاف الوادى قامت بفضل آلة الطباعة التى لعبت دوراً رئيسياً فى هذا المضمار . فقد استعان بها محمد على — إلى أقصى مدى — لغرس بذور العلم والمعارف فى الحقل المصرى الخام ، فيسّرت له مارام من نشر الثقافة فى طول البلاد وعرضها . وحديث المؤرخين عن المعاهد والمدارس التى افتتحت فى عهده حديث معروف !

ففى أيام هذا العاهل أنشئت عدة مطابع ، منها المطبعة الأميرية (١٨٢٠) ومطبعة أبو زعبل ، ومطبعة الجهادية ، ومطبعة رأس التين وغيرها لطبع الكتب الدراسية ، إلا أنها ما لبثت أن نهضت — مع مرور الزمن — بطبع أمهات كتب الدين والتاريخ والجغرافيا باللغتين العربية والتركية ، مثال ذلك :

تاريخ بونابرته ، تاريخ إيطاليا ، تاريخ روسيا ، رحلة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، ألف ليلة وليلة ، شرح الألفية لابن عقيل ، عدة قواميس ومعاجم ، وكثير من مؤلفات الطب والهندسة والفنون العسكرية . . . إلخ .

وقد ازدهرت النهضة الفكرية فى جو مصرى بحت على عهد الخديو إسماعيل فاهتم بالتعليم فى كل مرافقه ، وأنشئت المدارس العالية ، وأصلح الأزهر ، وأرسلت البعثات إلى الخارج ، وكوفحت الأمية . وإلى جانب هذا شجع الخديو التنقيب عن الآثار والعناية بحفظها ، وأمر بتنظيم دار الكتب ، وأنشأ الجمعية الجغرافية . وأهم من كل ذلك أمر بتعميم استعمال اللغة العربية بعد أن كانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى البلاد !

وفى عهده أنشئت جمعية المعارف (١٨٦٨) وبدأت تنهض بنشر التراث الإسلامى بين المشتغلين بالبحث والمتطلعين إلى الثقافة ، فنشرت عدة مؤلفات بفضل آلة الطباعة . وسنذكر بعضها فى مكانها المناسب من هذا المقال .

وكان محمد عارف باشا هو المحرك النشيط لتلك الحركة الثقافية المباركة ، إلى جانب اضطلاعه بكتابة موسوعته الخاصة بأعلام مصر فى عهد الأسرة المحمدية العلوية خلال القرن التاسع عشر .

نطالع ترجمة حياة محمد عارف فى المجلد الثالث (ص ٢٧٤) من السجل العثمانى كما يلى : محمد عارف الدرامه لى : ذهب إلى مصر سنة ١٢٤١ هـ ، (١٨٢٥ — ٢٦) ، وحاز رتبة أمير اللواء أول مراتب الباشوية ، وولى مديرية البحيرة ، وتنقل فى وظائف عدة ، وعين عضواً فى مجلس الأحكام (الشورى) بمصر ، وسكرتيراً فى المجلس المذكور إلى سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ — ٥٤) وكان شاعراً . ولم يزد صاحب السجل على ذلك مكتفياً بأن قال : ثم مات !

ونقول : إن «عارف باشا» هذا من أسرة كبيرة فى درامه لى فيها باشوات كثيرون ، وكان لمحمد على الكبير صلة قوية بتلك الأسرة حتى إنه شفع لدى السلطان فى حق المنفيين من أفرادها إلى جهة « طونة » ، فصدر الأمر السلطانى بالعفو عنهم وإعادتهم إلى وطنهم . ومن هذه الأسرة محمود ثابت وعلاء الدين وراشد الذين نجد تراجمهم جميعاً فى السجل العثمانى .

على أن الناحية الهامة فى شخصية عارف باشا أنه كان فى طليعة الناهضين بالحركة الفكرية على أيام خلفاء محمد على ، فقد اضطلع بأعباء جميعة المعارف التى أسست فى عهد الخديو إسماعيل تحت رعاية ولى عهده محمد توفيق وكان ذلك فى عام ١٨٦٩ . والجدير بالذكر أنها كانت شركة مساهمة ذات ثلاثين ألف سهم تهدف إلى طبع ونشر الكتب العربية النافعة .

قامت هذه الجمعية بطبع كتب كثيرة فى فترة وجيزة سنأتى على ذكرها فيما بعد ، وقد ظلت تؤدى رسالتها إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل والأمير عبد الحليم لتنافسهما على عرش الخديوية . وكان عارف باشا من أنصار عبد الحليم ، فهاجر إلى الأستانة وانحلت الجمعية . وكان ذلك فى حوالى عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) وهاجر ابنه فى العام التالى إلى استانبول .

ويذكر عارف باشا على هامش نسخة له من كتاب « خلاصة الأثر من أعيان

القرن الحادى عشر» بخط يده أنه تقابل مع الخديو إسماعيل فى قصر أمير جان بتركيا فى عام ١٨٧٢ وأظهر له مودته وحسن رعايته واعترف له بالضرر الذى لحق به وبابنه فيما يمتلكانه بمصر . وكان من نتيجة هذه المقابلة أن سمح لابنه بالعودة إلى مصر . أما عارف باشا فالمعروف عنه أنه لم يعد إلى مصر أبداً . وكذلك كتب على هامش كتاب المحبى الذى عنى بمطالعته أنه تولى فى فترة من الزمن منصب ولاية كنفرى إلى أن تخلى عنه فى عام ١٨٧٥ .

وبعد ذلك التاريخ لا يعلم شىء عن بقية حياة عارف باشا ولم يصف صاحب السجل العثمانى كذلك شيئاً .

وفى هذا المجال ينبغى ألا ننسى أن هذا العلامة كان يحسن اللغة العربية ويروون من نظمه فيها بيتين يفتخر بهما ، قال :

ألم تعلم بأن سماء فكرى تلوح بأفقها شمس المعارف
تفرّس والدى فىّ المزايا فيوم ولدت لقبنى بعارف

وكان عارف باشا زوج آمنة هانم بنت خليل القواله لى وهو ابن بلتيس هانم وهى أخت الحاج مصطفى أغا زوج أمينة هانم أخت محمد على الكبير .

وإلى جانب موسوعة « عبر البشر » أسس عارف جميعة المعارف وهى فاتحة جمعيات النشر فى مصر ، لتنهض بنشر الثقافة بوساطة التأليف والطباعة والنشر ، وتمّ تأسيسها فى عام ١٨٦٨ – ٦٩ ، وكان هدفها طبع الكتب التاريخية والعلمية بعد تهذيبها وتلخيص بعضها ، وتولى محمد عارف أعمال وكيلها ، وإن كان فى الواقع رئيسها الفعلى[١] .

تألفت الجمعية برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام قيمة السهم ثلاثون قرشاً ، واقتنت مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها ، عدا ما كانت تطبعه فى دار الطباعة الأميرية ببولاق والمطبعة الوهبية .

وقد لقيت الجمعية إقبالا عظيما وتعضيداً كبيراً من الطبقات المتنورة فى المجتمع ، إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ / ٧٠ م) ٦٦٠ عضواً وردت أسماؤهم فى ذيل كتاب « الفتح الذهبى » نذكر من بينهم :

إبراهيم بك حليم ، إبراهيم بك أدهم ، السيد إبراهيم جميعى ، السيد إبراهيم بك المويلحى ، إتربى بك أبو العز ، أحمد طلعت باشا ، أحمد رشيد باشا ،

---

(١) نشرت لائحة الجمعية فى الوقائع المصرية – عدد ٣٠١ بتايخ ٧ يونيو سنة ١٨٦٩

أحمد خيرى بك ، أحمد عبيد بك ، الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى ، الشيخ أحمد البتنونى ، الشيخ أحمد فارس الشدياق ، الفريق جعفر مظهرباشا ، الفريق جعفر صادق باشا ، الشيخ حسونة النواوى ، حسين فخرى باشا ، حسين شيرين باشا ، الفريق راشد حسنى باشا ، خليل باشا يكن ، الشيخ عبد الرحمن الإبيارى ، الشيخ بدراوى عاشور ، مصطفى رياض باشا ، أميرالألاى حماد بك عبدالعاطى ، محمد مظهر باشا وغيرهم من نبهاء البلاد(١) .

وقد تيسر للجمعية فى فترة قصيرة أن تنشر عشرات المؤلفات النادرة ومعظمها لم يكن قد طبع من قبل . وقد ورد ذكر تلك المطبوعات فى كتاب تاريخ ابن الوردى (الجزء ٢ ص ٣٦٥ و ٦٦) .

وفيما يلى أهم تلك الآثار :

حاشية العناية على تفسير البيضاوى .

المزهر فى اللغة للسيوطى .

المثل السائر لابن الأثير .

الصحاح فى اللغة للجوهرى مع الوشاح .

كشف الظنون .

شفاء الغليل للشهاب الخفاجى .

سفينة المولوية لثاقب دره .

شرح رسالة ابن زيدون .

تزيين الأسواق فى مصارع العشاق .

شرح العزيزى على الجامع الصغير .

متن البخارى بالهوامش .

السيرة الحلبية .

شرح القسطلانى على البخارى .

نزهة المجالس .

سعود المطالع للشيخ عبد الهادى .

العقد الفريد للملك السعيد .

إحياء العلوم للغزالى .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى – عصر إسماعيل ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

تذكرة داود .
الأنس الجليل فى القدس والخليل .
الحواشى المدنية فى فقه الشافعى .
المختصر فى أخبار البشر .
محاضرات الراغب الاصفهانى .
رسائل بديع الزمان الهمذانى .
شرح التحفة لابن حجر الهيثمى على المنهاج .
حاشية البرزنجى للشيخ عليش .
شرح منظومة قواعد الاعراب .
شرح منظومة فى الصرف .
تعليم المتعلم .
تاريخ مصر للشيخ الشرقاوى .
القصائد الارتقيات للصفى الحلبى .
مراقى الفلاح .
المنطق المفهوم .
حاشية البردة للشيخ الباجورى .
بداية الهداية للغزالى .
الفوائد والصلات .
تعريفات السيد الشريف الجرجانى .
تاريخ الخميس .
شرح الجلالى المحلى على المنهاج .
مجموعة فى المزدوجات .
طراز المجالس للشهاب الخفاجى .
خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .
السيرة النبوية للعلامة الشيخ أحمد دحلان مفتى الشافعية بمكة .
المطالع النصرية للعلامة الشيخ نصر .
بدايع البداية .
حاشية رسالة الصبان البيانية للعلامة الشيخ مخلوف قاضى المدينة .

ديوان ابن المعتز .
عنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبى الحسن .
تاج العروس من شرح جواهر القاموس للسيد مرتضى الزبيدى .
أسد الغابة فى معرفة الصحابة للعلامة ابن الأثير .
تاريخ اليمنى مسجع فى غاية من البلاغة وله جملة شروح .
كتاب ألف باء .
تاريخ ابن الوردى .
تاريخ الفتح الوهبى فى شرح العتبى .
شرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبى العلاء المعرى) .
شرح ديوان ابن خفاجة .
البيان والتبيين للجاحظ .
شرح الشيخ خالد على البردة .

تحدثنا عما وصل إليه بحثنا عن «محمد عارف باشا» وعن «جميعة نشر المعارف» والآن نبدأ الكلام عن كتاب « عبر البشر » فنقول :

يتسنى تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب فيما بين عامى ١٨٧٣ و ١٨٧٥ . نستدل على ذلك من الحديث الذى سجله المؤلف فى صفحة ٣٧ من كتابه ، وقد دار بينه وبين رياض باشا فى أميرجان عام ١٨٧٣ حديث بشأن عالم اسمه الشيخ إبراهيم السقا ، وتقابلنا فى هامش صفحة ٧ من الكتاب (النسخة التى وجدت عند الأستاذ جودت بيسين من أساتذة جامعة استانبول) عبارة خاصة بحياة محمد عارف جاء فيها تاريخ ٤ رمضان ١٢٩٢ (٣ أكتوبر ١٨٧٥) وهذا التاريخ لا شك أنه بعد تأليف الكتاب .

وعلى ذلك يكون تأليف « عبر البشر » فيما بين عامى ١٨٧٣ و ١٨٧٥ ، ومن المحتمل جداً أن تكون سنة ١٨٧٤ هى السنة التى ألف فيها الكتاب .

ومن الصعوبة بمكان الاهتداء إلى عدد الأجزاء التى نشرت من الكتاب — أو بعبارة أصح من دائرة المعارف — أكانت جزئين أم أكثر . وقد قيل إنه فى إحدى المكتبات الخاصة بتركيا جزءان من الكتاب ولكن لم يثبت ذلك ، وإذا كان قد نشر جزء آخر من الكتاب فمن المحتمل جداً أن لا يكون الكتاب قد تمّ فى جميع أجزائه ، وقد وقفنا على هذا مما كتبه المؤلف بخط يده فى صفحة

٦٣ فى نسخة كتابه ، وهذا هو نص ما دوّنه :

« لقد تركت فى مكتبتنا بمصر الكثير من مخطوطات الأعمال التى كنت قد بدأت العمل فيها . وفى شهر جمادى الآخر عام ١٢٩٠ هـ (أغسطس ١٨٧٣) ، لما قابلنا الخديو فى أميرجان وعرفناه بهذا أمر إبراهيم بك أن يسوى هذا الموضوع . وبفضل الله نأمل أن نكمل كتابة هذه المخطوطات وأن تعنى الجمعية باستئناف نشاطها » .

فإذا كان هذا الأمل بدأ يتحقق ، كما رغب عارف باشا إلى عام ١٨٧٥ ، فقد كان من المؤكد أن يثبت المؤلف على هامش كتابه كما فعل عند ما دوّن هوامش كثيرة كالتى ذكرناها .

ومع هذا ننتقل إلى محتويات الجزء الأول من الكتاب لنتناوله بالتحليل وعلى الأخص ما يتعلق بحياة محمد على باشا ، فتقابلنا حقائق ضافية عن نشأته وحياته لم يسبق أن وصلت إلينا من مصادر أخرى ، ذلك لأن المؤلف كان على علم بأسرة هذا العاهل وأصلها وأفرادها القدامى .

بل يطيب لنا أن نعترف بلا مغالاة بأن هذا المؤلف عبارة عن موسوعة لمصر فى أوائل القرن التاسع عشر . استهله بمقدمة موجزة عن تاريخ مصر إلى اعتلاء الأسرة المحمدية العلوية منصة الحكم . ثم يتبع الكتاب الترتيب الأبجدى مبتدئاً باسم أمينة هانم إحدى زوجات محمد على وأمينة هانم شقيقته التى تزوجت من الحاج مصطفى أغا . ونعلم أيضاً أنه كان للحاج المذكور شقيقة اسمها باتيشة هانم كانت والدة خليل أفندى الوالى تزوجت ابنته أمينة هانم من محمد عارف مؤلف الموسوعة .

ومن هنا نقف على صلة القرابة والنسب بين محمد على وعارف باشا — تلك الصلة الوثيقة التى لا يكف عن ترديدها رغبة فى توكيدها !

ولا يتحرج الكاتب من اقتفاء أثر الأصول والفروع وتبيان الروابط والصلات بخبرة ومعرفة ملحوظتين . . وإذا شئتم الدليل فعودوا معنا إلى صفحة ٣٠ لنقرأ ما يلى :

إبراهيم (والد) محمد على وكان اسم جده الأكبر عثمان « إبراهيم » ومعنى هذا وجود « إبراهيمين » .

وعن أصل محمد على يقول إن والد والد جده جاء من قونية إلى قولة وأكد

ذلك إبراهيم باشا فى حديث له دار بينه وبين محمد عارف فى كفر البطيخ .

وعن أمينة هانم زوجة محمد على يذكر المؤلف أنها من قرية نصرتلى من إقليم دراما ، عقد عليها وهى فى السادسة عشرة من عمرها من على بك مدرسها ، ولماقتل هذا فى إحدى المعارك رأى رشيد بك شقيق خليل أحمد أغا ناظر دراما أن تتزوج من محمد على ، فتم الزواج وكانت ثمرته الأولى بكريته توحيدة هانم .

وعلى هذا الغرار تقابلنا فى هذه الموسوعة التفاصيل الدقيقة عن أفراد أسرة محمد على .

قلنا إن المؤلف اتبع الترتيب الأبجدى فى كتابه ، وسنذكر بعض الأشخاص الذين تأتى ذكرهم فى الجزء الأول .

آغو أغا (جد خليل شريف باشا وزير خارجية تركيا) — آمنة هانم (ثلاثة بهذا الاسم) — إبراهيم أغا (كثيرون) — إبراهيم السقا أحد مشايخ الأزهر العلماء — إبراهيم أدهم — إبراهيم الألفى — إبراهيم جاويش — إبراهيم بك — إبراهيم توفيق باشا — أحمد غريب باشا — أحمد عصمت باشا — أحمد بك — الدرمللى أحمد باشا — جركس أحمد بك — أحمدطوسون باشا — كرد أحمد أغا — أحمد باشا جوقدار وإسماعيل . . . إلخ .

وتقابلنا فى خلال الكلام عن مشاهير الرجال أسماء أخرى لمظلوم باشا وطوبوزوغلو ، ونوبار باشا ، وسليم باشا ، وكلوت بك وما إليها .

وفى سنة ١٩٣٤ وصل إلى مسامع المغفور له الأمير الجليل عمر طوسون أمر كتاب « عبر البشر » ، فكتب سموه إلى أسعد بك فؤاد طوجاى فى بيبك باستانبول ليبحث له عنه .

ولم يمض طويل حتى وجد أسعد بك جزءين من الكتاب تنقصهما بضع صفحات . بل قد لوحظ أن الجزء الأول ، الذى عثر عليه لدى الأستاذ جودت بيسين أحد أساتذة جامعة استانبول ، تقف صفحاته عند صفحة ٢٠٨ . فأين ذهبت بقية صفحات الكتاب المطبوع ؟ .

من المحتمل أن المؤلف ، بعد طبعه الكتاب ، رأى أن هذا الجزء احتوت صفحاته الأخيرة على ما لا يصح نشره ولا سيما إذا ذهبت نسخه إلى مصر واطلع الخديو إسماعيل عليها ، فعمل على نزعها ، ولم يوزع نسخه على المكتبات للبيع

بل احتفظ بها لنفسه ، كما أهدى قلة منها لبعض معارفه الاخصاء .

ولذلك ندر جداً وجود الكتاب فى المكتبات التركية العامة أو الخاصة أو لدى العلماء المعمرين كما ذكر ذلك أسعد بك طوجاى فى خطابه للأمير عمر طوسون .

ونسخة الجزء الأول التى احتفظ بها الأستاذ جودت تحمل ملاحظات شتى للمؤلف مكتوبة بخط يده فى هوامش النسخة .

وقد عثر أسعد بك على نسخة أخرى من الكتاب وفى جزئين ناقصين كذلك فى مكتبة تملكها أسرة من سلالة مولانا جلال الدين الرونى مؤسس الطريقة المولوية المعروفة . مثل هذه النسخة هى التى نسخها أسعد بك وأرسلها إلى الأمير الراحل .

والمعروف عن عارف باشا أنه طبع كتاباً عن الطريقة الصوفية اسمه « سفينة مولويان » .

وقد علم أسعد بك من محمود كمال بك بن المرحوم أمين باشا الذى كان مهرداراً ليوسف كامل باشا (وقد كان هذا زوج زينب هانم بنت محمد على الكبير) أنه يملك نسخة من المؤلف المذكور .

هذا وتقف صفحات الجزء الثانى من كتاب العبر عند صفحة ١٦٠ .

أما أسلوب عارف باشا فواضح للغاية فى الكتاب وإن كان يحتوى على عدة من أخطاء مطبعية لا شأن له بها . . .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أسعد بك اقترح على الأمير الراحل فى الخطاب الذى وجهه إليه فكرة ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية لفائدة المؤرخين ومحبى المطالعة وذكر اسم شيخ الإسلام مصطفى صبرى افندى ليقوم بتعريبه إذا شاء الأمير . إلا أن الأمير بدأ بترجمته إلى الفرنسية أولا ولم يطل الله عمره لينهض بالترجمة العربية .

ولما علم الملك السابق بوجود هذا الكتاب عند الأمير طوسون أمر بترجمته إلى اللغة العربية ، فترجمه ترجمة سريعة الأستاذ محمود نافعى بمحفوظات قصر عابدين ، وأهدى إحدى نسخها المترجمة إلى نجلى الأمير عمر طوسون . كما أمر بإهداء نسخة أخرى إلى دار الكتب المصرية .

والكتاب فى جزئيه يحملان رقمى ٩٣٩١ و ٩٣٩٢ (خاص) و ١٥٣ — ١٩٤٥ فى دار الكتب وهما مكتوبان على الآلة الكاتبة .

عبد الرحمن زكى

فى أيام الإنكشارية

اسكندر باليس — هتشنسون ، لندن عام ١٩٥١

In the Days of the Janissaries ALEXANDER PALLIS — Hutchinson's.

يصف هذا الكتاب الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السابع عشر ، فى الوقت الذى كانت فيه فرقة الانكشارية تضطلع بأهم أدوار مقومات السلطنة .

اعتمد المؤلف فى مادة كتابه على ذلك السفر المعروف « سياحة نامه » للرحالة التركى أوليا شلبى (١٦١١ — ١٦٨٠) — وهو الكتاب التركى الضخم الذى يعاد نشره باللغة التركية طبعة علمية ممتازة .

ويتعين علينا ، قبيل التحدث عن « فى أيام الانكشارية » الذى نحن بصدده ، أن نلم بالمرجع الرئيسى « سياحة نامة » لأنه بمثابة الأصل للفرع ؛ ولعل أول شىء يجدر ذكره أنه يقع فى عشرة أجزاء كما يلى :

الجزء الأول — وصف استانبول وضواحيها فى عام ١٦٣١ .

الجزء الثانى — الرحلة إلى بروسة وازميت (١٦٤٠) وأقاليم البحر الأسود من الأناضول والقوقاز والقرم (١٦٤٠ — ٤٤) وفتح كريت (١٦٤٥) — ثم وصف رحلة أوليا إلى أرضروم والقوقاز ثانية (١٦٤٦ — ٤٨) .

والحديث عن هذين الجزئين يقتضينا أن ننوه بأن المستشرق النمسوى جوزيف فون هامر بورجستال ، الخبير فى تاريخ آل عثمان ، قد نقلهما إلى الانجليزية فى عام ١٨٣٤ .

الجزء الثالث — رحلة الشام وكوردستان وأرمينية (١٦٥٠) ورميللى (تراقية ومقدونية وما إليها) وبلغاريا ودوبروجه وما إليها (١٦٥٣ — ٥٥) .

الجزء الرابع — الرحلة إلى فارس والعراق (١٦٥٥ — ٥٦) .

الجزء الخامس — الرحلة إلى مولدافيا وتجريدة بولندة وروسيا (١٦٥٧ — ٥٨) وتجريدة الأناضول والرحلة إلى الدردنيل وأدرنة (١٦٥٩) وتجريدة مولدافيا ودالماشيا (١٦٦٠) .

الجزء السادس — تجريدة ترانسلفانيا والرحلة إلى ألبانيا (١٦٦١ — ٦٢) وتجريدة المجر والجبل الأسود والكروات (١٦٦٣ — ٦٤) .

الجزء السابع — رحلات النمسا والقرم والقوقاز — وكيبشاك واستراخان (١٦٦٤ — ٦٨) .

الجزء الثامن — تجريدة كريت وماينا فى المورة (١٦٦٩) ورحلات مقدونية وروميالى (١٦٦٩) .

الجزء التاسع — الحج إلى مكة والمدينة .

الجزء العاشر — رحلة مصر والسودان .

ومما يذكر أنه قد نشرت مقتبسات اقتطفت من الأجزاء (الثالث — الرابع — الخامس — السادس) دون أن ينشر مما تبقى شيء بعد .

نعود إلى كتابنا موضع التعليق لنقول إن الشيء الذى أقدم عليه مستر باليس — اليوم — هو هضمه لمحتويات أجزاء المرجع المستفيض واختياره لأهم ما يرغب القارئ الغربى معرفته من عادات وطقوس وتقاليد وبعبارة مختصرة : وصف المجتمع العثمانى فى القرن السابع عشر .

وقد قسّم مستر باليس ، وهو يونانى النشأة إنجليزى الجنسية يعرف التركية ، مؤلفه إلى قسمين ، تناول فى القسم الأول الكلام عن فرقة الانكشارية ومنشأها وتاريخها ، منذ عام ١٣٢٦ إلى أن أبادها السلطان محمود الثانى فى عام ١٨٢٦ . وغنى عن التعريف أن كلمة انكشارية معناها « الجنود الجدد » (ينى شيرى) ، وهو تحريف للاصطلاح الفارسى (جان نصار)، أى الذين يضحون بحياتهم .

ويقوم الجزء الثانى من القسم الآنف على الحديث عن المؤلف أوليا شلبى وعصره .

أما القسم الثانى من الكتاب فينطوى على تسعة فصول موزعة على الموضوعات الآتية :

استانبول وأحياؤها وضواحيها — السراى — طوائف الحرف (مقالان) — الشيوخ والدراويش — الموسيقى والشعر والفنون — الألعاب الرياضية — الألعاب المسلية الصغيرة — أصناف المآكل والمطاعم فى استانبول .

ومن ذلك العرض الموجز أو الملخص نرى أن مستر باليس قد اقتبس

بحق أهم ما يرغب الوقوف عليه من وصف المجتمع العثمانى وأحواله ، فجاء عمله كلوحة بديعة من الفسيفساء ، وإن كانت غير منتظمة فى اللون والتركيب ، ثم أضاف إلى الكتاب عدة لوحات لطيفة توضح حياة البلاد والمجتمع أخذها عن أهم رسوم الكتب التركية .

وعلى هذا يصح أن نعتبر الكتاب « مختارات من سياحة نامه » وليس ملخصا وافياً له فى كافة أجزائه .

* * *

استوعب المؤلف وصف استانبول وأحيائها كما كانت عليه فى زمان أوليا وضواحيها (يدى كولى وأيوب وكياجتشانيه وخاصكوى والترسانة وقاسم باشا وما إليها) وذكر أهم مبانيها ومساجدها ووصف عمارتها فى أسلوب سهل أخاذ .

وأتى على ذكر الطوائف الدينية وطقوسها وملابس رجالها وأعيادها فى عصره — ورجال الدين إذ ذاك يتمتعون بالسلطة الأولى وبالنفوذ الكامل فى البلاط والمجتمع — ثم وصف تكايا الدراويش وخانقاتهم وطرق معيشتهم .

ومن أطرف أقسام الكتاب كلامه عن الشعر والموسيقى والفنون ، وجاءت مقتبساته عن أوليا فى محلها ، وأبان لنا تلك المكانة التى كان يتمتع بها أعلام الموسيقى والفنون والشعر ، ورجال العمارة الذين خلفوا تراثا تشهد به المدن العثمانية فى أوربا وآسيا .

والحق أن مستر باليس تهيأ له كل النجاح فى فصوله الأخيرة من كتابه : فقد نقل إلى قراء اللغة الانجليزية العاديين أهم ما كانوا يجهلونه إلى وقت قريب جداً عن الثقافة العثمانية الإسلامية ، فالكتاب يستطيع أن يقرأه القارئ العادى لطرافته وسهولة أسلوبه ، ولا نقول سطحيته ، ذلك لأن المؤلف الأصلى كان عثمانياً قحاً تناول ما سطره قلمه عن علم واف ومعرفة عميقة .

ولعل أشهر ما تضمنه الكتاب فصله الختامى ، وهو مآكل استانبول ومطاعمها وما احتوت عليه من مصنفات الحلوى والشراب ، وذكر ما اختص به كل حى من أحياء العاصمة من الأطباق الخاصة به .

وإلى جانب تلك المعلومات المستفيضة بالكتاب ، فقد نقل إلينا مستر باليس الشىء الكثير من حياة أوليا شلبى (ص ١٠٨ — ١١٦) التى كنا نجهلها وصلته بالسلطان مراد الرابع الذى قربه منه وخلع عليه النعم والهدايا ورعاه بتشجيعه .

ولا يفوت القارئ أن اسم أوليا جلبي (الولى الفاضل) الحقيقى محمد ظلى أفندى وقد ولد فى سنة ١٠٢٠ وتوفى فى عام ١٠٩٠ . حدثنا الأستاذ وصفى ذكريا[1] عنه ، قال :

إنه لم يوفق فى صباه فى تلقى العلوم وأن جمال صوته ساقه للولع بفنون الأدب والموسيقى إلى أن كان ذات يوم فى رمضان عام ١٠٤٥ يتلو القرآن فى جامع أياصوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه إلى قصره وجعله من ندمائه . إلا أن تلك الأبهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبى فى القصر كانتا محوطتين بضروب التقييد، فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا مع خفته وظرفه وحبه الحرية والانطلاق وشغفه بالسفر ، فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول فى الأمصار ، تارة منفرداً وتارة مع كبار الوزراء والقادة ولا سيما مع خاله ملك أحمد أحد صدور ذاك العهد العظام ، ورافق الجيوش التى ساقتها الدولة العثمانية إذ ذاك فى الشرق والروم ايلى ووصل إلى كريت ، وجال أيضاً فى أجزاء بعض إيران والقفقاس وجنوبى روسية وهنجاريا والنمسا وألمانيا وهولندة .

وندهش كيف أن المحبى صاحب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » ، وقد ترجم لكثير من فضلاء الترك وأعيانهم فى ذلك العهد ، لم يذكر اسم أوليا جلبى على الرغم من أن هذا جاء الشام وساح فيها ومكث فى دمشق مدة ، ولم يترجم أيضاً لمرتضى باشا الذى جاء الجلبى فى حاشيته وظل واليا فى دمشق نحو سنة .

وأخيراً نأمل — بعد هذا كله — أن تنهض إحدى الهيئات فى مصر بنقل القسم الخاص برحلة أوليا فى مصر والسودان إلى العربية لنقف على أحوال بلادنا فى القرن السابع عشر بقلم رحالة تركى . وقيمة هذا النقل أو النشر على جانب كبير من الأهمية ، إذا تبينا قلة من كتبوا عن مصر والسودان فى خلال تلك الفترة من الكتاب المسلمين الأتراك .

عبد الرحمن زكى

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٢ — ج ٣ و ٤ ص ٢١٦ وقد نشر فى عدة مقالات مقتبسات عن رحلة أوليا شلبى فى البلدان العربية .

بيكر والنيل

تأليف دوروثى ميدلتون — فالكون ، لندن ١٩٤٩

٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط

DOROTHY MIDDLETON. *Baker of the Nile.* The Falkon Press, 1949

هذا الكتاب هو ترجمة حياة حديثة كتبتها دوروثى ميدلتون عن سير صمويل هوايت بيكر (١٨٢١ — ١٨٩٣) المستكشف الإنجليزى . والمعروف أنه ولد فى ٨ يونيو عام ١٨٢١ ، وقضى زهرة شبابه فى جزيرة سيلان (١٨٤٥ — ١٨٥٥) بعد أن نال قسطاً موفوراً من التعليم[1] وبدأ فى عام ١٨٦١ رحلته الكشفية من القاهرة للبحث عن ينابيع النيل . وفى فبراير ١٨٦٣ تشاء الظروف أن يتقابل مع سبيك وجرانت عقب كشفهما بحيرة فكتوريا نيانزا وذلك فى جندوكرو ، وأبلغاه وجود بحيرة كبيرة أخرى ، فأتيح لبيكر مشاهدتها فى ١٤ مارس ١٨٦٤ وأطلق عليها ألبرت نيانزا ، وبعودته إلى لندن احتفت به الجمعية الجغرافية الملكية ومنحته ميداليتها الذهبية كما منحته حكومته لقب فارس .

وفى عام ١٨٦٩ كان قد اتصل بحكومة مصر عند ما طلب إليه الخديو إسماعيل الكفاح ضد تجارة الرقيق فى أقاليم أعالى النيل بعد فتحها وضمها إلى مصر ، ومنحه الخديو الباشوية وهيأ له حملة نيلية قوامها الجنود المصرية والسودانية ، وقد كتب له الفوز فى مهمته وعينته مصر حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء المصرية . وظل فى منصبه ينشر الأمن ويرفع علم مصر فى جهات هذا الإقليم الفسيح ، حتى خلفه جوردون عام ١٨٧٤ وتسلم مقاليد الإدارة منه .

وعاد بيكر إلى « ساند فورد أورلى » بمقاطعة ديفونشير وتوفى فى ٣٠ ديسمبر عام ١٨٩٣ .

والمعروف أن بيكر ألف عدة كتب من أهمها :

---

(١) أتم بيكر علومه فى فرانكفورت .

بحيرة ألبرت نيانزا (١٨٦٦) — فروع النيل الحبشية (١٨٦٧) — الاسماعيلية (١٨٧٤) — الوحوش الكاسرة وعاداتها (١٨٩٠) — وكتب أول مؤلف عن أعماله إنجليزيان هما مورى وسيلفا هوايت (١٨٩٥) .

وهكذا نرى أن بيكر قد خلد اسمه بين كبار الرواد العالميين والذين اتصلت أعمالهم بالقارة الإفريقية .

* * *

والكتاب الذى نحن بصدده اليوم ترجمة صادقة لحياة إنجليزى يمثل الطابع الفكتورى الذى شيد رجاله مجد بريطانيا على دعائم المعرفة والاتصال بالشعوب الأسيوية والإفريقية ، ولذلك يعتبره الإنجليز أحد بناة إمبراطوريتهم . اتصل بالشرق الأوسط وعرفه ثم أدرك أهمية بلدانه وشعوبه عن دراسة عميقة ، ولذلك فهو يسبق جوردون ولورد كرومر وكولونل لورنس ومن على شاكلتهم ممن اشتغلوا بالسياسة البريطانية ، وكمستكشف جغرافى يقف مع ليفنجستون وستانلى وسبيك وبورتون وبلجراف وغيرهم .

وبيكر فى نظر المؤلفة دوروثى ميدلتون من أبطال الانجليز ، تقول فى مقدمة كتابها إنها لم تجهد فى تأليفه لأنها أفادت مما كتبه بيكر فى أسفاره العديدة . فكتابها ، فى الواقع ، ملخص سهل ممتع لتلك المجلدات الضخمة التى دونها سير صمويل بيكر فى أخريات القرن التاسع عشر ، وقد أصبحت اليوم مما لا يسمح باعارته فى دور الكتب لقدمها وندرتها . فهذا الكتاب فى نظرنا خلاصة طيبة لزهور مختارة من غابة فسيحة ، لا يقدم على اجتيازها إلا القلائل .

* * *

قسمت المؤلفة كتابها إلى أربعة أبواب (سمتها كتباً) الباب الأول بيكر الصياد . تناولت فيه حياة الشاب سام (صمويل بيكر) ، ونشأته فى مزرعة أبيه ثم سفره إلى جزيرة سيلان ، ووصفت لنا ما أفاده من التجارب والمغامرات فى الصيد والقنص والتعود على الحياة القاسية . وهذا الفصل ينطوى على حياته فيما بين عامى ١٨٢١ و ١٨٦١ وتربيته الأولى وانتقاله لألمانيا لإتمام علومه حيث هوى الصيد واستخدام السلاح النارى — إلى درجة الإجادة ، وبعودته إلى بلده سرعان ما وقع وأخوه فى حب فتاتين شقيقتين فعقدا الزواج عليهما . وكانت هنريت مارتن من نصيب سام ، وتتألف أسرتان ثم تسافران إلى جزيرة موريتيوس

حيث كانت مزرعة أبيه .

وفى سيلان قضى ثمانية أعوام يجوب فى أطراف الجزيرة يصطاد الفيلة مع أصدقائه ثم أخرج لمواطنيه كتابين : « جولة ثمانية أعوام فى سيلان » و« البندقية وكلب الصيد فى سيلان » .

وفى خلال إحدى مغامراته وصله نبأ مرض ابنه فعزم على السفر إلى وطنه وفى أثناء الرحلة توشك السفينة على الغرق ويصاب بحمى شديدة . وما شفى حتى يوصى أطباؤه على أن يعود لتمضية فترة النقاهة بين تلال سيلان .

وكان لا بد من أن ينتهى الصيد والقنص والمغامرات العنيفة فيرغم على العودة ثانية إلى إنجلترة حيث أصيبت الزوجة بالتيفوس وتوفيت على الأثر . وكانت صدمة عنيفة تحملها الزوج رأى بعدها أن يرحل إلى الشرق . ويعرض عليه منصب لإدارة شركة سكة حديدية فى البلقان فيقبل العرض ويرحل إلى الدانوب ويعمل بهمة لا تعرف الملل .

ولم يستطع صمويل العيش وحيداً بدون زوجة بالرغم عن أنه كان يرى أنه ما من امرأة أخرى ستشغل مكانة حبيبته هنريت من قلبه ، ولكنه وفق وعثر على ضالته ، وكانت فلورنس فون ساس المجرية زوجته الثانية ورفيقته فى مجاهل إفريقية .

إفريقية التى بدأت تشغل أحلام صمويل بعد سيلان !

* * *

وننتقل مع المؤلفة إلى الباب الثانى من كتابها المعنون « بيكر المكتشف » (١٨٦١ — ١٨٦٩) وقد قسمته إلى ثلاثة أجزاء : فروع النيل فى الحبشة ، ألبرت نيانزا ، العودة .

وفيه تناولت وصف رحلة بيكر عبر الصحراء السودانية مع زوجته الحسناء على ظهور الجمال فى إفاضة حتى وصوله إلى الحبشة وجولاته فى أنحائها باحثاً مدققاً فى كافة أحوالها وعادات شعوبها ، وكان بيكر قد تعلم العربية فسهل عليه الاتصال بمن كان يقابلهم ، ثم عاد إلى الخرطوم واتجه ثانية نحو منطقة البحيرات الاستوائية حيث منابع النيل (١٨٦٢ — ١٨٦٣) وفى هذا الجزء نقلت المؤلفة مما كتبه بيكر فى مؤلفاته عن المتاعب والأهوال التى كانت تهدد حياته وموقف زوجته مع رؤساء قافلته ورجالها الذين ألف منهم زمرة من الأصدقاء

انقلب عليه بعضهم وانضموا إلى أحد زعماء تجار الرقيق .

وبالرغم من كل تلك المتاعب وصل إلى بحيرة ألبرت نيانزا التى ألف لها كتاباً يعتبر أول كتاب عنها ، واستمر فى مسيره حتى بلغ الشلالات التى أطلق عليها اسم رئيس الجمعية الجغرافية — مرشيزون ؛ وبعد جولات استغرقت عامين ونصف عاد ثانية إلى الخرطوم ومنها يرجع إلى لندن فائزاً .

وننتقل إلى الكتاب الثالث « بيكر الباشا » (١٨٦٩ — ١٨٧٣) وهو أهم فصول الكتاب وقد قسمته المؤلفة إلى ثلاثة أجزاء : نداء إفريقية ، الإسماعيلية ، عدل جاف ، الحرب والسلم . ومصدر هذا القسم فى الكتاب مقتبس من كتاب بيكر المعروف بـ « الإسماعيلية » .

ويعتبر كتاب الإسماعيلية وثيقة فياضة بحقوق مصر فى السودان الجنوبى ، منذ استدعى الخديو إسماعيل « مستر بيكر » وعقد معه عقداً فى ١٧ مارس سنة ١٨٦٩ يتعهد فيه بالدخول فى خدمة إسماعيل باشا ، فيخدم الحكومة المصرية لمدة سنتين على الأقل ابتداء من أول أبريل سنة ١٨٦٩ وتكون مهمته قيادة حملة غرضها ضم بلاد حوض النيل وإفريقيا الوسطى إلى الأقطار المصرية أى اعلان السيادة المصرية على بلاد النيل الأبيض التى تقطنها أمم متبربرة لاقوانين لها ، وإلغاء النخاسة فى منطقة النيل الأبيض ، وادخال الوسائل المشروعة للتجارة التى تعود بالفائدة على مصر وإنشاء الملاحة فى البحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء وهى منابيع النيل الرئيسية . وعلاوة على ذلك إنشاء خط من النقط العسكرية ابتداء من غندكرو (الإسماعيلية) فى حوض النيل المتوسط وذلك ضماناً للاتصال من أقصى نقطة ، وقاعدة أعمال الحامية ، وضم الأراضى التى تمر بها هذه النقط العسكرية بعد إنشائها إلى أراضى الإمبراطورية المصرية وما إليها (١)

ولكننا نلاحظ أن للمؤلفة رأياً قديماً عن إسماعيل وجهوده العظيمة ، فلم تنصفه على ضوء وثائق التاريخ الحديثة بل جرت فيما كتبته عنه على نسق المؤلفين الانجليز القدامى فى القرن التاسع عشر ، وحبذا لو جهدت نفسها قليلا باحثة فى مئات الوثائق التى يضمها قسم المحفوظات التاريخية بقصر عابدين .

وبالرغم من عدم إنصافها فهى تنقل حرفياً ما أورده بيكر فى تقريره الذى

(١) Letter to Lord Wharncliff quoted in Sir Samuel Baker's Memoir.

كتبه فى مارس ١٨٨٠ (بعد عزل اسماعيل) إلى لجنة مقاومة النخاسة قائلا :

His Highness Ismail Pasha gave me full powers With respcet to the slave-trade, and took greatest interest in its suppression; to carry out this plan, I havc absolute power, conferred by the Khedive.

تصف المؤلفة سير حملات بيكر بالتفصيل ومعاونة القواد والجنود المصريين له فى كل مكان ورفعه أعلام مصر فى غندكرو وغيرها من البلاد الجنوبية . إنه لفصل فخم حقاً يصف أعمال مصر فى تلك الأقاليم التى أرادت أن تضمها إلى أحضان الحضارة الحديثة فى الوقت الذى كانت تمهد الدول المتمدينة الأخرى لإلحاقها بحظيرتها بدافع التوسع والتملك والاستعمار .

إنها لصفحات رائعة (١٨٥ — ١٩١) التى دونت فيها المؤلفة حفلة رفع العلم المصرى على غندوكرو وزينتها بصورة سوف تبقى على مر الزمن دليلا على آمال مصر وبعد نظر حاكمها .

وجهود بيكر واضحة فهو يعمل فى سبيل الإنسانية المعذبة لإنقاذ عبيد المديريات الاستوائية الذين استغلهم تجار النخاسة أجيالا وملأوا بهم أسواق أميركا الشمالية والجنوبية ، تلك الجهود الشاقة التى مهدت لجوردون السبيل لإتمام رسالة خديو مصر .

ولا نبالغ مع القائلين أن بيكر كان إنجليزياً له صفحة فى التاريخ مجيدة رائعة . والفضل فى ذلك عائد إلى مصر ورجالها الذين عاونوه فى القاهرة والخرطوم وفى كل بقعة وصل إليها فى الجنوب .

أما الكتاب الرابع فهو خاتمة حياة بيكر (١٨٧٣ — ١٨٩٣) عنونته المؤلفة — بيكر المستشار عند ما قصد قبرص لخدمة الإمبراطورية . وفى هذا الفصل يتضح انهيار أعمال بيكر وخليفته جوردون فى أقاليم خط الاستواء ، وتصف الأحداث التى لحقت بمصر عقب الاحتلال البريطانى وانسحاب الحاميات المصرية من جميع أنحاء الجنوب .

وفى صفحة ٢٦٠ لاحظنا أن المؤلفة عندما تناولت الحديث عن حملة هيكس المشئومة ضد المهدى وهزيمتها فى معركة شيكان بكوردفان قالت «دارفور» . ولا شك أنها وقعت فى هذا الخطأ سهواً . وهذا لا يعد شيئاً يذكر إلى جانب العمل الذى أقدمت عليه بتقديم جميع مؤلفات سير صمويل بيكر العديدة النادرة فى مجلد واحد .

عبد الرحمن زكى

الاستيلاء على دمياط

مخطوطة أوليفر بادربورن نشرته جامعة بنسلفانيا بولاية فيلادلفيا عام ١٩٤٨ — يقع في ١١٢ صفحة من القطع الصغير

Oliver of Paderborn : *The Capture of Damietta,*
translated by John. J. Gavigan

في الولايات المتحدة الأميركية حركة نشيطة ، تهدف إلى نشر مؤلفات العصور الوسطى القديمة ، عمادها الجامعات والجمعيات التاريخية والخبراء . ولذلك تطالعنا فيها كثرة المجلات الخاصة ببحوث تلك العصور وفي طليعتها مجلة Speculum التي تشرف عليها الأكاديمية الأميركية للعصور الوسطى ، برئاسة الأستاذ ميللر من جامعة كمبردج (ماساشوست) وزمرة من المعاونين الاخصائيين .

والكتاب الذي نعرضه اليوم « الاستيلاء على دمياط » كتب مقدمته مستر جون لامونت المؤرخ المعروف الذي ساهم منذ سنوات في إخراج كتاب التراث العربي ، وقد أوضح في مقدمته الغرض الذي نشرت لأجله تلك المخطوطة فقال إن الحملة الصليبية الخامسة (والسادسة في نظر الآخرين) على أهميتها لم تحظ بعناية خاصة أو دراسة مفصلة ، ولذلك كانت لمخطوطة أوليفر بادربورن أهمية لأنها تعبر عن العقلية المحركة التي سادت الحملة وعصرها .

فالصليبية الخامسة بلغت هدفها ، في سرعة وشجاعة ونجاح ، قلّ أن نشاهد مثيلها في صليبية أخرى ؛ فقد كانت الاستراتيجية العليا لحملات القرن الثالث عشر مهاجمة مصر ، وهي رأس البلاد الإسلامية وقلبها ، والعمل منها على إعادة أورشليم وضمها إلى أحضان المسيحية بعدما فقدتها في مقابل تسليم ما تستولى عليه من بلدان في أراضي سلطان مصر .

وكان زعماء تلك الحملة يعتمدون على قوة بحرية تشد أزر قواتها البرية في حالة بعد مواصلاتها ، كما مر بالحملة الثالثة التي صادف قادتها الأهوال والشدائد في حملة فلسطين ، أما في كلتا الحملتين الرابعة والخامسة فكانت

الخطة العليا هى الهجوم البحرى على مصر والتهديد بالاستيلاء على قطعة من أراضيها يستعيضون فيما بعد عنها أورشليم وغيرها من الثغور الفلسطينية بشروط صلح يرتضيها المحاربان .

وأهم من ذلك أن الحملة الخامسة مشروع بابوى كامل، باركتها الكنيسة الأم فى رومة ولذلك كان معظم رجالها ممن استأجرهم رجال البابا من الألمان وولى قيادتها نائب عن البابا وهو بيلاجيوس فلم يقدها ملك من ملوك المسيحية أو أمير ، كما كان الحال فى الحملات السابقة . ومن أجل ذلك أيضاً كان فشلها على أثر النجاح الذى صادفها فى مبدئها ، وكان أوليفر كاتب المخطوطة من رجال بيلاجيوس وأتباعه الذين يدينون له بكل ولاء . وقد اشترك فى الحملة بقلبه وإيمانه وقلمه ولسانه .

فمخطوطة أوليفر ، والحال كذلك ، منفذ لعقلية روح ونفسية صليبيى القرن الثالث عشر ومنها نقف على ما كان يدور بخلد المقاتلين فى الحملة ، كبيرهم وصغيرهم ، بدافع الشعور الدينى والوعى المسيحى وربما بعيداً عن حب التوسع والتملك .

وأوليفر يمثل المسيحية المتعصبة فى القرن الثالث عشر ، لكننا عندما نقرأ وصفه لمعركة دمياط ، فكأننا نشتم رائحة النار والدم ، ونستمع إلى صليل السيوف والرماح وصهيل الخيل فى المعركة ، وفظائع النار الإغريقية ، وبريق الخوذ المعدنية ، وأنين الجرحى والقتلى من الفريقين وما إليها . . . فهو إذن إلى جانب تدينه ، يشبه المراسل العسكرى فى الحرب الحديثة .

أما المؤرخ الذى ترجم مخطوطة أوليفر من اللاتينية فهو الأب جون جافيجان الأستاذ المساعد للدراسات القديمة فى كلية فيلانوفا — وقد علق عليها وأوضح نقاطها فى حواش وملاحق وفهارس ، فكان عمله جديراً بالثناء ، تتوفر فيه الشروط العلمية الصحيحة .

مهد المترجم فى الفصل الأول (المقدمة) للكتاب : فتكلم فى عدة صفحات عن أوليفر ونشأته وتربيته ومناصبه العلمية التى تولاها ومنها أستاذية اللاهوت فى مدرسة الكاتدرائية التى شغرت بعد وفاة أسقفها ، فارتقت مكانته بين رجال الدين فى كولون وسافر إلى باريس سنة ١٢٠٧ وقصد جامعتها المشهورة .

وفى ذلك الحين ، بدأ البابا اينوسنت الثالث يدعو إلى صليبية لاستعادة

أورشليم ورأى فى أوليفر خير معوان لنشر دعايته فى نطاق عمله ، فقام بمهمته ثم قصد إلى رومة يمثل كبير أساقفة كولون فى مجلس لاتيران الكبير (١٢١٥) الذى قرر أعضاؤه مشروع الصليبية الخامسة فى يونية ١٢١٧[1] .

ولما عاد أوليفر إلى منصبه جاهد بحرارة فى سبيل الصليبية إلى أن تقرر سفر رجالها من مارسيليا ووصولهم إلى ثغر عكا فى يولية / أغسطس

وواضح من المخطوطة أن كاتبها بدأ فى تسجيل ذكرياته فى أثناء نشوب حوادث الحملة (Historia Damiattina) ثم أكملها فيما بعد ، أى أنها كتبت فيما بين عامى ١٢١٧ و ١٢٢٢ . يتضح ذلك من صيغة الأفعال فهى بين المستقبل والماضى — وآخر حادث مؤرخ هو سبتمبر ١٢٢٢ عندما عقد مجمع دينى فى فيرونة فى ١١ نوفمبر .

ويلاحظ فيما دونه أوليفر ميله إلى بيلاجيوس ، مندوب الحملة البابوى ، وتسامحه وأغضاؤه النظر عما يرتكبه من الأخطاء ، على عكس معاملته لجون دى بريين ، أحد القادة والذى كان فى وقت ما ملكاً لبيت المقدس . كذلك نراه عنيفاً كل العنف على بعض رجال الحملة الذين كانوا من أسباب فشلها . ثم مادحاً لمقاتلى رجال الهيكليين (Templers) . وأهم ما نلاحظه أن أوليفر كتب ثلاثة كتب أخرى هى :

١ — وصف الأرض المقدسة   Descriptio Terre Sancte

٢ — تاريخ بيت المقدس والحوادث الهامة المتنوعة إلى عام ١٠٩٩

٣ — تاريخ ملوك الأرض المقدسة   Historia Regum Terre Sancte

وقد كتب كتابه الأخير هذا فى خلال حصار دمياط (١٢١٩ — ١٢٢٠) .

ويصف أوليفر فى مخطوطته أو رسائله أخبار الحملة الخامسة منذ إقلاع السفن ووصولها إلى دمياط (٢٩ مايو١٢١٩) وإغارتها عليها ثم مهاجمة المدينة واشتعال الحرب وسقوط الثغر فى أيدى الصليبيين (٥ نوفمبر ١٢١٩) وما ارتكبه المهاجمون والمدافعون من فظائع تقشعر منها الإنسانية ، ونجده يبالغ فى وصف ما اجترحه المسلمون ، ويذكر موت السلطان الملك العادل[2] وارتقاء الملك

---

(١) مات البابا اينوسينت الثالث فى عام ١٢١٦ ولكن استمر اتباعه فى مشروعه الصليبى .

(٢) كانت وفاة العادل فى ٣١ أغسطس ١٢١٨ م/٧ جمادى الثانية عام ٦١٥ (أبو الفداء)

الكامل العرش ، وما تقدم به هذا من شروط للصلح أهمها أن يغادر الصليبيون البلاد المصرية على أن يأخذوا مملكة بيت المقدس ، ولكن الصليبيين رفضوا هذا العرض السخى لأنهم رأوا أن بيت المقدس كانت تحيط به الامارات الإسلامية التى تهددهم بالطرد متى شاء المسلمون .

وبدءوا فى تنفيذ خطة الزحف على القاهرة . ولكنهم أخطأوا التدبير . فاتخذوا طريق التقدم فى قلب الدلتا الذى تكتنفه الترع والقنوات بدلا من اتباع الطريق الذى يخترق الصحراء الشرقية ، على حين استعد الملك الكامل للقائهم برجاله ، وبالجند الذين أرسلهم أمراء الولايات الأيوبية ، ثم لجأ إلى قطع جسور الترع التى تحيط بقوات الصليبيين ، فأحاطتهم المياه ، وأصبحوا فى مواقف لا يحسدون عليها بالرغم من النجدات التى تصلهم بانتظام ، وأخيراً لم يروا بدأ من طلب الصلح [١] واستعاد المصريون دمياط [٢] بعد أن فقد المسيحيون الآلاف من رجالهم والكثير من سفن أسطولهم ، وكانت المياه تزيد يوماً بعد يوم فى فيضانها وتطفو على الجسور وتحاصر المسيحيين وتتعذر مواصلات القوات بعضها مع البعض .

ويوضح لنا أوليفر ممهدات الصلح واجتماع الأمراء المسيحيين ببلاجيوس ومناقشتهم لموقفهم الخطير ، فلما انتهوا من محادثاتهم فى ٣٠ أغسطس ١٢٢١ أقروا شروط السلطان الكامل ، وبدأ المسيحيون فى الانسحاب من دمياط وركوب البحر بعد تلقى الرهائن وإعادة الأسرى إلى الجانبين .

وفى الفصل ٨٢ يعدد أوليفر أسباب هزيمة الحملة فيقول :

"If it is asked why Damietta returned so quickly to the unbelievers يقصد المسلمين the reason is clear; it was luxury-loving, it was ambitious, it was mutinous, besides, it was exceedingly by ungreattful to God and to men."

لقد عزى الهزيمة إلى أسباب معنوية دينية ، ولم يذكر عن الأسباب العسكرية شيئاً .

إنه لجهد علمى يقدر للأب العلامة جون جافيجان ويهنأ عليه . فقد أفاض فى تعليقاته بالكثير من الحواشى المفيدة التى يعرف فائدتها كل المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى . . .

عبد الرحمن زكى

---

(١) الفصول ٧٦ — ٨٠ من المخطوطة وصفحة ٨٧ — ٩١ من الكتاب .

(٢) سلمت دمياط إلى قوات السلطان الكامل فى ٨ سبتمبر ١٢٢١ م ، يوم الأربعاء الموافق ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ (أبو الفداء) .

البحرية المصرية القديمة خلال الأسرة الثامنة عشرة

تأليف تورجنى سافى سودربرج

مطبوعات جامعة أوبسالا — عام ١٩٤٦

The Navy of The Eighteenth Egyptian Dynasty

TORGNY SAVE-SODERBORGH, Sweden.

ما انفك للقوة البحرية تأثير كبير فى تاريخ مصر منذ القدم حتى اليوم . وتشهد بذلك أحداث التاريخ الكبرى ، منذ فطن الفراعنة إلى حماية حدود وطنهم من ناحية الشرق ؛ وكانت السيادة البحرية متممة للسيادة البرية ، وبعبارة أوضح كان الأسطول يكمل أعمال الجيش ، ولذلك نرى العمليات الحربية قد رافقت العمليات البرية فى الحملات المصرية القديمة .

ولما فكر الإسكندر فى السيادة العالمية لم يغب عن إستراتيجيته موقع مصر وأهمية مركزها لتوسطها بين البلاد التى ابتغى ضمها إلى نطاق سيادته — فكان الأسطول الإسكندرى أظهر عوامل نجاحه فى تأسيس دولته الكبرى ، ومن ثم نفذ أولا مشروعه الكبير فى الاستيلاء على مصر ذات الموقع المنيع والأراضى الغنية . وتبع خلفاؤه البطالمة[1] نفس السياسة المائية البرية ، وكذلك فعل الرومان ، والخلفاء ، والفواطم ، والأيوبيون ، وسلاطين المماليك ، والبنادقة ، والعثمانيون ، ونابليون ، ومحمد على الكبير ، وبناة الإمبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر .

ومع هذه الأهمية نجد أن ما ألف عن بحرية مصر القديمة إلى اليوم من القلة والندرة بمكان واضح ، إذا قورن بما ألفه الأخصائيون عن الجيش ونظمه وأسلحته وأساليب قتاله ومعاركه .

(١) استطاع بطليموس الأول (سوتر) ببحريته القوية أن ينصب نفسه سيدا على قبرص وسواحل فلسطين وفينيقية ، واتسعت امبراطوريته فى حوالى ٢٠٠ ق . م فشملت مصر ليبيا وبرقة وشمال بلاد العرب (بتراء) وبلاد اليهودية وفينيقية وجوف الشام وقبرص .

ولذلك كان لهذا البحث القيم الذى كتبه الدكتور سافى أهمية كبرى تستحق الدراسة والعناية .

قسم المؤلف بحثه إلى أربعة فصول ، تناول فى الفصل الأول منها بحرية النيل والمعارك التى وقعت فى مناحى الوادى ، ومن أهمها طرد الهكسوس من مصر وفتح بلاد النوبة .

وفى الفصل الثانى بدأ المؤلف كلامه عن طبيعة التجارة المصرية والبحث عن أسواق للتصدير والاستيراد كما حقق موقع إقليم بونت ، ثم تكلم عن التجريدات التى قامت بها الدولتان القديمة والمتوسطة وأهمها حملة الملكة حتشبسوت ونمو العلاقات الاقتصادية مع تلك البلاد فى أيام تحوتمس الثالث وأمينوفيس الثانى وتحوتمس الرابع وامينوفيس الثالث واخناتون وحورمحب والرمامسة .

فإذا اختتم هذا الفصل تحدث فى الفصل الثالث عن النشاط البحرى المصرى فى شرق البحر المتوسط ، وتأسيس الإمبراطورية المصريةفى آسيا ، وحملات تحوتمس الثالث واعتمادها على الأعمال البحرية ، وسيادة المياه فى المنطقة البحرية المصرية والفلسطينية . وفى خلال بحثه نراه يصف أنواع السفن والمصطلحات الفنية ، ذاكراً أهم الشخصيات البحرية ، والدفاع عن مصبات أفرع النيل . وينهى فصله بعوامل ازدهار البحرية المصرية فى الأسرة الثامنة عشرة إلى أفول نجمها .

وعرج فى الفصل الرابع ، وهو الأخير ، على تجنيد البحارة المصريين ووظائفهم فى الأسطول وملابسهم وعتادهم وأعلامهم البحرية وواجبات قيادة البحرية ، وقباطنة السفن وأمراء البحار . . . إلخ .

ولقد استمد المؤلف أصول موضوعه الطريف من المصادر الأثرية وورق البردى موضحاً ذلك بالرسوم والصور الكثيرة . ويعتذر المؤلف فى خاتمة كتابه بأنه ما زال هناك مجال فسيح أمام مؤرخى البحرية القديمة للعمل لاستيفاء المشاكل العديدة الغامضة فى تاريخ البحرية .

والأمل وطيد أن يضطلع أحد محبى البحرية المصرية بتكملة ما زال مجهولا فى تلك الناحية الهامة البكر من تاريخ مصر البحرى .

عبد الرحمن زكي

إفريقيا الاستوائية والشرقية والجنوبية

تأليف

فرنان مورتا

Afrique Equatoriale Orientale et Australe Par FERNAND MAURETTE

هذا الكتاب هو الجزء الثانى عشر من الموسوعة الجغرافية الهامة ، التى تصدر فى باريس والمعروفة باسم Geographie Universelle ؛ ويراد بها أن تشتمل على دراسة اقليمية لجميع جهات العالم ، تتناول شرح الظاهرات الجغرافية ، طبيعية كانت أو بشرية ، لكل اقليم من الأقاليم .

ولعله لا يجوز لنا أن ننتظر أن تعالج جميع الأقاليم معالجة متساوية ؛ ولذلك لا يدهشنا أن الجزء الخاص بفرنسا قد خصص له ثلاثة مجلدات ، وكلما ابتعدنا عن فرنسا كانت المعالجة أكثر اختصاراً . حتى إذا وصلنا إلى إفريقية وجدنا هذا الجزء الثانى عشر يتناول فى مجلد واحد ثلاثة من أعظم الأقاليم ، وهى إفريقية الاستوائية ، وإفريقية الجنوبية ، كما يتناول شرق إفريقيا من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندى .

وبديهى والحالة هذه أن الذى ينشد التوسع فى دراسة قطر من الأقطار فى هذه الأقاليم كلها لن يجد فى هذا الجزء ما يشفى الغلة . ولكنه واجد فيه بلا شك ما يثير شهيته أو يستفزه للمضى فى الدراسة والمطالعة ، فكل موضوع من الموضوعات معالج بنفس الطريقة الشائقة المتبعة فى هذه الموسوعة ، التى تعرض الموضوعات الجغرافية عرضاً صحيحاً جذاباً ، مع الموازنة التامة بين النواحى الطبيعية والبشرية ، بحيث لا يطغى أى موضوع على غيره من الموضوعات . كما أن الدراسات الجغرافية معروضة عرضاً منطقياً مسلسلا . كما أن الرسوم والخرائط التى تشرح المتن وتوضح النصوص ، من الجودة والاتقان بحيث لا يستطيع القارئ أن يتمنى أفضل منها . وكثير منها ليس من السهل على غير المتخصصين فى كل إقليم من الأقاليم أن يعثر على مثلها .

وما دام الكتاب يتناول كل هذا العدد العظيم من الأقاليم ، فاننا نستطيع أن نعذر المؤلف إذا لم يخصص لجغرافية مصر سوى ١٩ صفحة ، وللسودان عشر صفحات . وإذا كانت جزيرة مدغشقر قد خصص لها مع ذلك ٣٣ صفحة ، فان اهتمام القارئ الفرنسي بها مما يفسر هذا التفاوت .

غير أننا لا نستطيع حين نطالع الجزء الخاص بالسودان مثلا أن نغتفر بعض الزلات التي لا مبرر لها ، فان المؤلف يورد مساحة السودان فى صفحة ٢٤٤ بأنها ٢٦٤,٠٠٠ كيلو متر مربع ، ولا ندرى لماذا سمى السير وليم جارستن فى صفحة ٢٠٤ بأنه سير وليم بارستون ! غير أن هذه الهفوات اليسيرة ، ولعل أكثرها مما أهمله المراجع ، لا تنقص من فائدة الكتاب لكل باحث يريد أن يطالع تمهيداً جغرافياً شاملا لجميع الظاهرات الجغرافية ، لأى اقليم من الأقاليم الثلاثة التى يعالجها الكتاب .

وفى نهاية كل باب من الأبواب الستة التى اشتمل عليها الكتاب ، بيان ببعض المؤلفات التى تساعد القارىء على التوسع فى دراسة كل موضوع ، وعلى الرغم من أن كشف المراجع مختصر ، ولكنه نافع على كل حال . كذلك يختتم المؤلف كل باب بمعلومات إحصائية عن كل إقليم ، حتى يسهل الرجوع إليها ، تجنباً لحشر فصول الكتاب بالجداول والأرقام .

محمد عوض محمد

مصر
فى عصر الإخشيديين
للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

(طبع بمطبعة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة عام ١٩٥٠ ، وهو يقع فى ٤١٨ صفحة ويشتمل على أربعة رسوم وست عشرة لوحة وخريطتين)

منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً صدر مؤلفان (١) هامان تناولا فى إسهاب عصرين من العصور الأولى فى تاريخ مصر الوسيط هما عصر الطولونيين وعصر الفاطميين ، إلا أن الفترة القصيرة الواقعة بين الأسرتين أى من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م) لم تستهو أحداً من المؤرخين ليتعمقها ويفرغ لها . حقاً لقد أدرج فرديناند فستنفلد هذه الحقبة فى كتابه « حكام مصر فى عهد الخلفاء » الذى أصدره سنة ١٨٧٥ ، وعالجها كورت تلكفيست من حيث ارتباطها ببحثه الذى نشره عام ١٨٩٩ عن كتاب المغرب لابن سعيد المغربى ، غير أن أحداً لم يفرد لتاريخ الإخشيديين كتاباً خاصاً شبيهاً بالكتابين اللذين سبقت الإشارة إليهما ، حتى ظهر مؤلف الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف فملأ هذه الثغرة فى تاريخ مصر الوسيط . ولم تأل الدكتورة جهداً فى جمع كل ما تيسر من مادة تاريخية بما فى ذلك المخطوطات وأوراق البردى والنقود ، ولم تكتف بمعالجة هذه الذخيرة من الناحية التاريخية بل ضمنت بحثها وصفاً دقيقاً للشئون الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والآثار والصناعات وما بلغه هذا العهد القصير نسبياً من رقى فى العلوم والفنون والآداب .

ويقع هذا الكتاب فى أحد عشر فصلا تسبقها مقدمة موجزة (من ص ١ إلى ص ١٠) عن مراجع الكتاب يتلوها تقديم يقع فى أربع صفحات .

---

(١) « الفاطميون فى مصر » للأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن طبعة القاهرة سنة ١٩٣٢ « الطولونيون » للأستاذ الدكتور زكى محمد حسن ، باريس ١٩٣٣ .

ويتناول الفصل الأول الفترة السابقة لعصر الإخشيديين ، ويدور الفصلان الثانى والثالث عن تاريخهم السياسى ، وفى الفصل الرابع حديث عن مؤسس الأسرة وخلفائه ورجال حاشيته ، أما الفصل الخامس فقد خصص لشئون الإدارة ورجالها ، كما خصص الفصل السادس لرجال القضاء ، ويعالج الفصل السابع شئون طبقات المجتمع المختلفة ومنها رجال الجيش والأسطول ، ويتطرق إلى بحث أساليبهم فى الحياة وعاداتهم وأعيادهم واشتغالهم بالصيد والزراعة والتجارة والحرف والصناعات ، ويتحدث الفصل الثامن عن آثار ذلك العصر وفنونه ، ويلم الفصل التاسع بأحوال رجال الشريعة والأدب والعلم ، ويصف الفصل العاشر السياسة الداخلية ، ويوضح الفصل الحادى عشر العلاقات الخارجية والغزو الفاطمى ، وأخيراً تأتى خاتمة الكتاب ، يعقبها فى النهاية بيان شامل للمراجع العربية والأوربية وفهرس للرسوم واللوحات وفهرس للأعلام .

ولم يهمل الكتاب مرجعاً من المراجع التاريخية ، بل هو يكاد لا يبقى على زيادة لمستزيد ، على أنه يصح أن نضيف إلى الصفحة السابقة مؤلفين يتناولان أيضاً عصر الإخشيد : الأول لأبى الحسن على بن أبى المنصور الحلبى الذى توفى عام ٦٢٣ هجرية ، وهو كتاب يعالج تاريخ الطولونيين والإخشيديين والمخطوط محفوظ فى مكتبة جوتا (مخطوط رقم ١٥٥٥) ، والثانى كتاب إبراهيم ابن وصيف شاه الذى وضع تاريخاً لمصر حتى عام ٦٨٨ هـ فاشتمل على وصف عصر الإخشيد ، واسمه « كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية » وهو محفوظ فى المكتبة السالفة الذكر (مخطوط رقم ١٦٤٤) .

كذلك يمكن أن نضيف إلى صيغة « طغج » الواردة فى صفحة ٥٧ سطر ١٤ وحاشية رقم ٣ وهى الصيغة الرسمية لاسم مؤسس البيت الإخشيدى المتوارد فى المصادر الأدبية وفى بعض الوثائق (كأوراق البردى الخاصة بالأرشيدوق راينر – وثيقة عربية رقم ٧٨١٦) يمكن أن نضيف صيغة أخرى هى «طقج» نجدها فى بعض الوثائق البردية مثل دليل معرض أوراق البردى الخاصة بالأرشيدوق راينر رقم ٩٢٧ والوثيقة البردية رقم ٩٥٣ . وكذلك تستعمل كلمتا طغجى وطقجى فى النسبة ، ومثال ذلك ما نقرأه فى المخطوط العربى رقم ٦٦٥ المحفوظ بدار الكتب الأهلية بفينا (ارجع إلى يوهان فون كاراباتشيك . وفى

بيانات مستخرجة من مجموعة أوراق البردى الخاصة بالأرشيدوق راينر ١٨٨٧ الجزء الأول صفحة ٦٣ و ٦٤ حاشية رقم ١) .

وفى صفحة ٦٩ يمكن أن يضاف إلى محمد بن طغج « مولى أمير المؤمنين » كما ورد فى برديات الأرشيدوق (انظر رقم ٧٦١٨ فى بيان هذه البرديات) .

ويمكننا أن نضيف إلى ما جاء فى صفحة ٩٠ عن مراسلة الإخشيد مع الإمبراطور البيزنطى ما ورد فى مقال كانار المسمى :

Une lettre de Mohammad ibn Tugj al-Ihsid emir d'Egypte à l'empereur Romain Lécapène in Annales de l'institut d'etudes Orientales II (1936), pp. 198 - 200.

ومما يسترعى الاهتمام ما جاء فى ص ٢٨٥ – ٢٩٣ من هذا المؤلف عن الآثار ، وما جاء فى ص ٢٩٤ – ٢٩٩ من الحقائق التاريخية عن النقوش والكتابات ذات القيمة التاريخية .

وموجز القول أن هذا المؤلف الجديد للدكتورة سيدة كاشف جدير بكل تقدير وبأن يحتل المكانة الرفيعة اللائقة به ، وحبذا لو توّجت المؤلفة جهدها المشكور بإعادة نشر المرجع الأساسى الذى جعلت جل اعتمادها عليه ونعنى به كتاب المغرب لابن سعيد .

(ترجمة : أحمد حلمى على)

أدولف جروهمان